رواية

إسْلام البنّا

سرايا الجابي

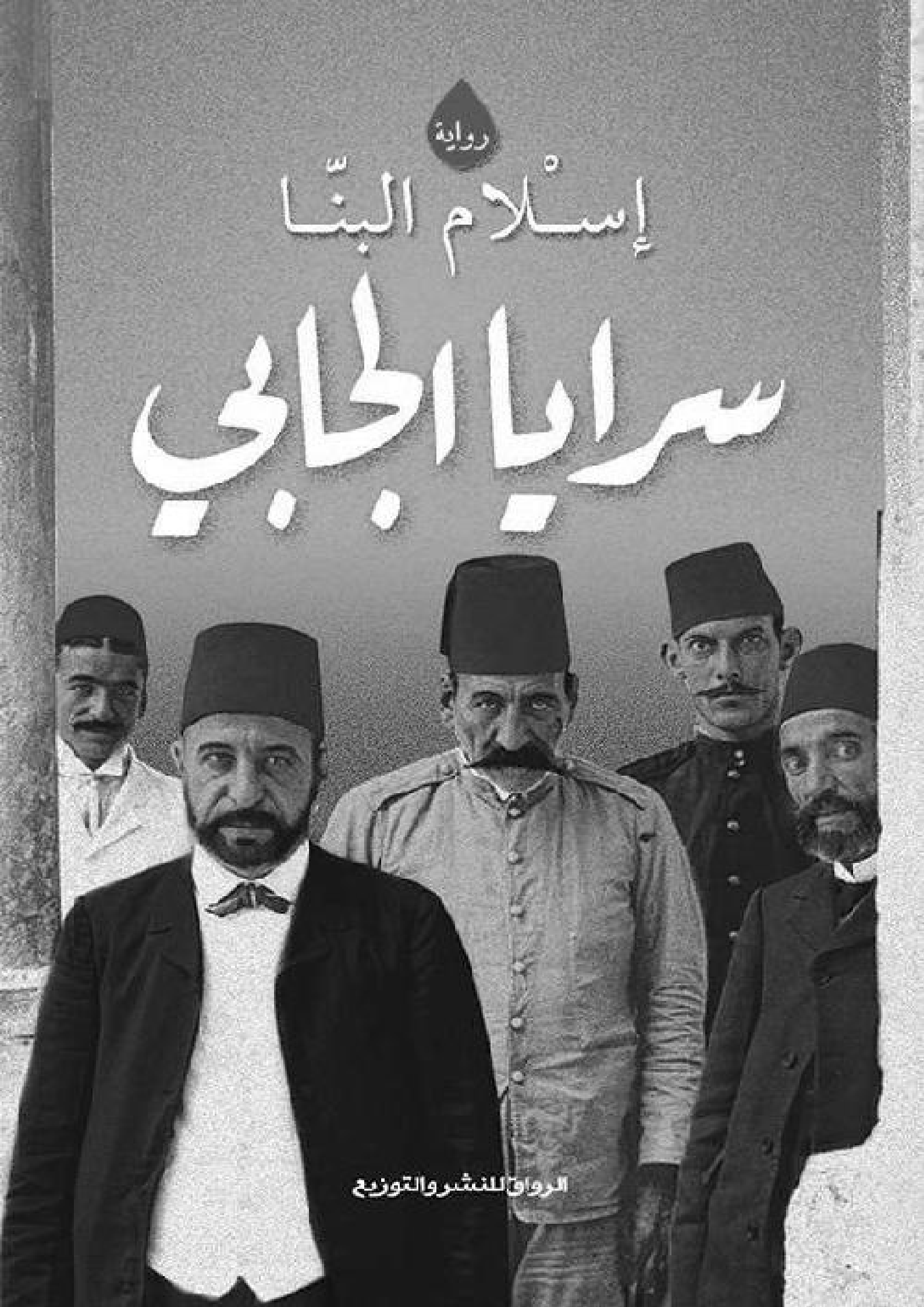

الرواق للنشر والتوزيع

سرايا الجابى

إسلام البنا

الغلاف : عبد الرحمن الصواف

الترقيم الدولي : **9789775153982**

جميع حقوق النشر محفوظة للرواق النشر و التوزيع

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

إهـــداء

إلى من كوتهم نار الحجْر... إلى أرواح من قضوا في الوباء... نتذكركم.

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

سورة النمل - الآية ٥٦

الجزء الأول

«كلما ازداد ابتعاد المجتمع عن الحقيقة،

ازدادت كراهيته لمن يتحدثون بها»

جورج أورويل

(١)

لا بد للسائر في طرقات الكفر ذاك النهار أن يصاب بدرجة من درجات الفصام... فعلى أحد جانبي الدرب الترابي الذي يشق الكفر ارتفعت أعمدة الدخان، تعلن احتراق مجموعة من الدور المبنية بالطين والتبن بحوض الغرايبة... تسمع عويل النسوة وبكاء الأطفال المرعوبين يحيل هدوء ساعات اليوم الباكرة إلى هرج مستحكم... ترى الجزع الممزوج بالغضب في وجوه الرجال وهم يركضون لنقل الماء من الترعة كيفما اتفق ليطفئوا النيران قبل أن تبتلع المزيد من الدور.

على الجانب الآخر كان هناك عالم صغير منفصل... عالم ازدحمت إحدى أزقته الضيقة بخلقٍ لا يرون الدخان ولا يسمعون الصراخ... عالم لا يُسمع فيه سوى هرج الفتيات الجذل وهن يتسابقن على الاصطفاف فوق أسطح الدور وفي طاقاتها الواسعة، كي يرين الحدث الفريد عن قرب... تزاحمت اثنتان منهن بمدخل إحدى الدور بين الرجال، يسري بينهما الهمس بفحش القول وهن يشرن إلى نعيم عسكر، فتى الكفر المدلل، الماثل في خشوع بين يدي المقدس عبد ربه القص... تقول إحداهن للأخرى كلما همست لها

- اختشي يا بت

تتبعها ضحكة رقيعة لا تمت للخشية بصلة... ظلت الفتاتان غارقتين في همسهما الضاحك حتى قطعته شهقة إحداهن عندما قفزت صاحبتها هلعًا

- آه لو مسكتكم يا ولاد الصرمة منك له

طاشت فردة المركوب التي قذفتها الفتاة على سيل من العيال مروا بين رجليها كالجرذان... التقطها

أحدهم وأخرج للفتاة لسانه، قبل أن يولي هاربًا ليلحق بأقرانه الذين يركضون نحو الشاحنة الضخمة التي جاءت إلى الكفر للتزود بالمؤن، ونقل ثلاثة من شبابه إلى سراي الجابي بالقاهرة، حيث سينضمون إلى كتيبة الخدم هناك.

طالع الولد القابض على المركوب الحريق على الجانب الآخر من الطريق بغير اكتراث، قبل أن ينضم إلى رفاقه في تفحص الشاحنة، وسائقها الذي يرتدي بدلة لم ير لها مثيلاً من قبل

ـ بيقول لك سرايا الجابي فيها خدم قد اللي ف سرايا عابدين

هكذا قال الفتى بنبرة العالم ببواطن الأمور، وهو يلمس إحدى عجلات الشاحنة التي لا تزال تحتفظ بسخونة الطريق... قطب رفيقه حاجبيه وضربه على قفاه فسقط المركوب من يده

ـ سرايا عابدين إيه... أكتر يا جحش

تعالى سباب الفتى المقذع وهو يحاول أن يلحق برفيقه ليرد له الصاع صاعين، لكن السباب سرعان ما تبدد عندما جلجل صوت المقدس عبد ربه وهو ينهي دعاءه لنعيم

ـ آمين

رددتها خلفه حناجر الجمع الغفير حتى اهتزت لها جدران الدور المحيطة... يغطي تأمينهم على عويل نسوة الغرايبة الملتاع للحظة.

سارع الأهالي بالالتفاف حول نعيم عسكر فور انتهاء المقدس من مباركته... تتسابق أيدي الأصدقاء والأقارب لمصافحته، وتربت ألف كف على ظهره... فيما تنطلق زغاريد الفرح هنا وهناك لتختلط بنواح الجانب الآخر.

عدل المقدس عبد ربه من ثوبه الفضفاض وأشار لفتى يقف منكمشًا بمدخل إحدى الدور المنخفضة، كي يقترب... لم يُخفِ الرجل تأففًا كسى وجهه عندما حان دور ذاك الفتى العشريني الهزيل، الذي لا يزال متمسكًا بنمشه الطفولي... كفت التهاني وتحولت نحوه الأعين، يسري الهمس بين الفتاتين باسمه

ـ الشحات

ـ مالقوش الا ده ياخدوه؟

بصقت الأولى تقززًا وهي تقول

ـ يا اختي يغور وتغور سيرته

شعر الشحات أن ضربات قلبه المضطرب صارت مسموعة للجميع، وهو يقطع تلك المسافة من دار عمته نحو المقدس في خطواتٍ خجلى... حاول عبثًا الحفاظ على ابتسامة متوترة، حين وضع الرجل السبعيني يدًا بيضاء بضة لم تَر الفأس من قبل على جبهته، وشرع يقول

ـ احفظ عبدك الضعيف من الزلل، وكن متكله وعونه، ودبر الأمر بحسب أرادتك كما يوافق صلاحه وصلاح كفرك المجتبى، وارفع عنه الفكر والهم

يتدفق صوت المقدس عبد ربه القص هادئًا، رتيبًا بتراتيل مكررة... فتردد حناجر الجمع بين دعواته

ـ آمين

لم يكن الشحات قبطيًا، ولم يكن نعيم قبطيًا هو الآخر... لكن المرض اشتد بمولانا الجابي فلم يعد يغادر داره ليسبغ على المسافرين خارج الكَفر دعواته بالحفظ من شرور البندر، ما استدعى الاستعانة

بالمقدس.

لم يكن أحد يستمع لدعوات المقدس على أية حال... الفتيات مشغولات بمراقبة نعيم الذي لا يزال يتلقى التهاني على انضمامه لخدم سراي الجابي... العيال يركضون هنا وهناك ويعبثون بالشاحنة فينهرهم السائق... حتى الشحات الماثل بين يدي المقدس لم يكن يستمع لما يقوله الرجل... كان مهمومًا بالبحث عن صديقه دياب، ثالثهم الذي كتبت له مغادرة الكفر إلى السراي... يختلج قلب الشحات كلما اقترب المقدس من إنهاء دعائه... كلما ارتفع نواح عمته معلنًا قرب الرحيل دون أن يظهر لصديقه أثر... يختلس النظرات من بين أصابع المقدس الغليظة إلى المقام المهجور، حيث كان يقف دياب قبل أن يختفى مع تصاعد حريق دور أهله من الغرايبة... ثبتته يد المقدس في مكانه عندما استشعر اضطرابه وهدر فيه

ـ قول يا ابني ورايا... يا أبتاه، ليس كمشيئتي بل كمشيئتك

كرر الشحات ما قاله المقدس بلا وعي... كرره بلسانه لكن قلبه كان هناك، عبر الشارع... حيث تحترق دور الغرايبة دون أن يحرك أحد من أهل الكفر ساكنًا.

أنهى المقدس دعاءه بوصيته بأن يحفظ أسرار الكَفر وأن يتقي كيد المتربصين به

ـ آمين

رددها الجمع بين السعال المتصاعد من اثر الدخان الذي هيمن على الزقاق... أحكم الشحات طاقيته على رأسه حين أفلت المقدس جبهته أخيرا، وراقبه وهو يطالع أعمدة الدخان... يقلب شفته في أسى مصطنع قائلاً

ـ تاني!

غشي الزقاق صمت ثقيل عندما أصبح من المستحيل تجاهل عويل النسوة في حوض الغرايبة... إلى أن قطعه أحدهم بقوله

ـ بينا يا رجالة

حرك الرجال أقدامًا ثقيلة نحو حوض الغرايبة، يلعنون سود الوجوه الذين لم يأت من ورائهم إلا الهم... هرول خلفهم الشحات، لكن زوج عمته قبض على ساعده قبل أن يعبر الشارع

ـ هِمّ يا شحات أُمال... بعدين العربية تمشي وتفوتك

قالها وهو يدفعه دفعًا نحو الشاحنة، فحملت عمته سلة البوص التي تحوي متاعه... تهرول خلفهما وهي تقول

ـ حتفوت الكَفر بخاطرك يا شحات... حتفوت أهلك وناسك... الغربة تقسي القلب وتتوه الأصول يا ابني

تأمل الشحات عمته بذهول حقيقي

أهله وناسه!

لم يكن الاعتراض من طبعه... لكن تلك الكلمة أثارت حنقه حتى إنه كاد يتهكم للمرة الأولى في حياته... لم يكن بين هذا التجمهر العظيم من أتى لوداعه... جلهم أتى ليودع نعيم، والبقية أتوا لتسلم القروش التي بعثها ذووهم من العاملين في سراي الجابي.

ـ اخرسي انتي يا ولية

خرجت كلمات زوج عمته بين سعال عنيف من أثر المعسل الرديء الذي لا يكف عن تدخينه... ضمته عمته إلى صدرها طويلاً لدى الشاحنة، تستبقيه... من بين دموع الوداع لمح الشحات صديقه وقد خلع جلبابه، يركض بقسطٍ من الماء نحو حوض الغرايبة

ـ دياب!

انتفضت عمته عندما صاح باسم صديقه، لكنها تشبثت به، إلى أن أطلقته أخيرا حين زمجر زوجها من جديد... لم تعد هناك فرصة ليعاود الشحات الصياح بعد أن دفعه زوج عمته داخل الشاحنة، قبل أن يدس في يده شرَّبة مولانا الجابي

ـ خليها معاك علشان لو مرضت ولا حاجة

هكذا قال الرجل وهو يجر عمته التي راحت تولول وتلطم صدرها في طريقها إلى الدار.

انحشر الشحات بجوار السائق بعد أن أزاحه نعيم ليستأثر بالجلوس بجوار النافذة... بدا له السائق مهيبًا ببدلته السوداء وشعره اللامع المدهون بالبرلنتين... تلك الهيبة التي ألجمت لسان الشحات حين سأله السائق

ـ فين التالت... انتم مش تلاتة؟

ـ التالت مش جاي

قالها نعيم باشمئزاز بيّن وهو يشير إلى دور الغرايبة المحترقة... كاد الشحات أن يعترض... أن يشرح... أن يستبقي السائق لعدة دقائق ريثما يأتي دياب... لكن نعيم قرص فخذه قبل أن ينطق حرفًا فابتلع الشحات لسانه.

زأر محرك الشاحنة فأفسح لها العيال الطريق لتعبر، فيما ظل الشحات ينظر خلفه بين الفينة والأخرى... تبحث عيناه عن دياب فلا يرى سوى الأطفال الراكضين خلفهم... يتبخر الأمل في لحاق صديقه بالشاحنة مع ابتعادهم عن دخان الحريق... يحدث الشحات نفسه بأن دياب لا يمكن أن يبقى في الكفر مهما كلفه الأمر... تتردد في أذنه مقولة دياب التي يكررها على الدوام، بأن الحمقى والملعونين فقط هم من يفنون أعمارهم في هذا الكَفر الموبوء... ودياب ليس من هؤلاء الحمقى... لكن الشاحنة تبتعد... وهو بعد في الكفر.

تأوه الشحات عندما نغزه نعيم ليعتدل

ـ ريح بالك، ابن الغرايبة مش جاي...

ثم خفض صوته وهو يضيف

ـ اتعدل بقى لاعوج لك رقبتك يا ابن النجس

قالها نعيم همسًا كي لا يسمعه السائق، لكنها اخترقت أذن الشحات، الذي نظر أمامه وأطبق على شرَّبة مولانا الجابي، علاج أهل الكَفر الوحيد لجميع الأمراض... العلاج الذي لم يسعف أباه وأمه حينما داهمهما الوباء، تاركًا ذلك الطفل الهزيل بلا معيل سوى عمته وزوجها التعيس.

يذكر الشحات أن عمته اعترضت على زوجها، وهي التي لم تعترض على شيء طوال حياتها، مرتين بسببه... مرة عندما عنفه زوجها ونعته بـ«ابن النجس»... انتصبت حينها عمته كعود حطب قاسٍ وصرخت في وجه زوجها الذي اكتفى بصفع الباب وهو يصيح

«ابن الديب ما يتقنيش ولا يتربى»

ظلت عمته تبكي تلك الليلة بلا توقف، وظل الشحات منكمشًا على نفسه بجوار الفرن الطيني... تطالعه بنات عمه دون أن يقتربن منه... لم يتجرأ الشحات حينها على سؤال عمته عما قصده زوجها عندما نعته بابن النجس... والمرة الأخرى التي اعترضت فيها عمته كانت عندما أصرت أن يلتحق بكتاب الشيخ عبد القادر في البلدة المجاورة... قالت بحسم

ـ حتى لو اتحرمنا الزاد والهدمة... ابن الافندي لازم يتعلم

ـ آه... الافندي... وإيه اللي نابنا من العلام الا الخراب واللي ماتوا فطيس!

هكذا قال زوج عمته متهكمًا، ثم بصق أرضًا... لم تتمالك عمته دموعها وهي تهمهم

ـ وهو ذنبه إيه يا راجل؟

أجاب وهو ينفث دخان الجوزة

ـ العرق دساس

كان قدر الشحات أن يأتي إلى هذه الدنيا ابنًا لأكثر من مقته أهل الكفر... يعلم أن أصل الحكاية يتعلق بالوباء الذي أصاب الكفر إبان ولادته وأهلك الكثيرين، لكن الحديث عن الوباء حرام... لذا دومًا ما كان يؤثر السلامة ويصمت... وعندما تجرأ الشحات على السؤال ذات مرة عن سبب كراهية أبيه إلى ذلك الحد، قالت سعدية ابنة عمته

ـ جاب للكَفر الفكر

تلتها بصقة أصابه بعض من رذاذها... والفكر في الكفر يعني الهم والشك... والشك نقيض الإيمان... لذا فالفكر والكُفر قرينان لا يفترقان.

اعتاد زوج عمته أن يجبره على العمل بقوته... حتى عندما كان هاجس البحث عن عرق الذهب، الذي يرقد الكفر فوقه، يعاود الرجل... لم يكن يحفر في الدار أو ما تبقى من الأرض سوى الشحات... وعندما شب

لم ير زوج عمته فيه إلا فرصة للخلاص من كبرى بناته، سعدية العانس... يهدده بالطرد من الدار بين الفينة والأخرى، يقول إن صوته قد اخشوشن وخط شاربه؛ ولا يصح أن يبقى في الدار وبها بنت لم تتزوج.

لم تتوقف أعمال السخرة حتى بعد أن لاحت للشحات النجاة، عندما بعث خاله مرعي عسكر مرسالًا يقول فيه أن ابعثوا الشحات ونعيم للعمل بالسراي مع خادم آخر عفي، شرط أن يوافقوا على نظام العمل في السراي... بل تسارعت وتيرة الكدح وازدادت مشقته، كأنما قرر زوج عمته أن يعاقبه على النجاة من سعدية.

ـ إنت يا ابني... مش بناديك!

انتزع نداء السائق الشحات من تركيزه في أشجار الطريق، التي تعدو هاربة في الاتجاه الآخر

ـ لا مؤاخذة يا بيه... كنت بتقول ايه؟

تغير وجه السائق وتوترت قبضته على المقود

ـ أنا مش بيه يا ابني اللـه يسترك، أنا على فيض الكريم... إنت اسمك ايه؟

اسمه!

تردد الشحات... تقول عمته إن العرافة العجوز التي تجوب بالبلاد هي من أسمته، كما أسمت الكثير من أبناء الكَفر... أسمته حينها فاروقًا... تقول عمته إنهم يدعونه بالشحات خوفًا من الحسد تارة... ثم تقول إنهم أقلعوا عن مناداته بذاك الاسم خوفًا من غضب الملك تارة أخرى... تضحك عمة الشحات تلك الضحكة التي تجمع الهم بالفكاهة وهي تتساءل، كيف يكون بين الصعاليك من هو على اسم مولانا الملك؟ ظل الشحات طوال طفولته يتمنى أن يرى تلك العرافة ليقتلها صفعًا على قفاها، كيف لم تر تلك الملعونة أن الملك سيُسمى فاروقًا، فيضحي هو شحاتًا... حتى أدرك عندما شب أن أهالي الكفر أسموه الشحات لكونه بن الأفندي... ليشفوا فيه غلًا وكرهًا تجاه أبيه، كأنما يقتلون ذكراه.

ـ إنت نسيت اسمك؟

قالها السائق بعد طول تململ، فزفر نعيم

ـ سيبك منه، ده أهطل

لم تند عن الشحات بادرة اعتراض، فتنهد السائق وقال

ـ الغرض، مش عايز كلام غجر الكفر عن البندر يقلقكوا... إحنا بعيد عن العمار...

تحشرجت تروس الشاحنة وهو يدفع عصا نقل السرعة قبل أن يستطرد

ـ السرايا متطرفة في قلب الصحرا... وماعادش حد بيجي يزور البيه، ولا انتم حتخرجوا براها

أومأ الشحات برأسه في صمت رغم أنه لم يع شيئًا مما يُقال... لم يكن هناك ما يشغله في تلك اللحظة إلا تخيل مستقبله الأسود في غياب دياب.

كانت الشاحنة تتعطف في دربٍ ضيق حين قرقع صندوقها بجلبة، فالتفت ثلاثتهم... غام وجه نعيم عسكر فيما أشرق وجه الشحات وهو يطمئن السائق

ـ ماتقلقش يا بيه... ده دياب... التالت بتاعنا

لم ينتبه الشحات إلى وجه السائق الذي احتقن من جديد، ولم يعر تمتمته باللعنات بالاً... كان كمن ردت له روحه... ومع اطمئنان قلبه، وجد في نفسه شهية للاستزادة من أخبار السراي... وأخبار البك... سليمان بك الجابي، ابن مولانا الجابي وصديق أبيه الأفندي القديم... لكن السائق لم يكن كثير الكلام... لعلها طباع أهل مصر... لا بأس... سيعتادها الشحات مع الأيام... نظر خلفه من جديد ليطمئن بوجود دياب في الصندوق قبل أن يسبح في خيالاته... يومًا ما سيعودان ليقصا على أهل الكَفر حكايات القاهرة التي ستملأ جعبتيهما... من يدري، ربما يصبح ذا شأن ذات يوم... لمَ لا؟ ألم يخرج سليمان بك الجابي ذات يوم من هنا وهو نكرة، كسائر أهالي الكَفر؟

(٢)

ألقى دياب بجسده العملاق بين جرار السمن وأجولة الحبوب وأقفاص الدواجن، يلتقط أنفاسه المتقطعة... تشبث بأحد أطراف الصندوق فيما راحت تترجرج به الشاحنة في دروب الكَفر الملتوية... حاول مسح الطين الذي كسى جلبابه البلدي المزهر والصديري الأبيض، بلا طائل، فانشغل في كسر عود يابس، أخذ يلقي بأجزائه في وجه الغبار الذي يهرب من تحت عجلات الشاحنة... يحاول تجاهل عويل النسوة اللاتي خلّفهن وراءه وهرب ليلحق بالمجهول.

لم يعر دياب الأعين الشاخصة إليه لدى أبواب الدور المفتحة انتباهًا... يعلم أن الجميع يتمنون أن يجلس عيالهم العراة المتقافزين حول الشاحنة مكانه، ويلعنوا من يغادر إن لم يكن من جماعتهم...

وعي دياب لتمزق الكفر بين أطراف متناحرة منذ طفولته، تتفانى في خلق ما يُفرق ولا يجمع... لكنه بقي لسنوات لا يفهم لمَ تلفظه جميع تلك الأطراف... حتى أدرك أنه لا يشبه أيا منها، وأن عليه أن يخجل من نفسه لذلك

ـ دياب ابن نرجس رايح السرايا

يصرخ الأطفال جذلاً فيتضاعف عدد الراكضين خلف الشاحنة...

«ابن نرجس»،

سمع دياب ذلك الاسم حتى اعتادته أذناه... لم يعد يفزعه... لم يعد يركض وراء عيال الكفر يوسعهم ضربًا كلما نعتوه بـابن نرجس.

غادر دياب الكفر دون مباركة من المقدس عبد ربه، الذي قرر أن يبارك مسلمين عوضًا عن مباركته، وهو القبطي الوحيد بين المغادرين... ترى هل قالها المقدس صراحةً في سريرته، هل قال إنه لن يبارك واحدًا من الغرايبة وإن قلعوا أظفاره؟ أم تراه سوغها لنفسه بعدم جواز مباركة أبناء الخطيئة؟ أم ركن إلى القول بأن دياب ليس قبطيًا بما يكفي، كما يقول الغرايبة أنفسهم؟

زفر دياب نفسًا حارًا... لا حاجة له بتلك المباركة على أية حال، تلك عادات وجدت ليشقى بها الحمقى من أهل الكَفر ممن يتعوذون ليل نهار من شرور أهل البندر وترصدهم بكَفرهم المجتبى...

الكَفر المجتبى... هه، سُحقًا.

يُحسب دياب على الأقباط، والأقباط في الكفر جماعتان... جماعة الغرايبة، سود ضخام الجثث، تقول جدته الكبيرة إن أصولهم تنحدر من النوبة قبل أن يستوطنوا دلتا النيل في غابر الزمان... لهم في الفلاحة فنون عجيبة... تطرح أرضهم دومًا محصولاً مضاعفًا... تتوسط دورهم الكفر، تلك الدور التي احترقت عدة مرات، حتى اتشحت بالسواد كأهلها... يقول الأهالي دون أن يخفوا شماتتهم إن الجان يتعمد إحراق دور الغرايبة دون غيرها... لكن الجميع يعلم أن الجان بريء من ذلك.

ثم هنالك جماعة القص... وهم الأقباط ذوو الوجوه البيضاء، النيرة كما يصفها المقدس عبد ربه... لا يتميز آل القص في الزراعة كأشقائهم الغرايبة، كما أنهم أقل عددًا وأضعف بنيانًا... ما جعلهم أقلية الأقلية... دفعهم ذلك لتعلم الحذق والخبث، فاحتكروا التبشير والوعظ منذ أجيال، وتسيدوا الأقباط... يُخرج أولاد القص في الغرايبة اضطهاد مسلمي الكفر المستتر لهم... خاصة بعد أن تكاثرت الأقاويل حول الغرايبة منذ الوباء، الذي كاد يجتث بذرتهم من الأرض، ما زاد من نبذهم.

أما هو، ذلك العملاق القابع في صندوق الشاحنة... دياب بن نرجس، فمطرود حتى بين أهله من الغرايبة... لم تكن لعنته الكبرى أنه بلا أب... اللعنة الحقيقية أنه لم يكن أسود بما يكفي في نظر الغرايبة، ما يعني أن دمًا غير دمهم يجري في عروقه... وذلك يترك احتمالاً أن يكون أبوه من جماعة القص... أو الأسوأ، أن يكون من مسلمي الكفر الصفر، الجرباتية كما يطلق عليهم الغرايبة... تنيحت أم دياب قبل أن يراها أو يسألها عن أبيه... لا يدري أماتت كمدًا أم أنهم قرروا غسل عارها بأنفسهم... كل ما يعلمه أنها خرجت مع الجدة الكبيرة لزيارة أحد الأقارب في نجع بعيد، قالوا بعدها إن الحمى أصابتها وماتت هناك.

طرق الشحات زجاج الشاحنة الخلفي الفاصل بينهما، وعلى وجهه ابتسامة طفولية... هش له دياب قبل أن تختفي ابتسامة الشحات عندما نغزه نعيم وصاح به ليعتدل... إحدى أولى ذكريات الطفولة التي لا تزال حاضرة في مخيلة دياب تخصه هو والشحات... والضفدعة... كونا حزبهما الخاص ضد فتيان الكفر... اثنان من المنبوذين في مواجهة الجميع... تخصص الشحات في صيد الضفادع من بين البوص والعشب بجوار الترعة... يخلع جلبابه ويشمر عن ساقيه ويهبط ليأتي بذكر ضفادع ضخم،

يفضل أن يكون عجوزًا... يناوله بكل فخر لدياب، الذي يضعه في صفيحة ملأى بماء الترعة ويوقد النار أسفله... يجمع الشحات الرهون من العيال التي دومًا ما تكون دمى مصنوعة من الطين، وأباريق نحاسية صغيرة، وشطائر من الفطير الطازج.

تعلم دياب مبكرًا سر تلك اللعبة... إذا راهن العيال على هلاك الضفدع وبقائه طواعية حتى يُسلق في الماء المغلي، قرب دياب الصفيحة من النار، ليغلي الماء سريعًا فلا يقوى الضفدع على التحمل ويقفز ناجيًا بحياته... وإن راهنوا على نجاته يبعد دياب الصفيحة عن النار قدر شبرين، لترتفع حرارة الماء على مهل... ما يدع فرصة للضفدع على التأقلم مع ارتفاعها التدريجي حتى يموت سلقًا وهو يحاول التأقلم مع الماء المغلي، دون أن يقفز.

عنفته الجدة الكبيرة عندما مرت بحدود دور الغرايبة ذات ليلة، ورأته يلهو ويجمع الرهون من أطفال الكفر... تفرق العيال فور رؤيتها، وبقي هو وحيدًا في مواجهة ذلك الكيان العجوز الضخم... ظلت تصيح به وتضربه بعكازها طوال الطريق حتى أدخلته الدار باكيًا... عنفته لأنه يخالط جرباتيه أنجاس بلا لون، يسري في عروقهم الشر... كررت ما سمعه للمرة الألف، أن التقرب من الجرابتية والقصوص شيء محفوف بالمهالك، فضلاً عن كونه خيانة للغرايبة

ـ ولا انت مش حاسب نفسك من الغرايبة يا ابن الكلب!

قالتها باشمئزاز فانكمش دياب على نفسه حينها، كجرو مبتل.

في الصباح نسي دياب ما كان من تقريع الأمس وقرر أن يستأنف اللعب مع العيال، بعيدًا عن عين الجدة الكبيرة هذه المرة... كان صغيرًا... عنيدًا... والجدة الكبيرة خرفة تريد منعه عن أصحابه... فرغ سريعًا من رمي بعض الحبوب للدجاجات وجمع البيض، ثم انطلق إلى حيث لا تلاحقه الأعين... عندما وصل كان العيال يلهون بجوار جرن القمح... كان متحمسًا حتى إنه لم يلحظ تغير النظرة في الأعين... لم تكن به رغبة في تعذيب الضفادع، فاقترح لعبته المفضلة... سيتقمص دور أبي زيد الهلالي ويلهو معه الجميع حاملين عصيهم كالنبابيت... حينها عايره نعيم بأن أبا زيد الهلالي لم يكن أسود اللون، قبل أن يزعق فيه

ـ يلا من هنا يا ابن نرجس، روح ألعب جنب دور الغرايبة

ظل دياب على حاله، مسلسلاً بالمفاجأة وعدم الفهم... لم يكن يعلم أن أهل نعيم عنفوه بدورهم للعب مع بن الغرايبة وابن الأفندي لما رأوا فعلة الجدة الكبيرة بالأمس... أفاق دياب عندما قال نعيم بازدراء

ـ بصوا متنح ازاي... إيش على بال القرد من سواد وشه

لم يفهم المثل، ولعل نعيم نفسه لم يكن يفهمه... لكنه أدرك جيدًا أنها إهانة تستوجب الغضب من ضحك نعيم والعيال من حوله... لم يترك دياب نعيم حتى أدماه وكسر أنفه... أخرج فيه كل غل الرفض الذي رآه في سنواته المعددوة التي قضاها في هذه الدنيا، وهو ما لم ينسه نعيم يومًا.

جر دياب والشحات ذيول الخيبة تلك الليلة وابتعدا حتى وصلا دور الغرايبة... راح يبكي ما قاله نعيم لجدته فعنفته على مخالفة أمرها، وعلى البكاء كالولايا... ثم قالت إن أبا زيد الهلالي كان أسود من الليل البهيم، كما الغرايبة... لكن الجرابتية يحرفون السيرة ليجعلوه بلونهم... قال الشحات بسذاجة الأطفال

ـ وانا يا جدة... أنا مش من الغرايبة؟ ليه مش بيلعبوا معايا؟

ـ إنت ابن الافندي يا ضناي

قالت اسم الافندي بفخر، وغمرت الشحات بنظرة تفيض حنوًا لم يره دياب في عينها إلا لمامًا...

جلسا عند قدميها فيما راحت ترسم لهما صورة الأفندي بكلماتها... الشاب الأكثر أناقة في الكفر... الوحيد الذي كان يبتاع ملابسه من البندر، وأول من اعتمر الطربوش والبدلة ذات المنديل الذي يبرز طرفه من جيبها العلوي

- زي خالي بشاي

قالها دياب بسذاجة، وندم على فعلته فور أن خرجت الكلمات من فمه... نغزته الجدة بعكازها في بطنه فتأوه وطالعته باشمئزاز قبل أن تنهرهما ليلعبا بعيدًا عنها... خرج دياب وهو يتساءل ما الفارق بين خاله بشاي والأفندي... ولِمَ تُحب الجدة واحدًا وتكره الآخر... كان بشاي هو الغرايبي الوحيد الذي غادر الكفر ليعمل في القاهرة... يرتدي البنطال وينتعل الحذاء كما كان يفعل الأفندي... لكن الجدة تراه خائنًا للعهد، تاركًا أرضه ليرتع فيها الجرابتية وآل القص.

لم تكن مكانة خاله بشاي تهتز في قلبه مهما قالت عنه الجدة الكبيرة... كان يستقيظ مبكرًا صباح الجمعة كأنه العيد، يجُر الحمارة مع الشحات إلى المركز المجاور... ينتظران خاله في المحطة حتى يحط من قطاره، وبجعبته حكاوي القاهرة... يجبرانه على قَص حكاويه طوال السكة من المحطة إلى الدار... يجران الحمارة، ويلقي عليهم هو أخبار عالم آخر لم يروه... عالم القاهرة بأوتومبيلاتها وفيلاتها الضخمة وهوانمها ذوات القبعات الريشية... عالم الأفندية والبكوات والباشاوات ذوي الشعور المصففة الأنيقة... كل شيء في القاهرة سحري، حتى كلاب القاهرة لا تشبه كلاب الكفر الجرباء.

يقضي بشاي بداية يومه بين تقريع الجدة الكبيرة، ولعناتها لطموحاته الخاطئة التي قادته إلى هجر الكفر وإنقاصهم رجلاً... وفخر والديه المستتر في دارهم الصغيرة بابنهم الذي صار أفنديًا... وبعد التقريع والفخر، وبعد أن تنام الجدة، يعود الليل ملك الصغار... يجلس الشحات ودياب بجوار المصطبة، تحت جمر الجوزة المتقد، يرجوانه من جديد كي يكمل حكايته عن القاهرة... يتمنع بشاي ثم يبتسم مصطنعًا الاستسلام بعد طول التذلل... يعود للحديث عن ذلك العالم السحري... يقول خاله إن القاهرة براح بلا أوبئة... وعلى ذكر الوباء سأله دياب عن خبره... كاد بشاي يحكي، لولا أن فز الشحات يهتف كالممسوس

- الكلام عن الوبا حرام

قلب بشاي شفتيه في امتعاض... حرم مولانا الجابي والمقدس عبد ربه ذكر ما حدث في الوباء على الألسنة... وأحاط الأهالي الكلام عنه باللعنات والويل والثبور... يدرك دياب من نظرة خاله بشاي أنه لا صدق في تلك اللعنات، لكن مجرد نظرة إلى أطراف الشحات التي لا تكف عن الارتعاش جعلت دياب يعض على لسانه ويصمت... ومع الصمت، تعلو كركعة الجوزة وصوت صرصار الحقل... ونباح كلب بعيد.

فيما بعد علم دياب قصة الوباء من خاله بشاي في عزلة عن الشحات، ومنه علم أيضا من يكون والده... وعده بشاي أن ياخذه للقاهرة عندما يكبر... وعندما طلب دياب أن يصطحب الشحات معه، قال إنه لا يقدر على ذلك... فبكى دياب وقام مغضبًا

- حنروح لوحدنا ومش عايزين حاجة منك يا خال

تواعد الصديقان أن يخرجا معًا ذات يوم إلى القاهرة... وها هي الشاحنة تحملهما إلى ذلك العالم السحري... خدمًا.

كنا برفعة قد خفضنا زماننا

صبحنا أذلهة والعزيز اتهان

ياما ضحكنا وكان البكا عند غيرنا

واليوم بنبكى وخصمنا فرحان

آمنت لك يا دهر ورجعت خنتني

تاريك يا دهري المشوم خوان

أخذ دياب يرتل السيرة الهلالية، تمامًا كما كانت ترويها الجدة الكبيرة عندما ترضى عنه وتدعه يجاورها... يسلي بها نفسه... يهدئ بها مخاوفه... ظل دياب في عالمه الخاص حتى زمجر المحرك اعتراضًا بينما ترتقي الشاحنة ما بدا له جبلاً... خرج من خلوته ليجد كل ما حوله قد تغير... تلاشت الخضرة مفسحة المجال لصفرة أصبحت هي السائدة في مكان بلا عمران... من بعيد لاحت أسوار السراي الشاهقة التي بدا من اختلاف عمر الطلاء أن ارتفاع أسوارها أخذ في الازدياد... لكن الأسوار على ارتفاعها لم تنجح في إخفاء أجمل ما وقعت عليه عينا دياب... كان قد عاهد نفسه أنه لن ينبهر مهما رأى في سراي بن الجابي، لكنه لم يملك إلا أن يفغر فاه عندما أطلت من خلف الأسوار قبة عملاقة من الزجاج، أو لعلها من الكريستال، أغشى تتلألؤها عينيه حتى هُيئ إليه أن ضياء الصباح يشرق منها.

بجوار بوابة السراي الضخمة تبعثرت العشرات من عربات الكارو... التي حل جمع من العربجية الخيل من عليها، ووقفوا كأنما على رؤوسهم الطير، كُلٌ يمسك بلجام فرسه... بينما وقف بجوار البوابة ثلاثة من الكونستبلات عريضي الصدور في زيهم الرسمي، وخفير يقبض على شومة سميكة، يتوسطهم مرعي عسكر، خال الشحات، الذي أشار لنعيم وبن أخته، وبادلهما ابتسامة سرعان ما تلاشت عندما وقع بصره على دياب في الصندوق... ارتسمت على محيا دياب ابتسامة ساخرة من وجه مرعي المبهوت وبادله نظرة ثابتة، أرادها أن تحمل ما يعتمل في نفسه تجاهه من مقت.

جر الخفير البوابة الهائلة التي تحرس مدخل السراي، فيما انشغل مرعي عسكر في نهر أحد العربجية بينما تخترق الشاحنة الجمع... خلف البوابة كان هناك عالم آخر، حتى بدا أن الهواء نفسه تبدل... سارت الشاحنة مسافة قصيرة في ممر ممهد بين حديقة منمقة انحنى على العناية بها العديد من الجناينية... أفضى الممر إلى مدخل السراي العملاق الذي يرفعه أربعة عمدان سميكة، يستقر تحتها السلاملك، الذي تربع أمامه أسدان من المرمر الأبيض.

ـ ده الخواجة داوود... حيعرفكم أماكنكم

هكذا قال السائق بعد أن هبط ثلاثتهم من الشاحنة، مشيرًا في اتجاه رجل ربعة، يرتدي بدلة سوداء أنيقة ويعتمر طربوشًا قانيًا، يقف منتصب الظهر رغم سنه المتقدمة بجوار الأسود... لم يعلق دياب بينما قال الشحات مستجديًا

ـ هو انا مش حشتغل مع خالي مرعي؟

قال السائق وهو يشير إلى الخواجة

ـ كله ف إيده، وانت وحظك

اقترب دياب من الشحات بينما يفرغ بعض الخدم ما بالشاحنة من مؤن... يحاول بث طمأنينة يفتقدها في قلب رفيقه، فيما راح نعيم يتلفت حوله في انبهار تام... ومع هذه العزلة، والهضبة المرتفعة، أيقن دياب أنه سيصبح سجين سراي بن الجابي مع نعيم وأحد أبناء جماعة عسكر

إلى حين.

(٣)

تابع الخواجة داوود بعين مرهقة الوافدين الجدد وهم يستخرجون أسبتة البوص من الشاحنة... عملاق وأحمقان، هكذا انتابه الشعور... كان الخواجة نزق المزاج ذلك الصباح، كعادته أيام الآحاد، حين يتوافد العربجية ليشتري سيده بقايا خيول الحرب الهرمة التي هان أمرها فوقعت تحت أيديهم القذرة... لكن وصول المزيد من الخدم من ذلك الكَفر العطن كان أكثر مما يحتمل، ومما يحتاج.

اقترب ثلاثتهم بلا اكتراث من السلاملك كأنما يملكونه... يصعدونه بأسبتة البوص وجلابيبهم القذرة بلا اعتبار للمقامات

ـ استنى عندك منك له

تخشب الثلاثة فهبط الخواجة بخطوات بطيئة تتناسب مع سنوات عمره المديدة... ورغم عمره الذي شارف على السبعين، إلا أن الرجل

لا يزال يحتفظ ببقايا وسامة غابرة، كانت السبب في أن أطلق عليه الجابي بك لقب «الخواجة» عندما التحق بالعمل في السراي.

تعكز الخواجة على السور وعدل من وضع عويناته، حتى سمح نظره الضعيف بالتدقيق في ملامحهم... قبل أن يصيح وهو يلوح بيديه

ـ ده مش المدخل بتاعكم يا بهايم

قادهم الخواجة بخطواته المتئدة حول السراي... عدل عويناته من جديد عندما سمع حفيف أجنحة طائر يحلق مبتعدًا عن السور... تابعه وهو يعبر سماء السراي، وتخيل للحظة كيف تبدو سراي الجابي لذلك الطائر... لا بد أنها بدت كسجن عملاق بمساحتها الشاسعة وعشرات الخدم المتناثرين في أرجائها... سجن ظل نزلاؤه دون أن يخرجوا منه منذ...

كم مر عليه داخل هذه الأسوار؟

أطرق الخواجة وتباطأت خطواته قليلاً، قبل أن يعاود المسير... لم تعد هنالك فائدة ترجى من إحصاء الشهور والسنين.

رغم انقضاء عهد الزيارات وحفلات السراي الصاخبة منذ سنوات، لا يكاد يمر شهر دون أن يصدر الجابي بك أوامره بجلب المزيد من الخدم، حتى ضاق بهم القبو... كان مجرد تخيل المجهود الذي سيبذله الخواجة لتعليم هؤلاء الجهلة أصول الخدمة يصيبه بالإرهاق، لكن الجابي بك يصر على أن يستقدمهم «خام» كما يقول، ليستمتع بترويضهم مع خيله بنفسه... لم يعد الخواجة يستطيع استقدام خدم متمرسين على أية حال... من سيرضى بالسجن طواعية إلا الحمقى والمعطوبين، كالثلاثة الذين يتبعونه؟

ـ بهايم

زفر الخواجة الكلمة فخرجت محملة بحرقة صدره... ما زال الرجل يتذكر زمنًا كان فيه العمل بسراي الجابي حلمًا يراود جميع الخدم من جميع أصقاع المحروسة... ما زال يتذكر طلبات العمل المتراكمة على مكتبه واستجداءات الأهالي لقبول ذويهم خدمًا في السراي... تلك أيام ولت وولى معها إقبال الخدم، بعد أن ذاع أن السراي تحولت إلى معسكر لا يخرج منه من يدخله.

يتذكر الخواجة تلك الظهيرة، حين وقف كعادته بين الخدم في طابور العرض على الجابي بك،

مشدودًا كوتر قوس، يطالع موطئ قدميه كي لا تلتقي عيناه بعيني سيده... سمع الخواجة البك يقول من فوق صهوة جواده إن بوابة السراي ستغلق مع غروب شمس اليوم التالي، ولن تفتح لخروج الخدم إلا بإذن شخصي منه... لا إجازات لا أمراض لا استثناءات

ـ كفاياكم فوضى بقى... واللي مش عاجبة يمشي على النظام يدخل يلم زبالته ويغور برا السرايا

ما زال جسد الخواجة يقشعر حتى اليوم عندما يسترجع هدير الجابي بك يومها... دومًا ما أدار الجابي بك السراي بنظام صارم يضاهي ذلك الذي اعتاد أن يعامل به جنوده في الجهادية، لكن النظام الجديد تعدى الصرامة إلى الجنون... لم يكن سيده دومًا بتلك القسوة... لكن كل شيء تغير منذ أن عُزل الجابي بك من منصبه، بعد أن كان أشهر أميرالاي في وزارة الحربية ومالك أروقتها الخلفية... تزداد قسوته كلما ألمت به مصيبة جديدة من متوالية قضايا الفساد التي تراكمت عليه منذ عزله.

لعل الجابي بك كان يعتقد حينها أن خدمه لا يعلمون شيئًا عما أصابه... لكنهم كانوا يدركون أكثر مما يعتقد سيدهم، وما تظاهرهم بالعكس إلا أحد آداب الخدمة... يتظاهر الخواجة وخدم السراي أن الكونستبلات المنتشرين حول البوابة جاءوا لحماية السراي، بينما يعلمون أنهم هنا لتحديد إقامة سيدهم... يتهامسون بذلك وهم يتناقلون أخبار الجرائد سرًا بعد أن يفرغ البك من قراءتها... يدركون أن البك لم يفرض النظام إلا لأنه لم يرض أن يبقى خدمه طلقاء يذهبون ويجيئون متى شاءوا، بينما سيدهم حبيس السراي.

لم يرفع الخواجة داوود يومها عينه عن موطئ قدميه... لم يتحدث حين تجمع حوله الخدم بعد رحيل البك، يسألونه عما يعنيه النظام الجديد... لم يكن لديه ما يقوله، فيما تتصاعد من حوله الهمهمات

«هو حيحبسنا معاه؟»

«ماهو مايصحش نفضل طالعين داخلين وهو محبوس يا ولداه في السرايا»

«بيقول لك الإنجليز هم اللي حابسينه، بيقول لك عرفوا انه على اتصال بالطليان»

«طليان ايه انت كمان، ده ريحة اللي بيعمله فاحت»

«واحنا مالنا... اللـه الغني»

«حنروح فين بس يا ربي؟»

ورغم قلبه الذي كان ينبض بالضيق وعقله الذي كان يغلي كزيت المرجل، وجد الخواجة نفسه يهتف وهو يشير إلى البوابة

ـ قسمًا عظمًا، اللي حيخطي برا البوابة دي، حتأكد بنفسي ان مافيش فيكي سرايا يا مصر حتشغله... حقعّده في بيته لحد ما يموت

قالها بشراسة ناهزت شراسة سيده... لم تكن وظيفة كبير الخدم أن يناقش البك في النظام أو أن يعدله... وظيفته الوحيدة كانت وستظل أن يجعل النظام فطريًا لدى الخدم.

لم يواجه الخواجة داوود اختبارا أقسى من ذاك الاختبار طوال سنوات عمله... استخدم كل ما في جعبته من حيل كي لا تخلو السراي على عروشها من الخدم... رهبهم ورغبهم... قال إن المطاريد المترصدين بالسراي سيقتلون من يقرر الرحيل في طريق العودة... وإن من سينجوا منهم ستحل عليه لعنات السماء لأنه خادم عاق هجر سيده في محنته... وعدهم ولا يزال يعدهم أن سراي الجابي ستستعيد مجدها القديم... وستعود البهجة والحفلات، فقط لو أنهم صبروا وأطاعوا.

رحل منهم تلك الليلة من كان له عيال أو أزواج يسألون عنهم... رحلوا محملين بلعنات الخدم الذين

وصموهم بالخيانة والخسة والعمالة للإنجليز... وبقي من كان على شاكلته ممن طلقتهم الدنيا فلم يعد هنالك ما يربطهم بالعالم خارج الأسوار... وبمرور الشهور، أدرك الخواجة كما أدرك الجميع أن إذن البك بالخروج لن يأتي... فرضوا بواقعهم، وتحملوا نزق البك وشراسته المتزايدة... ولم يعودوا يسألونه الإذن.

ظل الخواجة في لجة من ذكرياته، حتى وصل مع من يتبعونه إلى مدخل ضيق يفضي للقبو حيث مسكن الخدم... بضع درجات إلى الأسفل قادتهم إلى دنيا السوكاندو... اختفى نور الصباح الذي لا يزور ساكني القبو، إلا من نافذة صغيرة تسمح بالكاد بدخول الهواء ليتنفس القطيع الذي يسكنه، وحلت محله إضاءة ضعيفة من مصباح يتوسطه... زالت رائحة الريحان التي تعطر هواء الحديقة وحلت محلها ريح الكنيف القابضة... حوطتهم جدران صماء لا يستر عريها إلا بعض أثواب العاملين المعلقة في مسامير بارزة... يلتصق بتلك الجدران صفين من الأسرة الصغيرة، يقودان إلى فاصل خشبي في عمقه، يحد خدر العاملات في السراي.

كان السوكاندو خاويًا في هذه الساعة من الظهيرة، حين ينتشر الخدم في السراي وخارجها... قطعوا معًا المسافة الفاصلة بين أسرة متلاصقة، تزين بعضها بخرزات زرقاء لمنع الحسد... اختار لهم الخواجة ثلاثة من أقربها لكنيف السوكاندو الوحيد... فملاصقة الكنيف مرحلة ضرورية في صناعة خدم مجبولين على الطاعة... سيبقى هؤلاء البهائم ملاصقين للكنيف، يسمعون زملاءهم يخرؤون كالحيوانات كي يتذكروا على الدوام دونيتهم... سيتركهم الخواجة هناك حتى يستشعر أنهم أدركوا موضعهم الطبيعي في سلم طبقات البشر، ويتأكد من فطنتهم للفارق الجلي بينهم وبين السادة في علياء السراي، فقط عندها يسمح لهم بالترقي إلى مرتبة أعلى ليبتعدوا عدة أسرة عن الكنيف.

أنزل ثلاثتهم الأسبتة كل إلى جوار فراشه بإشارة من الخواجة، وكاد يملي عليهم أمره التالي، لكنه انتبه إلى رنين خلخال خلف خدر النساء... زفر الخواجة وقال في سريرته

- بهايم

(٤)

دق الخلخال المتعلق بكاحل الغواية فتوقف الزمان في السوكاندو، أو هكذا شعر دياب... كان أول ما عبر في خاطره عندما وقعت عيناه على صاحبة الخلخال، أن تلك الفتاة لا تنتمي إلى هذا القبو... لا تنتمي لهذا المستنقع... بل لا تنتمي لهذا العالم برمته.

استندت الفتاة إلى الساتر الخشبي غير عابئة لشيء، تحيط بها هالة من القوة والثبات... تطالعهم بعينين غجريتين مكتحلتين برموش سوداء طويلة تشي بتمرد جامح

- بتعملي إيه عندك لحد دلوقتي...

هكذا صرخ الخواجة قبل أن يستطرد

- يالا انجرّي على فوق خلي ام زكي تشوف لك يونيفورم هاوس كيبر يجي على مقاسك

تباطأت صاحبة الخلخال للحظة، كأنما تأبى الانصياع... عدلت ثوبها الأبيض الذي يظهر روعة سمرة بشرتها، تلك السمرة التي خلقت لتُعبد... لكن الثوب المسكين لم ينجح في إخفاء القوام الملفوف الذي يقف عند حدود الكمال بلا زيادة أو نقصان... ألقت عليهم نظرة أخيرة فصدرت عن قلب دياب أنة خرجت همسًا مع نفسه، راقبها وهي تصعد درج السوكاندو، يرن قلبه مع دقات الخلخال في كاحلها... قبل أن يعاود الخواجة الصياح

ـ وبعدين انا مش قلت لك تقلعي الهباب اللي في رجلك ده؟

لكنها لم تقف أو تلتفت له... بلا رد خرجت من السوكاندو... غابت فغابت معها الحياة... زفر الخواجة من جديد

ـ بهايم

أوجعت الكلمة دياب أكثر مما أوجعته عندما كان هو المقصود بها.

ـ معاكم فلايات؟

هكذا قال الخواجة فاكتفى دياب بالصمت، فيما اعتدل الشحات وهز رأسه كأنما ينفي اتهامًا، بينما هز نعيم رأسه بالإيجاب في فخر

ـ معاكم ليفة؟

بدت الحيرة على ثلاثتهم، فاتجه الخواجة صوب أحد الأسرة، استخرج من تحت مرتبته فلاية حديد ولوفة مستهلكة ناولها لدياب، وأشار للشحات ونعيم باستخراج مثيليهما

ـ اقلعوا كل هدومكم وجمعوها مع باقي الهلاهيل اللي في الاسبته دي علشان تتغلي

هكذا قال الخواجة وهو يشير نحو قدر نحاسي كي يضعوا فيه ملابسهم.

كان دياب يراكم ملابسه داخل القدر حين سمع الشحات يتنحنح... التفت ليجده تخشب إلى جوار الخواجة، يفرك كفيه ويعض شفته السفلى كعادته عندما يتوتر... تنحنح الشحات من جديد قبل أن يسأل الخواجة

ـ هي اللي مشيت دي شغالة معانا هنا يا جناب الخواجة؟

حدجه الخواجة بنظرة غاضبة أرسلت عينيه إلى موطئ قدميه

ـ إنت اسمك ايه؟

تلجلج الشحات فبادر دياب قبل أن يفتح فمه

ـ فاروق... اسمه فاروق

طالعهما الخواجة وأمسك جبهته، لا يدري دياب غضبًا أم إعياء... بدا أنه يجاهد كي يحافظ على هدوئه وهو يقول

ـ في أساسيات للي بيشتغل في خدمة السرايا... أولها انك ماتتدخلش في اللي مالكش صالح فيه... في السرايا ممنوع تسمع غير الأوامر وممنوع تشوف أبعد من خطوتك... الجهل ف شغلتنا نعمة

توقف الخواجة وعاود النظر للشحات، كأنما يريد أن يتأكد أن كلماته غاصت في روحه، قبل أن يضغط حروف كلماته وهو يضيف

ـ فاهم يا فاروق

هكذا قال قبل أن يعاود الصراخ في ثلاثتهم

ـ أنا مش قُلت اقلعوا هدومكم؟

تجرد الثلاثة سريعًا مما عليهم من ملابس، فوقف الخواجة يطالعهم، تبدو على وجهه أمارات عدم الرضا... لم يفهم دياب الواقف في لباسه الداخلي ما الذي يريده الرجل... لكن نظرة أخرى من

الخواجة كانت كافية ليسارع الشحات بفك دكة لباسه ليتبعه نعيم بعد تردد... وحده دياب لم يطع... أراد أن يسأل... أراد أن يعترض، لكنه لم يملك الشجاعة ليفتح فمه، فاكتفى بالتصلب مكانه، يتشبث بآخر ما يستره... رأى الخواجة يطالعه في ضجر... ينتظر منه أن يتبع القطيع... ولما طال الانتظار، صاح الخواجة

- بهايم

ثم اقترب منه وقال

- إنت اطرش ولا مابتفهمش؟

رغم ما يتضارب في نفسه من خجلٍ وغضب، أطاع دياب... وقف إلى جوار رفيقيه لا يستر جسده العاري إلا طين الكفر العالق به... تكوي ما تبقى له من كرامة ابتسامة راضية ارتسم خطها فوق شفتي الخواجة... ستر عورته باللباس في يده حتى أشار الخواجة لثلاثتهم في تقزز كي يضعوا الألبسة في القدر النحاسي... يتردد صوته الرخيم

- السرايا هنا مش محتاجاكم، دي أول حاجة لازم تعرفوها... إنتم اللي محتاجين السرايا

صمت قليلاً حتى واجههم من جديد

- الخدامين هنا أكتر من الهم على القلب... علشان كده كل واحد منكم حيقوم بنص شغلانة... حاجة آلاجة ماكنتوش لا انتم ولا أهاليكم تحلموا بيها

قالها الخواجة ثم أشار إلى كرسي، سارع الشحات بإحضاره قبل أن يعود أدراجه ليستكين إلى جوار رفاقه.

جلس الخواجة وأشار لنعيم بالاقتراب... راح يتفحصه... يملي عليه تعليماته فينفذ نعيم على الفور... يأمر فيفتح نعيم فمه... يباعد بين قدميه... يرفع يديه حتى يبدي إبطيه فيفحصه الخواجة متأففًا... وفي النهاية أمره الخواجة أن يدور ويركع ليفحص مؤخرته

- كُح

كح نعيم... ورغم كره دياب الراسخ لذاك المأفون، فإنه غضب له... غضب لأنه يُفحص كالبهيمة... ظل الخواجة يفحصه حتى قطع السكون الثقيل وقع خطوات تهبط درجات السوكاندو... خطوات خفيفة، دق لها قلب دياب بعنف عندما فطن إلى أنها خطوات فتاة... ترقب ظهورها من جديد حتى إنه نسي عريه التام من فرط حماسه لرؤيتها.

ظهرت فتاة مليحة، لكنها لم تكن صاحبة الخلخال

- يوه يا خواجة، إيه المنظر ده؟

هكذا قالت الفتاة وهي تشير إلى نعيم الراكع، فاربد وجه الخواجة وأشاح

- يلا من هنا يا فضيلة

تلكأت فضيلة قبل أن تضيف

- مش لما يكون فيه شباب جداد تبقى ترد باب السوكاندو يا خواجة؟ مايصحش الواحدة تدخل على منظر بالشكل ده

استدارت فضيلة لتعود من حيث أتت، لكن ليس قبل أن تأخذ نظرة متفحصة لثلاثتهم.

اعتدل نعيم بعد أن أنهى الخواجة فحصه

ـ إنت حتروح الاسطبل، تساعد مرعي واللي معاه

هكذا قال الخواجة وهو يشير إلى جلابيب معلقة على مسامير بجوار أسرتهم

ـ انجر استر نفسك بأي حاجة لحد ما الهدوم تتغلي

هرول نعيم فانتقل إصبع الخواجة ليشير إلى دياب الذي تعمد التحديق في عينيه، يريده أن يدرك أن عريه لم يكسره... فعل دياب مثلما فعل نعيم... لكن الخواجة صمت برهة بعد أن انتهى من الفحص كأنما يزنه

ـ وانت حتبقى جناييني... اجري استر نفسك

التقط دياب إحدى الجلابيب التي كسته بالكاد حتى ركبتيه... وابتسم حين لمح نعيم يكظم غيظه عندما سمع الخواجة يقول للشحات بعد أن انتهى من فحصه

ـ أما انت يا بهيم يا صغير فاتفتحت لك طاقة الهنا... حتدخل السرايا برجليك... حتساعد مع السفرجية... روح استر نفسك

كانت السعادة تكسو وجه الشحات عندما انسل إلى جوار دياب الذي هنأه على مكانه داخل السراي، فابتسم الشحات قبل أن يهمس في غفلة من نعيم

ـ شفت البت اللي كانت لابسة الخلخال يا وله

ابتسم دياب وربت على الشحات وهو يعاونه على انتقاء جلباب يناسبه... وهل رأى دياب غيرها؟ لو أن العمر يقاس بتلك اللحظات التي ينبض فيها عرق في الروح جذلاً، فعمر دياب الآن لحظة واحدة فقط... بدأت حين رآها وتمنى ألا تنتهى... حتى فكرة أن يبقى حبيس السراي لمدة لا يعلم منتهاها إلا اللـه لم تعد بذلك السوء.

لم تمض دقيقة أخرى حتى ظهر مرعي عسكر غارقًا في عرقه... اقترب منهم واحتضن نعيم القابض على الفلاية... ثم تباطأ في السلام على الشحات... قبض دياب على كف مرعي حتى شعر بعظامه، في تحية لا تحمل سلامًا بأي حال، قبل أن يطلق يده

ـ عايزينك معانا يا خواجة اللـه يرضى عليك علشان تختار الخيل اللي حتتعرض على معاليه... العربجية برا عاملين غاغة

قالها مرعي دون أن يخلع عينيه عن دياب، بصوته الذي لا يخرج إلا زعيقًا كنقيق ضفادع الكفر

ـ خد ده معاك، شوف له هدوم سايس تيجي مقاسه

هكذا قال الخواجة وهو يشير إلى نعيم قبل أن يعاود الصياح

ـ ماتقفوليش كده... اجهزوا... طابور العرض على الجابي بيه كمان ساعة... مش عايز غلطات يا بهايم

اصطحب مرعي عسكر نعيم وسحب معه الشحات سحبًا... سمعه دياب يقول

ـ إيه اللي جاب ابن الغرايبة هنا؟

قالها مرعي وهو يطبق على ذراع الشحات الذي تلجلج وهو يقول

ـ إنت بعت تقول عايز جناييني كويس يا خال... وانت عارف ان مافيش احسن من الغرايبة في

الزرع والقلع

- ازرع اسود الراس يقلعك يا ابو مخ ضِلم

قالها نعيم متقززًا، فهز مرعي رأسه مؤمنًا وهو يرمي دياب بنظرة أخيرة، قبل أن يغادر السوكاندو.

(٥)

في المساء ضج السوكاندو بصخب الحياة بعد أن رُفع العشاء واحتشد الخدم في طابور الكنيف... ضحك هنا وشجارٌ هناك بين جماعات متفرقة... فيما تسري النميمة بين الجميع عن الوافدين الجدد، خاصة عن تلك الفتاة التي لم تشاركهم العشاء وبقيت وحيدة خلف خدر النساء... كلٌ يلقي ما سمعه عنها من رخيص الكلام في أذن الآخر، بعد أن يضيف عليه شيئًا من جعبته.

يقع خدر النساء في عمق السوكاندو، كأنما يتحاشى المصباح الوحيد المحتضر المتشبث بالسقف، ما يجعل منه مرتعًا للظلال والعتمة... اجتهدت صِبا في تلك العتمة كي ترى ما تخرجه من حاجياتها لترصها فوق الفراش وأسفله... تسمع صرير الأسرة تئن تحت وطأة أجساد النسوة العائدات بعد العشاء... تشعر بأعينهن تزحف على ظهرها، تتفحص ذلك الكائن الدخيل... ألقت صبا نظرة على قطيع النسوة فطالعتها وجوه كالحة رمادية، كأنما اكتسبت لون جدران السوكاندو العتيقة من طول المعاشرة... لو أن احدًا أخبرها أن أثر العزلة لسنوات وراء الأسوار سيبدو هكذا لما صدقته... لكنها تراه الآن رأي العين... والأسوأ، أنها تلقي بنفسها إلى نفس المصير.

تنهدت صبا وهي تخلع عن كاحلها الخلخال، حيلتها التي خرجت بها من براثن الدنيا... أبى الخواجة العجوز إلا أن يجردها من آخر ما يشعرها بكونها فتاة حرة... يقول إنه لا يصح أن يدق خلخال «خادمة» في السراي... تأملت الخلخال لوهلة قبل أن تواريه بعناية بين حاجياتها وتتنهد من جديد.

«خادمة»

يا للعنة ذلك اللفظ... حاربت صبا طوال عمرها لتبرأ منه، لكنه يطاردها كاللعنة... لم تكن تلك حياتها... لم يكن ذلك قدرها... أو هكذا كان يحلو لها أن توهم نفسها.

تجري خلايا الخدمة في عروق صِبا مجرى الدم... فهي خادمة ابنة خادمة حفيدة خادمة... لا بد أنها كانت في الخامسة عندما سمعت لفظ «خادمة» أول مرة... سمعته من جدتها حين جلست مع أمها ذات يوم وقت العصاري أمام أكواب الشاي ليسترجعن ذكريات الخدمة، بينما تلهو هي بعروس قماشية... تتفاخر جدتها أنها خدمت في سراي باشا عثمانلي بينما لم ترتقِ أمها إلا إلى سراي تاجر نالَ البكوية بشق الأنفس... أشارت جدتها بإحضار إبريق الشاي فتركت صِبا عروستها وهرولت لتجلبه... لم تحتمل يدها الصغيرة حرارته، فألقته بعد خطوتين ليسقط وسط الغرفة... لم تحرك أمها ساكنًا عندما صفعتها جدتها... وعندما عادت العجوز إلى مجلسها التفتت إلى أمها وقالت باشمئزاز إن ابنتها خرقاء... مطت أمها شفتها السفلى في أسى واحتست المزيد من الشاي في صمت، فيما نظرت جدتها إلى عينيها المغرقتين بالدمع وقالت

- ولا عمرك حتقلحي في الخدمة

كانت تلك هي المرة الأولى التي سمعت صبا عبارة جدتها التي ستظل تطاردها طوال حياتها.

راحت صِبا تطوي ثيابها بعنف... تحاول طرح تلك الذكريات عن ذهنها، حتى إنها لم تنتبه في

البداية إلى تلك الفتاة مفرودة القوام خصيبة الجسد التي انفصلت عن قطيع النسوة وجلست بجوارها... سألتها صبا عن اسمها فأجابت

ـ فضيلة

أشارت صِبا برأسها تجاه النسوة اللاتي يحدِّقن فيها بعيون متفحصة

ـ هم مالهم بيبصوا لي كده

ـ ماتاخديش في بالك، هم طبعهم كده كل ما يجي حد جديد من برا

هكذا قالت فضيلة بود ثم راحت تعاونها

ـ صحيح انتم بقالكم سبع سنين هنا، مابتخرجوش

سارعت فضيلة بقولها

ـ لا تلاتة بس

ـ تلاتة بس!

قالتها صِبا باستنكار لم تنتبه له فضيلة التي تنهدت قبل أن تردف

ـ بكرة تتعودي... السنين هنا بتعدي هوا... الأيام هي اللي طويلة... وبعدين احنا الحمد للـه أحسن من غيرنا... ديك النهار عّم عبدون كان بيحكي عن باشا قتل ستة من خدمه... شوفي الافترا... ستة... يلا، حيروحوا من ربنا فين... سيبك انتي... دلوقتي انتي جيتي، وانا وانت مش حنتفارق والوقت حيهون

ترددت صِبا قبل أن تقول

ـ وانتم ايه اللي مصبركم طول الوقت ده

ـ اللي رماك ع المر...

قالت فضيلة إن كل من بقي في السراي معطوب، ملفوظ من الدنيا بطريقة أو أخرى

ـ أنا مصيبتي كانت اني اتجوزت المخفي ده

التفتت صِبا إلى حيث ترنو فضيلة... نحو عجوز هرم يقف بين الرجال في طابور الكنيف

ـ اتجوزت لكن مادخلتش دنيا

قالت فضيلة إن زوجها، الشيخ القصبي، من أقدم الخدم في السراي... الوحيد الذي يسبق تعيينه الخواجة... بقي بلا زواج حتى بلغ من العمر أرذله، ثم قرر أن يتزوج فأمال قسمتها... عاد بها إلى السراي بعد أن عقد عليها، وما هي إلا أيام حتى فرض الجابي بك نظام السراي

ـ مالمسنيش من يوم ما اتجوزنا... قال إيه مافيش مكان... مع إن السوكاندو ساعة الضهرية بيبقى خرابة يا اختي، لو قتلتي قتيل ولا حد يقولك انتي فين... كل ما اقرب له يشخط وينطر، يقول لي اني قليلة الحيا ووشي مكشوف... واما يعوز يراضيني يميل عليا ويقول لي ان الولية توحيدة ربطاه بعمل... يقول لي ادعي يا بت للجابي بيه ربنا يفك ضيقته، وساعتها يجي الإذن ونخرج نشوف لنا شيخ يفك العمل

مطت فضيلة شفتيها في أسى وناولتها قطعة طوتها من الثياب، ثم أشارت إلى توحيدة، الأرملة المهذارة، التي لا تكف عن التدخين وإلقاء النكات القبيحة

ـ أنا عارفة انه لا بتاع جواز ولا دياولو... بعد ما جيت السرايا عرفت انه ماعملهاش إلا بعد ما مرعي عسكر اللـه يكحمه شار عليه انه يتجوز واحدة تيجي تخدم هنا، ويطبق على مهيتها مع مهيته

لم تتوقف فضيلة عن الحكي، كانت كمن صام عن الكلام دهرًا وقرر أن يعوض ما فاته في جلسة واحدة... قالت إنها فكرت كثيرًا في الهرب من السراي في بداية زواجها... لكن ذعر الخدم الدائم من مخالفة أمر الجابي بك أصابها كالعدوى وأناخ عزيمتها... لا يعلم أحد ما الذي سيفعله الجابي بك إن تجرأ أحدهم وعصى الأمر، ولا أحد يريد أن يكون أول من يجرب... سنوات مرت وهي تنتظر اليوم الذي يأتي فيه إذن الجابي بك بالخروج، لتهرب ولا تعود... لكن بمضي الوقت صارت فضيلة تكتفي بتمني عودة السراي إلى سابق عهدها كسائر الخدم، عل أيامها تهون بعودة الحفلات ورؤية الهوانم والباشوات... حتى تلك الأمنية أصبحت الآن واهية... باهتة... الحقيقة إنها اعتادت هدوء السراي حتى صار محببًا... باتت رتابة الأيام جزءًا من تكوينها، وصارت هذه الجدران كل حياتها... قالت فضيلة بعد طول صمت وهي تنهي طي آخر قطعة من الملابس

ـ وانتي بقى إيه اللي جابك؟

كادت صِبا تقول «جدتي»، لكنها اكتفت بقولها

ـ النصيب

ما زال نداء جدتها يتردد في أذنها

«صباااااا... إنتي يا مقصوفة الرقبة»

تنادي عليها بصوتٍ مجعد كوجهها، بسبب وبلا سبب، حتى كادت صبا تكره اسمها... لم ترض تلك العجوز الشمطاء عن أي شيء تفعله صِبا، منذ تركتها أمها في خدمتها دونًا عن أخواتها الخمسة... تبحث جدتها عما تنتقده لتصيح بها

ـ ولا عمرك حتفلحي في الخدمة

لم تكن تقولها، بل تبصقها في وجهها... كأنما تعايرها... أبت العجوز أن تفهم أنها لا تريد أن تصبح خادمة... حتى عندما صرحت صِبا بذلك بعد أن طفح الكيل، قذفتها جدتها بأحد الصحون النحاسية وهي تصرخ

ـ جتك ستين نيلة... هي كده اللي ماتعرفش ترقص تقول الأرض عوجة

حاولت أمها إلحاقها بالخدمة عدة مرات، لكن صبا لم تطق البقاء في بيت مخدوم أكثر من ثلاثة أيام، لتولي هاربة إلى بيت أمها بعد أن تفتعل مصيبة مع سادة البيت... فتعيدها أمها إلى جدتها وتبكيتها الذي لا ينتهي

ـ اللي زيك بتصرف على بيت، مش قاعدة كده زي خيبتها... بس آدي اللـه وآدي حكمته... ولا عمرك حتنفعي في الخدمة

قبعت صِبا ردحًا من الزمن في رعاية جدتها العجوز... إلى أن جاءتها أمها قبل عدة أيام وبشرتها بوظيفة في إحدى سرايات البكوات... لكن شيئًا في طريقة أمها جعلها توقن أن هنالك ما تخفيه... وبالتنقيب رضخت أمها وأفصحت عن شرط البك ببقاء الخدم في السراي دون خروج... فانفجرت بها صبا ورفضت الذهاب... ومع فشل جميع المحاولات في توظيفها، عادت أحاديث الزواج... سمعت جدتها تحدث أمها هذه المرة عن صرماتي في الموسكي يكبرها بثلاثين عامًا، تقول

ـ دي بت عوجة، الصرماتي حيعرف يعدلها

هالها أن ترى في عيني أمها تفكّرًا في القبول... باتت صِبا ليلتها موقنة أن أي مكان آخر سيكون جنة رغداء؛ بعيدًا عن جدتها وعروض الزواج من الصرماتي... وعندما عادت أمها في اليوم التالي، كانت صِبا قد أعدت حقيبتها بالفعل في انتظار الرحيل إلى سراي الجابي.

لم تتوقف فضيلة عن الثرثرة طوال تلك الليلة... قصت همسًا الكثير عن البك وعزله وسجنه في السراي... حكت عن التماثيل العجيبة والتحف التي تنظفها في أرجاء السراي... ثم همست وهي تكتم ضحكاتها الرقيعة عما تسمعه عن تماثيل ماجنة تقطن غرفة نوم الجابي بك، لكنها لم ترها بنفسها لأن تلك الغرفة يختص بنظافتها عم عبدون، العجوز النوبي

ـ إشمعنى الأوضة دي يعني؟

ارتبكت فضيلة، واكتفت بقولها إن تلك الغرفة ابتلعت الكثير من الفتيات... ففهمت صِبا ما ترمي إليه... قالت باشمئزاز لا يخلو من غضب

ـ هم البهوات كده... كلهم ولاد صُرم شايفين الخدامين لحم رخيص يحق لهم يعملوا فيه اللي يحبوه وقت ما يعوزوا

تنهدت فضيلة قبل أن تقول إن السوكاندو يفضّل الجهل بما يجري في تلك الغرفة... يفضّل ألا يسمع وألا يبصر، حتى إن الخدم لا يطيقون بقاء من صعدن إلى الغرفة بينهم... حدث ذلك مع بعض زميلات فضيلة من قبل... بعضهن رحلن من تلقاء أنفسهن، وبعضهن أجبرن على الرحيل... وهؤلاء كن الوحيدات اللاتي سمح لهن الجابي بك بالخروج.

ـ سيبك انتي... إنتي حظك من السما، حتشتغلي في المطبخ مع ام الخير... أحن واحدة في السوكاندو... أما انا فقسمتي وقعت في نضافة السراي مع ام زكي اللـه يحرقها

وأشارت خفية إلى امرأة هرمة دُقَ على نقرة ذقنها وشم أزرق، تجلس في نهاية الخدر تنظر لهما شذرًا... كادت فضيلة تسترسل، لكن هرجًا تعالى من وراء الساتر الخشبي، أنهى حديثهما الهامس.

وقفت صِبا إلى جوار صديقتها الجديدة، تنظر إلى تجمع الخدم حول عجوز هزيل أخرج من جعبته بعض علب السجائر ورزمة من الأمشاط والزيوت... إضافة إلى بضع أقراص من الحشيش

ـ ومين ده؟

ـ ده المنيل مرعي عسكر... كان زمان جناياتي قبل ما يترقى لسايس في الاسطبل... رجل نتن ماتقلعيهوش من رجلك، بس لازمن حتحتاجيه لما تعوزي تشتري حاجة من بره... بيوصي العربجية يجيبوها ويبيعها بالفايظ لو معاكيش تدفعي

التفت لها مرعي كأنما سمع همسهما عنه... شعرت صبا بعينيه تعبثان بجسدها قبل أن يرفع النقود ليلامس بها جبهته ويعاود الجدال مع زبائنه.

(٦)

أفاقت صبا فزعة على صراخ الخواجة داوود في الخدم بعد ليلة طويلة من الأرق... جاءتها فضيلة على الفور، وجلست القرفصاء إلى جوارها، فيما اصطف الرجال أمام الكنيف الحجري... هذا يهذب شاربه، وذاك يحلق ذقنه في المرآة الصدئة التي تعلو الحوض إلى جوار الكنيف... لا يكف الخواجة عن استعجالهم كي يفرغوا ويصعدوا إلى السراي... عددت لها فضيلة الأسماء والوظائف لجميع رجال وشيوخ السوكاندو... حتى ارتسمت ابتسامة عابثة على وجه فضيلة، وهي تشير إلى الوافد

الضخم الذي يميل بجذعه إلى الأمام ليحدث رفيقه

ـ وده، سمعت ان اسمه دياب

كان مجرد وجود دياب في الصف يجعل من الرجال المتراصين أمام الكنيف مجموعة من الأقزام بشكل مثير للضحك... أخذت فضيلة توحي لها بإشارات فاحشة دلالة على كبر الحجم، قبل أن تنهرها صِبا

ـ اختشي يا بت

تنهدت فضيلة قائلة

ـ آه لو ماكانش قبطي

أفلتت ضحكة من صِبا وعاودت النظر إليه، فلم تر أبعد من بسمة خجول غامضة لا تفارق محياه.

فرغ الرجال من قضاء حوائجهم وانفضوا كلٌ لعمله، فاصطفت صِبا مع فضيلة في طابور النساء الذي تكون سريعًا تحت إشراف أم زكي... كانت فضيلة لا تزال تثرثر عندما خرجت إحدى العاملات من خلف ستار الكنيف تصرخ وتولول كالملسوعة، تنبش في ثيابها بحثًا عما يعبث بها... فتصاعد امتعاض النسوة

ـ عايزين نشوف حل للكنيف ده

ـ آه... على الأقل يبقى فيه كنيفين، واحد للحريم وواحد للرجالة

ـ يا اختي نصلح ده الأول

أشاحت أم زكي بيد كساها الكلف البني، ثم قالت بازدراء

ـ أما مَرَة خرعة صحيح... خَلّصي منك لها

تابعت صِبا ما يجري بلا اكتراث... همست لها فضيلة بأنها المرة المئة التي تسمعهم يشتكون بعد أن أضرب سيفون الكنيف عن العمل منذ سنوات، فأضحى الكنيف مرتعًا للصراصير وحشرات لا يعلم لها أهل السوكاندو اسمًا... ولجت فضيلة وأسدلت خلفها ستار مهترئة، تظهر أكثر مما تخفي... ولما جاء دورها، كتمت صِبا أنفاسها كي لا تفرغ ما في بطنها من فرط نتانة الرائحة.

كانت أم زكي لا تزال تصيح عندما مرت بها صِبا في بهو السراي... تعنف امرأة عجوزًا في لباس عاملات النظافة لمبالغتها في استخدام الفنيك الذي تصاعدت رائحته... رمقتها العجوز الحَرِنَة بطرف عينها، تتحفز لتصيح بها، فأبطأت صِبا من خطاها... تعد نفسها أنها ستنشب أظفارها في وجه العجوز إن تعرضت لها، وليكن ما يكون... لكن أم زكي تجاهلتها وأشاحت بوجهها لتعاود الصراخ في ضحيتها الأولى... ربما ردتها عينا صِبا الحمراوين من أرق الأمس عن الصياح بها، ربما ردعها ظهرها المنتصب وتحفزها البادي.

كانت صِبا لا تزال على تحفزها عندما دخلت ما يفترض أن يكون مطبخًا... يتردد خلفها صياح أم زكي

ـ أنا مش هنا علشان اسايركم واطرمخ على سهوكتكم... كل واحدة تشوف شغلها عدل

للحظة ظنت صِبا أنها ضلت طريقها لولا صوت القلي وروائح الطبيخ التي تعبق الأجواء... دارت بعينيها سريعًا في جدران المطبخ البيضاء النظيفة وسقفه الشاهق الذي لا بد أنه بني لعمالقة، يخامرها يقين أن هذا المكان أرحب من شقة جدتها وجارتها مجتمعتين... تراصت على طاولة كبيرة في وسط

المطبخ ثلاث من الخادمات، انشغلن في تقطيع الخضراوات والبصل في صحن نحاسي ضخم... فيما انحنت أخرى على ربطة من السمك، تنظفه على أورمة خشبية... أشارت إحداهن لصبا برأسها تجاه امرأة مكتنزة تقف على الحوض، تشي هيأتها وبعض الخصلات البيضاء الهاربة من تحت غطاء شعرها بعمرها المديد... اقتربت صِبا منها وتنحنحت.

لانت ملامح صِبا وذهب كل التحفز عندما رأت وجه ام الخير، وجه لا يحمل سوى طيبة مطلقة ومسحة حزن راسخة، حتى أنها فوجئت بنفسها تمد يدها لام الخير وتقول

ـ عنك يا أمه

ارتسمت على محيا ام الخير ارق ابتسامة رأتها صبا

ـ لا يا ضناي... تعوصي هدومك... انت اسمك ايه

ـ صِبا

ـ زينة الأسامي يا حبيبتي، اقعدي جنبي ونشفي اللي اناولهولك

ظلتا على وضعهما ذاك حتى حلول الظهيرة، حين ظهر عم عبدون عبد الصمد... العجوز النوبي، حكاء السوكاندو ومصدر ترفيهه الوحيد... دخل بجلبته المعتادة يحي هذه ويُعبث مع تلك ويضحك في وجه كل من يجده في طريقه... حتى جلس لصق المذياع، يستمع إلى الأخبار، إلى أن تنهد وقال

ـ زي كل يوم... أخبار ناشفة

ثم قال معابثًا ام الخير

ـ حتى العيال الكفراوية الجداد، موراهمش غير حكاوي العِرق

اخرج لسانه وكتم ضحكاته مع النسوة في المطبخ حينما تبرمت ام الخير وقالت دون أن تلتفت

ـ ديهدا ديهدا... وبعدهالك يا عبدون... لسانك بياكلك

أشارت ام الخير إلى صِبا وقالت أنه سيجد ضالته عندها... تهلل وجه عبدون جذلاً عندما قالت له أن صِبا من القاهرة... جاءها هرولة كمن وجد كنزًا... جلس جوارها وقال

ـ انا اشتغلت من وانا عندي حداشر سنة في قاهرة المعز... اه يا بت... احلى أيام حياتي... شوفت كتير وسمعت اكتر... حاكم انا بشوف بوداني كمان

كركرت النسوة فمال عم عبدون على إحداهن

ـ قومي هزي فخادك يا ولية واعملي لنا كوبايتين شاي، وانت يا نَبْرَة...

هكذا قال وهو يشير لصِبا

ـ احكي لي كل حاجة

قطبت صِبا حاجبيها وقالت

ـ إيه نبرة دي؟

قهقه عم عبدون وقال إنه اسم نوبي قديم وجد خصيصًا ليصف لون بشرتها... تلك الدرجة بين اللون القمحي والذهبي... لون الآلهة القديمة... فانبسطت أساريرها.

كان عم عبدون متشوقًا للسماع عن القاهرة وأحوال الناس في الخارج، بعيدًا عن المذياع الذي لا

يهتم إلا بأخبار الملك والإنجليز والوفد، وأنباء الحرب التي اشتعلت نيرانها في أوروبا ويترقب الجميع أن تطال المحروسة... سنوات طويلة بقي حبيس الأسوار، والسن اللعينة تنتزع منه ذكرياته خارجها... كانت حكاوي صِبا مقتضبة، لكنه كان يعرف كيف يجعلها تسترسل بأسئلته... يسأل ويغمض عينيه، ليرى ما تحكيه بعين خياله... يرجع برأسه إلى الوراء وتصدر عنه آهة استحسان كلما حلقت به حكاويها أعلى.

بجوار كوبين من الشاي في ذلك المطبخ القابع خلف الأسوار، سمع عم عبدون في حكاوي صِبا دقات صاجات بائع العرقسوس ونداء بائع الدندورما وأصوات الترام الجديد... مر بمنطقة الوسعة بالأزبكية وقاوم دعوات فتيات فاتنات لقضاء ليلة حمراء... حياه الملك من شرفة قصر عابدين وزار شبرا وبولاق والسيدة زينب... ارتوى من ماء السبيل في الموسكي والأزهر ثم تنزه بخان الخليلي وسار حتى وصل باب الفتوح وباب زويلة... ملأت رائحة البخور والتوابل أنفه في الحمزاوي، وتبددت عندما جالس سكان القبور، ومدينة الموتى... وعندما انتهت صِبا من حكاويها، وارتوى هو، فتح عينين اغرورقتا بالدموع وقبض على يدها وقال

ـ متشكر

كان شكرًا نابعًا من القلب يحمله صوت متهدج.

تألق عم عبدون ذلك المساء... كان منتشيًا بالحكايات... ارتدى أبهى عباءاته النوبية المزخرفة بألوان بديعة وجلس على فراشه... تحلق حوله السوكاندو الذي لم يعرف في سنواته الأخيرة من بعد النظام ترفيهًا إلا عبر حكاوي عم عبدون عبد الصمد... ساعات يقضونها حول فراشه يستمعون فيها لما يقصه... تملأ حكاويه وحشة الساعات بالفكاهة والضحك... ولأن السراي معزولة عن العالم الخارجي، فقد تعايش الجميع مع حقيقة أن جل تلك الحكاوي من خيال عم عبدون... يمتزج الوهم بالواقع، في إبداع لا يقوى على تقديمه إلا عبدون عبد الصمد.

قَص عبدون عليهم تلك الليلة في ما قَص، تجربة دخوله السينما، بخمسة تعريفة... تلتمع عيناه... تشع حياة وهو يقص عليهم حكاية فيلم سينمائي اختلق كامل أحداثه، أنهاها بقوله

ـ واللـه البت صِبا لو لبست الجونيلة تبقى شبه هيدي لامار

تضرج وجه صِبا بحمرة الخجل حين أقسم إنه سيأتيها يومًا بالجونيلا والبلوزة الجابونيز بنفسه، عندما تستقيم الحال ويأذن لهم البك بالخروج.

(٧)

بينما عم عبدون ينهي حكايته مع الصرماتي النصاب الذي حاول أن يبيعه نعلاً كاملاً عوضًا عن تركيب نصف نعل، كانت توحيدة الأرملة تسب مرعي عسكر للمغالاة في أثمان السجائر، فيقارعها مرعي بسباب أعلى وطيسًا دون أن يلهيه ذلك عن دهن ركبتيه بالزيت... وما أن انتهى مرعي من ارتداء جوربه السميك الذي غطي به أسفل الكلسون الصوفي، حتى أجلس الشحات ونعيم بجواره ليقصا عليه ما فاته في سنوات البُعد عن الكَفر... ترقص الابتسامة على وجهه بين الفينة والأخرى حين يخبرانه بنبأ زواج أو مولود جديد، سرعان ما تختفي عند ذكر من ووري الثرى من الأهل والأصدقاء.

ربط مرعي حزام الفتق بعد أن انتهت أحاديث الموت والحياة، وعاد لتقصي أخبار عِرق الذهب، تجشأ قبل أن يقول

ـ ومالقوش العِرق في أرض الغرايبة يا واد يا شحات لحد دلوقتي؟

هز الشحات رأسه نفيًا دون أن ينطق عندما لمح اختلاج وجه دياب على الفراش المجاور... لم يكن يتمنى أن يبدأ إقامته في السراي بعراك بين خاله وصديقه الوحيد... ورغم محاولات مرعي الحثيثة لاستفزاز دياب، إلا أن ليلة الشحات الأولى في السوكاندو مرت بلا عراك.

في الصباح استلم الشحات ثيابًا جديدة، اصطحبه الخواجة داوود بعد أن ارتداها إلى السراي التي انتشر الخدم في أرجائها... تأكد الشحات للمرة العاشرة من استقرار الطربوش الذي لم يلمس شعره الفاحم من قبل، ثم عاود تعديل قفازاته البيضاء التي تخفي يدين خشنتين خلف ملمسهما الحريري... يمر بين عاملات شرعن بدأب سرب نمل في تلميع التماثيل المنتشرة في أروقة السراي... يرفل في ثياب السفرجي متتبعًا خطوات الخواجة، حتى تخشبت قدماه ما أن وطأت البهو الفسيح ووقف فاغر الفم... يتأمل تحفة السراي.

يرفع سقف البهو الشاهق سبعة عمدان، تتجمع تيجانها المذهبة عند حواف القبة الزجاجية المنيرة... تتخلل أشعة الشمس زجاج القبة الصافي، ليتلألأ الكريستال الأصلي الذي تحمله الثريا العملاقة المثبتة في أعلى نقطة من القبة، فيسبح بهو السراي في بحر من آلاف الألوان المتراقصة... لا شيء في بحر الألوان يبقى في موضعه... حتى الجدران ذاتها تبدو أنها تتمايل في تناغم مع محيطها الراقص... ابتسم الخواجة وترك الشحات لوهلة يحدق في تحفة السراي قبل أن يقول

ـ يلا يا فاروق، كفاية كده

تبعه الشحات وهو لا يزال مشدوهًا، يتأمل الألوان التي تنعكس على يديه... قال الخواجة إن البك استقدم معماريين من أوروبا خصيصًا لتصميم وتنفيذ تلك القبة... وعندما تضاء الثريا ليلاً تتلألأ القبة، فيراها كل سكان القاهرة... تنهد الخواجة وهو يقول إن تلك القبة كانت قبلة السهرات لعلية القوم فيما مضى.

أشار الخواجة إلى الطابق العلوي

ـ الدور اللي فوق فيه اتنين وعشرين أوضة... للبيه والضيوف اللي على سفر

ارتفعت عينا الشحات تلقائيًا، فأرسل التمثال الواقف على حراسة الطابق العلوي مزيجًا من النفور والجزع في جوفه... يتقلد ذلك المسخ تاجًا من الشوك يرسو على وجه شيطاني... يستريح ذراعه المفتول إلى سيف عملاق غرس نصله في الرخام... بينما تقبع إلى جوار قدمه جثة تمثال آخر ساجد بلا رأس... هيئ للشحات أن عيني التمثال تتابعانه، تتوعدانه بالويل والثبور إن تجرأ واقترب من الغرف التي يحرسها.

قال الخواجة وهو يمد الخطى نحو غرفة السفرة

ـ أهم حاجة في السفرجي النظام والنضافة... السفرجي الشاطر هو اللي الجابي بيه مايبقاش شايفه رغم وجوده... لازم تبقى جزء من السرايا، زيك زي التماثيل اللي مالياها

هز الشحات رأسه بالإيجاب

ـ بس ازاي مايحسش بوجودي يا جناب الخواجة وانا واقف جنبه

ـ تقف جنبه!

هكذا صاح الخواجة كأنما سبه

ـ إحنا مابنقفش جنب البيه يا مغفل... بنقف وراه... عينك مابتترفعش ف عين البيه أو ضيوفه

تحت أي ظرف من الظروف

ـ هو البيه بيجي له ضيوف؟

احتقن وجه الخواجه فتضاءل الشحات

ـ إنت هنا علشان تسمع وتقول حاضر

أشار الخواجة إلى عقل الشحات وقال

ـ ده تلغيه خالص

سحبه الخواجة من يده إلى النافذة وأشار للجناينية

ـ إنت مش زي دول... إنت شغال جوه السرايا... إنت أنضف وأطوع

هز الشحات رأسه في استكانة، وهو يرنو إلى دياب الذي انحنى بينهم بثيابه الملوثة على العناية بالزرع.

انشغل الشحات على مدار اليوم مع الخواجة في التعرف على أصول مهنته الجديدة... تعلم كيف يلمح أوضاع الشوكة والسكين بطرف عينه بعد أن عرف معنى كل وضع... الشوكة والسكين في وضع (+) تعني أن يزيد سيده من الطعام، وفي وضع (x) تعني أن يزيح الصحن... أوضاع غيرها تعنى أن الطعام راقه وأخرى تعنى أنه لم يرقه، وعليه أن ينقل ذلك إلى العاملات في المطبخ... ومع حلول العصر، قاده الخواجة عبر الردهة التي أفضت إلى المطبخ... حيث جلست صِبا بجوار مذياع عملاق، تجفف ما تناوله لها امرأة مكتنزة، لم يكن الشحات بحاجة ليرى وجهها ليعرفها... حضورها كان كافيًا... في مكان سحيق في ذاكرته، لا يزال الشحات يرى أم الخير في غابر الزمان، قبل أن تغادر الكَفر إلى السراي، تستيقظ مبكرة كما اعتادت... تجلس على مدخل دارها في مقدمة الكَفر، كأنما ترعى الكَفر ذاته بعد فقدان من ترعاه بموت ابنها سيد في الوباء... يلهو كل أطفال الكَفر مع عنزتها الهزيلة دون أن تنهرهم أم الخير... كل أطفال الكفر إلا هو.

انهمكت صِبا في تلميع الملاعق والسكاكين الفضية حتى انتبهت لوجودهما، فأفلتت منها ضحكة عندما رأته في ثياب السفرجي... ابتسم الشحات وتوردت وجنتاه قبل أن تُوأد الابتسامة مع التفات أم الخير... كتم أنفاسه وتمنى لو أنها لم تتبينه، لكنها صاحت

ـ إنت الشحات... ابن الافندي!

لم تمنحه أم الخير فرصة للإجابة قبل أن تبصق على الأرض وتستدير لمتابعة الغسيل

ـ إيه اللي جرى لك يا ام الخير... ثم ده اسمه فاروق

هكذا قال الخواجة وهو يعدل من وضع طربوش الشحات، فقالت أم الخير دون أن تلتفت لهما

ـ اسمه الشحات... ولو دخل مطبخي تاني حرقعله صداغه

انزوى الشحات خارج المطبخ على مقعد أفردته له أم الخير... جلس ساعاتٍ طوال يفرك كفيه في مواجهة صورة قديمة لخدم السراي المتعانقين... يلمح بطرف عينه الخادمات يشرن إليه ويتهامسن، حتى أخرجت له صِبا ما سيحمله لغداء الخدم فانسل به مبتعدًا... يلعن في نفسه أباه الأفندي للمرة الألف.

(٨)

كان اليوم يوم سبت، لكنه لم يكن كسائر الأيام لنعيم الذي لم ينم ليلته... مرت الأسابيع الماضية عليه سريعًا... تشرب خلالها قوانين السراي وترسخ التزامه بالنظام الذي صار خبيرًا به وبتأويل مقاصده... تغلب بمرور الأيام على مرارة أن يعمل أحد النجسين في السراي بينما هو قابع خارجها في الإسطبل... لم يعد هنالك ما يشغله إلا أن يراه الجابي بك... تلك هي خطوته الأولى... لا بد أن يلفت انتباه سيده... لا بد أن يُعجب به، فيراقبه... ثم يقربه... ثم يرقيه... درجة تلو الأخرى حتى يتسيد نعيم الحمقى الذي يعج بهم السوكاندو... لكن الوقوف منتصبًا كالتمثال في طابور العرض على الجابي بك لم يكن كافيًا... لا بد أن يلمع نجمه بين دهماء الخدم، عندها فقط سيراه سيده... وهذا السبت هو اليوم الذي سيلمع فيه نجمه.

نهض نعيم من فراشه قُبيل الفجر بعد أن قهره الأرق والتوتر... تسلل في الظلام إلى الإسطبل وجلس يدخن لفافة التبغ تلو الأخرى... يحملق في فحل الخيل الأشهب الذي عقد مصيره بناصيته... لم تكن إسطبلات الجابي بك قاصرة على جياد الحرب الهرمة، فهنالك الجياد والمهور الجامحة التي يبتاعها البك بين الفينة والأخرى ليستمتع بترويضها بنفسه... وقد قاتل نعيم واستعان بكل حيلة في جعبته حتى أصبح مسؤولا عن إعداد هذا الفحل للركوب الأول... ثم استمات حتى تركه عمه مرعي عسكر يعده بطريقته.

ظل نعيم على وضعه ذاك حتى بزغت الشمس ودبت مع شروقها الحياة في الإسطبل... قام نشطًا حين اقتحم السواس المكان بجلبتهم... أعد الأعلاف والعليقة... أعمل شوكة التنظيف ونزح الفضلات... غير الرمال أسفل الخيل ومشط أجسادها... كرر ما يفعله كل يوم دون انتباه حقيقي... كان ذهن نعيم متقدًا بترقب ما سيحدث عصر هذا اليوم... يكاد يسمع صوت سيده من فوق صهوة الفحل المستسلم يدق كطبول الأفراح وهو يسأل عمن أعدّه... فيشير الخدم إليه... سيتقدم حينها بخطوات بطيئة وينحني احترامًا لسيده... سيكتم ضحكة الانتصار على الحمقى الذين قالوا إن إعداد الجياد الجامحة للركوب يستغرق أسابيع وشهورًا... سيحتفظ بحلاوة تلك اللحظة حية في ذاكرته حتى نهاية عمره.

ظل نعيم يعمل شاردًا حتى جاء عمه مرعي بعد أن أخرج السواس الخيل إلى المضارب لترى شمس يوم جديد، فهرول نحوه... انحنى معه بجوار الشيخ جبريل، حكيم الخيل، الذي انكب على أحد جياد الحرب السقيم منذ الأمس وهمس

ـ الحصان جاهز يا ابا مرعي

لم ينظر له عمه مرعي عسكر وهو يقول

ـ أنا قلبي واكلني... كان المفروض نصطبر كمان كام أسبوع... مافيش حصان ولا فرس بيجهز في أيام، اسألني انا

كتم نعيم غيظه وصمت هنيهة كي يزن ما سيقوله... اعتاد عمه أساليب المخنثين من البهوات في أخذ الخيل بالرفق ودهن الشكيمة بالعسل... أنساه ترف السراي أن البهائم لا تفهم إلا السياط والبأس... ورغم قصر خبرته في عالم الخيل، لم يكن نعيم يرى اختلافًا يُذكر بين خيل الإسطبل وبهائم الكفر... ولكل بهيمة مهما كانت صلابتها نقطة تتكسر عندها... وقد قدر نعيم أن ثلاثة أيام من التجويع والحبس في كشك ضيق عدله بنفسه كي يحول دون رقاد الفحل، كافية لكسر عزيمته

ـ والنعمة الحصان بقى زي الحلاوة... هو انا عمري قصرت رقبتك يا ابا مرعي؟

هز مرعي عسكر كتفيه مستسلمًا فابتسم نعيم واستند إلى شوكة التنظيف، يطالع الجواد الهرم الذي أخذ يلهث بعد أن عجز عن القيام من رقدته... تضرب قوائمه الخلفية الهواء في وهن

ـ مافيش فايدة

هكذا قال الشيخ جبريل وهو يمسح عن جبهته عرقًا غزيرًا بمنديلٍ قذر، فأومأ عمه مرعي برأسه متفهمًا قبل أن يشير إلى أحد السواس

ـ اجري بلغ الخواجة

جاء نعيم بدثار من الخيش غطى به جسد الجواد فكف عن محاولاته البائسة للقيام... لم يكن مظهر الجواد البائس أو نتانة العربجية التي لا تزال عالقة به تحول دون أن يدرك نعيم أن لاهتمام الجابي بك بتلك الجياد غاية خاصة... سمع عمه مرعي عسكر يحكي مرارًا أن تلك الجياد البائسة كانت ملء السمع والبصر ذات يوم، تتقهقر تحت قوائمها جيوشٌ وجحافل... يقول إنها رأت من العز ما لن يراه سكان السوكاندو مجتمعين، حتى أتى اليوم الذي كُتب عليها أن تجر عربات الكارو في الأزقة القذرة، يضربها الحثالة بالسياط... شيء ما في حكاوي عمه جعل نعيم يدرك أن سيده يرى نفسه في ما آلت له أحوال تلك الجياد.

بعد الظهيرة تعاون نعيم مع السواس وبن الغرايبة في حمل الجواد السقيم إلى بقعة في المرابط ذات لون قانٍ تخالف محيطها... انتبه لحضور سيده حين خفتت الأصوات وانتصبت الظهور من حوله، ففز نعيم من توه ونظر إلى موطئ قدميه... انتباته رعشة حين مر الجابي بك بتؤدة أمامه... لم تكن تلك المرة الأولى التي يراه فيها نعيم، لكنه لا يزال يشعر بتلك الرعشة تعصف بكيانه كلما كان في حضرة سيده... يجتاحه انتشاء عجيب كلما سمع الجابي بك ينطق حرفًا... صوت قوي آمر يمنح نعيم حسًا بالأمان ويُكسب حياته غاية... يرى نعيم في سليمان بك الجابي مجد وهيبة سلالة الجابي... يشعر بدماء الجابي الأكبر تجري في عروق حفيده... ذلك الفارس الذي «جاب» رفاة أحد الأولياء عنوة من إحدى القرى في غابر الزمان، ليعمر مقامًا يرفع راية الكفر، ويرشد أهله ببركته إلى عِرق الذهب.

راقب نعيم سيده يدور بحسرة حول الفرس، كأنما يأبى أن يلمسه خشية أن يؤذيه... يعاين آثار وقع السوط على ظهره... يتأمل ضلوعه البارزة من بطنه الضامر وجراح فمه التي ما زالت تدمى من أثر اللجام القديم... صهل الجواد حين تلاقت عيناه بعيني سيده... ببطء اقترب الجابي بك من الجواد، وبدا أنه يهمس له بشيء ما وهو ينزع عنه لجامه ويربت على عنقه... بهدوء، أخرج البك مسدسه وانتظر حتى اختفى فرسه الأثير، وأطلق رصاصة أصابت رأس الجواد وخلصته من عذابه... دقائق وعاد بن الغرايبة بعد أن حفر مع اثنين من الجناينية قبرًا يتسع للجواد خارج أسوار السراي، وراح يجر جثة الجواد المدثرة بالخيش.

ظل نعيم على ترقبه حتى حانت لحظته عندما أمر عمه بإعداد الفحل للركوب... تكالب نعيم مع ثلاثة من السواس الهرمين على الفحل كي يوثقوا رباطه وسط المضارب... يتلاشى يقينه بالنجاح ويدب القلق في قلبه، كلما تبين في عيني الفحل المنهك بقايا عنفوان ما كان يجب أن يبقى

ـ حد أكّل الحصان ده؟

هكذا همس نعيم بعصبيه بعد أن أسقط الفحل أحد السواس وهو يربط قائميه الخلفيين... حك القصبي رأسه الغليظ بينما سيده يقترب

ـ أنا حطيت له مقدار علف يقوّته... يا شيخ حرام عليك، الحصان كان بيطلّع في الروح

ـ حرمت عليك عيشتك يا بهيم... أنا مش منبه ماحدش يأكله؟

بهت القصبي قبل أن يحتقن وجهه وهو يقول

ـ إنت فاكر نفسك مين علشان...

قاطعه نعيم وهو يقول من بين أسنانه

ـ أنا اللي حيقطع خبرك لو الفرس ده وقع سيدك

تمتم القصبي بشيء لم يهتم نعيم بتبينه مع اقتراب الجابي بك في ثياب الجوكي، تلتمع عيناه بجذل قلما يزورهما هذه الأيام.

لم تعد بنعيم طاقة كي يركض ليأتي سيده بالسوط... يشعر بوهن غريب يغزو ركبتيه كلما أحس ببأس الفحل وعناده الراسخ... بالكاد استطاع إحكام السراج واللجام فيما ظل الفحل الملعون يقاوم الشكيمة... يصهل ويخنفر في عناد يزيد من رعب نعيم الذي تابع سيده ينصب ظهره ويرتقى الفحل بمعاونة عمه مرعي عسكر... انتظر لدى قوائمه حتى أشار البك فأرخى الحبال بيد ترتعش ليتحرر الفحل من قيده.

انطلق الفحل يعدو بكل قوته، فيما تضاءل نعيم بين صفي الخدم المتجمعين لمتابعة الجابي بك وهو يقهر جوادًا جديدًا... وقف الفحل على قائميه الخلفيين محاولاً الإطاحة بالجابي بك من فوق صهوته، فتشبث سيده بشعره... يصيح به كي يرسو... يشد اللجام فلا يهدأ الفحل الملعون... ظل الفارس والجواد يتناحران حتى قفز الفحل في الهواء وهبط على جانبه متخلصًا ممن يعتليه، ليقف بعدها وسط المضارب منتشيًا بعد أن دان له النصر.

اهتز كيان الخدم لسقوط الجابي بك... وهيئ إلى نعيم أن السراي ذاتها زارت غضبًا حين قام سيده ببطء، ينفض الغبار عن ملابسه... ركض مع من ركضوا من الخدم نحو سيده... يتبين وجهه المحتقن كلما اقترب منه... كان أول من أدركه هو الخواجة... وما أن تجمع الخدم حول البك حتى قامت القيامة وفتحت أبواب العذاب بلا مقدمات... كان أول من أصابه السوط هو عمه مرعي، فسقط يتلوى... ثم توالت الضربات... يتقهقر السواس أمام قرع السوط... بعضهم على الأقدام والبعض على الركب... يطأ القائم منهم الساقط... تلوى نعيم ألمًا عندما أصابه السوط عدة مرات، لكنه لم يركض مبتعدًا... يكتم أنين الألم حينًا، ولا يطيق الكتمان فيصرخ حينًا... تختلط آهاته بسباب البك الغاضب... يسمعه يقول بين السباب

ـ يا هَمج

قادهم الجابي بك بسوطه كالنعاج حتى حشرهم في حجرة الركابخانة... وما أن تراكم السواس داخلها حتى دفع البك الخواجة أمامه، وأمره بإغلاق الباب من الخارج بالقفل.

مكث نعيم صامتًا في الركابخانة... هذا يقرعه... هذا يسبه... عمه يلعنه بأبيه وأمه... يسمع الخواجة يتوعده من خلف الباب بإلقائه خارج السراي كالكلاب... بقي على حاله، لا يحرك ساكنًا حتى سمع القصبي يلعن طيش الشباب... لم يحتمل نعيم حينها الصمت... جمع ما يعتمل في صدره من غيظ واقترب من العجوز بالقدر الكافي، ثم ركله بلا مقدمات في ركبته فأناخه... التقطه نعيم من تلابيبه قبل أن ينبطح أرضًا، يصيح في وجهه

ـ كله منك انت يا ابن الهرمة

تجمع المحبوسون حوله بينما هو يمسك بتلابيب من أفسد يومه، وربما مستقبله، يحاولون تحرير القصبي من يده... يضرب بعضهم كفًا بكف، فيما يصرخ أحدهم

ـ اخزي الشيطان امال يا نعيم... ده قد ابوك!

ـ لو ابويا عمل عملته كنت حكسر رقبته

حدق نعيم مباشرة في عيني القصبي، فتحولت أمارات الغضب التي تكسو وجه العجوز تدريجيًا

إلى استكانة ثم انهزام... لم يضربه نعيم، لكنه لم يفلته حتى رأى في عينيه تلك النظرة التي كان يجب أن يراها في عيني الفحل الأشهب... تلك النظرة التي تعني أنه أصبح طوع يمينه.

(٩)

لم يفتقد الخدم السواس الذين مكثوا تلك الليلة سجناء الركابخانة... استعذب جُلهم السوكاندو الذي أصبح أرحب بغيابهم، وباتوا ليلتهم يلعنون نعيم وتهوره... كتم الكثير منهم فرحة آثمة عندما أتت أوامر البك للمطبخ في الصباح التالي بمنع الطعام والشراب عن نزلاء الركابخانة، وظلوا يمنون أنفسهم بنصيب أوفر في الغداء.

أخرجت صِبا غداء الخدم بعد الظهيرة للشحات، وظلت تتابعه وهو يرفل في رداء السفرجي... ينقل الطعام على مراحل إلى السوكاندو... تشفق صِبا على الشحات المنبوذ خارج المطبخ، لكنها لم تكن تملك ما تقدمه له مع تمسك أم الخير ببقائه بعيدًا عنها... تقرصها أم الخير كلما سألت عن سبب طرده، وتقول

ـ سيبك من السيرة العفشة دي

ثم تهرب إلى قدر يغلي على الموقد، أو تعود إلى موقعها الأزلي عند حوض المياه... تغسل صحونًا تبدو نظيفة.

أيام السراي طويلة بحق، ينخر فيها الملل... لذا كان لا بد لصبا أن تبحث عما يشغلها كي لا يقتلها الفكر... أدركت أن لكل واحد ممن قرروا البقاء أسرى أسوار السراي حكاية يمكن تتبعها... كلٌ معطوب بطريقته... لكن هناك حكاية واحدة تفسر غموض ما يحدث مع الشحات وتجمع بين طياتها الكثير من رفاقها الجدد... حكاية تملك أم الخير والكفراوية الكثير من خيوطها.

قصت عليها أم الخير الكثير من حكاوي الكَفر... لكن وجهها دومًا ما كان يتغير عندما يتطرق الحديث إلى ذكر ذلك الوباء الذي أصاب الكَفر منذ سنوات طويلة... سألتها صِبا ذات مرة بلا مواربة عن الوباء... وعما فعل الأفندي كي يكرهه أهل الكفر هو ونسله إلى ذلك الحد... امتقع حينها وجه أم الخير وأسقطت صحنًا بيدها، قبل أن تصيح دون أن تلتفت إليها

ـ ديهدا ديهدا... ما تخرسي يا بت... لسانك بياكلك... حتجبولنا الخراب... الكلام عن الوبا حرام... فاهمة؟

ثم استطردت وهي تغالب عبراتها

ـ حترجعوا أيامه اللـه يطين عيشتكم... حرام عليكي يا بنتي ماتوجعيش قلبي

تطفق أم الخير تحذرها من أن مجرد الحديث عن الوباء لعنة ستصيب من يذكره، وتفتح الأبواب لعودته من جديد.

عندما عادت صِبا إلى المطبخ كان صوت المقلاة الكبيرة قد ارتفع من جديد، إيذانًا ببدء التجهيز للعشاء، وارتفع معه صوت المذياع العملاق... تخرج منه الألحان والكلمات:

«بين ذلِّ الهوى وعزة نفسي

ضاع قلبي فما عرفت التأسِّي

وعزيزٌ على أني أضيع القلب

في الحب بين ظن وحدس»

جلست صِبا تغربل الطحين وتساعد في العجن والخبز، فيما أولتها أم الخير ظهرها وقامت لتنظيف الصحون... تتعثر في ترديد الكلمات الجديدة التي تحاول حفظها... لم تصادف صِبا في حياتها أحن من تلك المرأة، وذلك ما يزيد غرابة ما تفعله مع الشحات... كيف يمكن لتلك القسوة أن تصدر عن أم الخير!

ـ تعرفي ان الست جت كذا نوبة غنت في السرايا؟ نوبة منهم كانت مع سي عبد الوهاب

هكذا قالت أم الخير وتنهدت قبل أن تضيف

ـ هيه... أيام

كانت أم الخير رائقة المزاج... فاخذت تحكي عن أيام شبابها في الكفر... عن تكاثر الكلام على ألسن النسوة كلما تأخر الحمل لأشهر بعد الزواج... فالعجز عن الحمل «عيبة» لا يمكن اغتفارها في كفر اعتاد من نسوته أن يكن كالأرانب... صارت أم الخير معطوبة... فَم غير منتج ينبغي التخلص منه... حكت أم الخير عن قهر الحماوات... عن وجع الروح... وعن النظرات والهمسات التي تدمي كوقع السكاكين... لا أحد يعترف بالمقدر والمكتوب... لا أحد يعير القضاء والقدر انتباها... عندما يقع ما نكرهه، نبحث عن ضحية نلومها... وكانت أم الخير تلك الضحية... لكنها لم تكن تصبر طويلاً... لم تكن تطيق تسلط الحَمَوات... لا تطيق أن تبقى في حضن رجل تسوقه أمه كما البهيمة... مسحت على رأسها وابتسمت وهي تقول كأنما تستحضر نسائم ماضٍ ولى

ـ حاكم انا دمي كان يفور من كلمة

بادلتها صِبا ابتسامة رائقة شجعتها أن تمضي في حكايتها... حكت أم الخير بلا خجل عن زيجاتها الثلاث... قالت إن مولانا الجابي كان زوجها الثاني، فشهقت صِبا وقالت كالملسوعة

ـ أبو الجابي بيه؟

أومأت أم الخير برأسها إيجابا

ـ الله ياخده

هكذا قالت ثم لوحت بيدها كأنما تبعد سيرته التي تؤرقها... طلقها هو الآخر بعد مضي عدة شهور بلا حبَل... قال إن لا خير في امرأة انكشف ذيلها لرجل غيره... قالت أم الخير إنها كانت جميلة «كلهطة القشطة»... يتراص الرجال على دار أبيها كلما عادت إليها بعد الطلاق، يتهامسون بأن العيب ليس فيها، إنما في الرجال «الخسعة» ممن لا يقدرون على النساء من أمثالها... حتى تزوجت بأبي سيد... كان رجلاً من ظهر رجل.

رزقهما الله بسيد... كان مولده صك براءة أم الخير من العطب... أقام أبو سيد في الكفر فرحًا ظل القوم يتحاكون به لسنوات طوال... فرح لها الجميع بصدق، إلا هؤلاء الرجال ممن أصبح مولده شوكة في حلقوهم وخدش صريح في فحولتهم... بارك الله لهما في سيد... كان قرة عين لها ولأبيه... لم يطمعا في شيء من الدنيا بعده... حكت أم الخير قليلاً عن أبي سيد... عن شدته وبأسه قبل أن يقعده المرض ليرتحل بعدها إلى جوار ربه... حكت عن أيام الخير في الكفر قبل أن يزوره الوباء... قالت إن سيد ورث منه العند... تتحدث عنه على الدوام بصيغة الحاضر.

قامت أم الخير إلى صحونها، فعادت النسوة إلى الثرثرة عن واقعة الفحل، وعن رصاص الجابي الذي لا يكف عن إثارة الهلع في قلوبهن كلما قتل جوادًا جديدًا... ومع ذكر الرصاص والهلع، تحول الحديث إلى المطاريد... قالت إحداهن وهي تتناول بعض البامية لتُقمعها إنها سمعت عبدون ذات ليلة

يقول إنهم جماعة من الأبرياء، دفعهم ظلم حكومة الوفد إلى التحول إلى وحوش... فسكنوا البراري والجبال، واعتادوا أكل الحيات بعد أن عمل بعضهم في السحر

ـ الل-ه يخيبه عبدون... مش حيجبها لبر

هكذا قالت توحيدة، ثم سبته بأمه... قبل أن تضيف بحسم أن المطاريد ما هم إلا مجموعة من اللصوص والقتلة يسيل لعابهم منذ سنوات لسرقة السراي.

لم تكن صِبا تعرف أين تتوقف الحقيقة وتبدأ الحكاوي في كلام عبدون... لعل عبدون ذاته فقد القدرة على التمييز... لكنها لم تجد غيره لتسأله عن حكاية الوباء... ولأن عبدون لا يستطيع مقاومة حكاية جيدة واذن تسمعه، فلم تحتج صِبا لبذل الكثير من الجهد حتى تحمس تلك الليلة وقال

ـ تحبي تسمعي الحكاية من أولها؟

أشارت بالإيجاب، فاتخذ عبدون وضعية الحكي وبدأ في السرد... قال إن الكفراوية يؤمنون أن كَفرهم يرسو فوق عرق ذهب عملاق... تبدأ أسطورة ذلك العِرق إلى حجر سقط من السماء على الكَفر في غابر الزمان... يقول الكفراوية إن الحجر دفن عدة دور ودفن معها قاطنيها... بقي الأهالي أيامًا يحطمون الحجر ويزيلونه كي يصلوا إلى المدفونين تحته... حتى أزالوه كاملاً... لكن ما كان ينتظرهم أسفله لم يكن مجموعة من الجثث وفقط... بل بداية لعرق من الذهب أظهرته الفجوة التي خلفها الحجر

ـ هو فيه عِرق دهب بجد؟

هكذا قالت صبا، فأشار لها عبدون بخفض صوتها، وهز رأسه بابتسامة ماكرة إيجابا

ـ الحدوتة لسه حتحلى

لم يعد بعدها ذكر الحجر يرتبط بالدمار والموت، بل صار مقرونًا بالخير الذي اجتبى الل-ه به الكَفر... ومع فرط التنقيب، نفذ الذهب من الفجوة، وصار الكفراوية يتتبعون أثر العِرق في أراضي الكفر... يحفرون ويأكلون من خيره... حتى فاضت الصناديق والخزائن وصارت الحُلي ترمى في التراب من وفرة الذهب... ذاع صيت الكَفر وأصبح من أغنى الكفور... وتنّعم أهله بخيرات العِرق لسنين طوال... لكن كعادة الدنيا، لا تجزل في العطاء دون أن تتبعه بالبلاء... أكل الحسد قلوب القرى المجاورة... وصاروا يتآمرون فيما بينهم على الكَفر... حاولوا السرقة من العِرق مرات ومرات... حتى اضطر الكفراوية أن يتكتموا على موقعه منعًا لسرقته، وائتمنوا كبراءهم بتتبع أثر العِرق سرًا حتى لا تصل له أيدي اللصوص... يخرجون منه ما يحتاج الكفر في كتمان ويوزعونه على الأهالي... ولما فشل أهالي القرى في سرقته، سلطوا السحر والأعمال على الكفر حتى عم وباء كبير في ذلك الزمان البعيد، أهلك فيمن أهلك كبراءه، وضاع بهلاكهم مكان العِرق.

اختفى أثر العِرق كأن لم يوجد من الأصل رغم التنقيب الحثيث... ومع الوقت انقلبت الآيه وتغيرت الأحوال... أمسى الكَفر في فقر مدقع مع كثرة الأراضي البائرة من الحفر، يتسول الحسنة من القرى حوله... يأكل أهله من بقايا زيارات شحيحة لمقام مهجور به... وما يجود به المقاولون من أجرة أو بواقي زرعة للتملية والأنفار كي لا يَنفَقوا جوعًا... لم يتبق لهم اليوم من العِرق إلا ذكرى عز ولى وخشية زرعت في قلوبهم من تآمر القرى والكفور المجاورة... وخوف حيواني من الوباء ترسخ في عقائد الكفراوية.

قال عبدون إن دُور وأراضي الكَفر لا تخلو حتى اليوم من آثار التنقيب والحفر بحثًا عن العِرق... ورغم أن الأجيال المتوالية لم تَر من الكَفر غير البؤس والفقر، تبقى الآمال معلقة باكتشافه وتغير الحال ذات يوم، كما تؤكد بشارة مولانا الجابي، والد الجابي بك، ومقدس لا يذكر عبدون اسمه... وكلما عجز

الكفراوية عن إيجاد العِرق قالوا إن اللـه يحفظه للأجيال القادمة... وتمسكوا بالإيمان بوجوده.

ـ وانت بتصدق الكلام ده؟

ابتسم عبدون وقال

ـ مش مهم اصدق ولا ماصدقش... المهم ان الحدوتة حلوة

ـ وده إيه علاقته بالشحات وام الخير؟

ـ الوبا اللي صاب الكفر من زمان... زار الكفر تاني من يجي عشرين سنة... وخد في رجليه ناس كتير، منهم سيد... حيلة ام الخير

أشار إلى الشحات المنزوي في فراشه بجوار الكنيف

ـ والكل بيقول إن اللي جاب الوبا النوبة دي كان الافندي... أبو الشحات

ـ جابه ازاي؟

ـ آهو ده اللي حموت واعرفه... لكن المخابيل محرمين الكلام عن الوبا

(١٠)

«قوم فز منك له علشان الخيل ماتموتش من الجوع»

كان ذلك أول ما سمعه نعيم والسواس عندما فتح الخواجة الباب عليهم بعد ليلتين قضوهما في الركابخانة من دون طعام... ورغم الجوع والعطش لم يعودوا إلى السوكاندو قبل أن يطعموا الخيل ويمشطوا شعورها وينظفوا الإسطبل... وعندما سمح لهم أخيرا بالعودة، كان السوكاندو

لا يزال يتحدث عن واقعة الفحل.

عاد نعيم من توه مثقلاً إلى فراشه، فيما انشغل السواس في التهام كل ما وقعت عليه أيديهم... كان يريد أن يغفو... يريد أن يهرب من همز النسوة ولمز الرجال من حوله... لكن شجارًا شب بين القصبي وزوجته فضيلة منعه النوم... طالع نعيم من فراشه القصبي الذي راح يلكم فضيلة بغلّ بيّن، يصيح

ـ واللـه لأنَسّل البلغة على جتتك يا قليلة الحيا

ظل القصبي يضربها حتى حال بينهما الرجال

ـ حلمك باللـه يا قصبي

جلس القصبي يلهث وهو يقول

ـ هو صنف النسوان كده، لو سبتهم يتمرعوا

ـ تكونش حاسب نفسك على صنف الرجالة يا قصبي؟ دا انت ماتجيبش تلاته مليم في سوق الحريم

هكذا قالت توحيدة فضجت النسوة بضحك رقيع، زاد من غيظ القصبي... ظلت الأرملة تلقي بالتلاقيح على القصبي، حتى احتد عليها... وترك زوجته ليتشاجر معها.

قبع نعيم صامتًا بجوار الكنيف في منأى عن الهرج... يجتر مرارة الهزيمة بينما يتهامس دياب

والشحات بجواره... لم يكن يتبين ما يقولانه، لكنه كان واثقًا أنهما يتهامسان عليه... يسخران منه ومن فشله... ذلك الفشل الذي أضيف إلى رصيد فشله السابق بعد أن تمكن بن الغرايبة من المجيء رغم الحريق الذي دبره نعيم بنفسه... كانت مجرد رؤية المأفون يغدو ويروح في السوكاندو تثير حفظية نعيم... خاصة بعد واقعة الفحل... صار يشعر أن بن الغرايبة يحدث نفسه أنه صار في مرتبه أعلى منه... يرى ذلك في مشيته التي زادت تبخترًا وثقته التي جعلته يحب ويهوى كما البشر... بل والأدهى والأمرّ أنه يهوى صبا، المسلمة.

لم يلتفت نعيم لصِبا كثيرًا رغم حسنها البادي... تلك فتاة حصينة... منيعة... لا رجاء من السعي خلفها... لذا فقد انشغل منذ يومه الأول برفيقتها، فضيلة... لم يكن نعيم يجيد قراءة الحروف والكلمات، لكن في ما يتعلق بالنساء، فنعيم أستاذ وشيخ عمود... يقرأ فضيلة ككتاب مفتوح... يقرأ نظرتها التي تشع برغبة ملتهبة تكوي جسدها الوارف... يدرك أنها ظمأى للاهتمام من عنايتها البالغة بنفسها... من عجينة الحلاوة التي لا تكف عن إعدادها... من استحمامها الدائم ساعة الظهيرة حين يخلو السوكاندو، بخلاف النسوة اللاتي يكتفين بالاستحمام مرة أسبوعيًا كما يشترط الخواجة، حتى لا يصاب الخدم بالجرب... كلها دعوات مبطنة لذوي الألباب، لكن دماء الذكورة قد تجمدت منذ زمان في عروق كهول هذا القبو... وبعد فعلة القصبي التي كلفت نعيم مستقبله، صار لنيل امرأته متعة خاصة.

مرت الأيام ونسي نعيم مرارة تجربة الفحل، لكنه لم ينس فرسه الجديد... صار من عادته أن يتسلل إلى السوكاندو ساعة الظهيرة ليتلصص على فضيلة... يجلس في ركنٍ مظلم، يتابعها وهي تأخذ صفيحة الماء المغلي بحذر من موقدٍ قرب الكنيف حتى حوض الزنك... تعادلها ببعض الماء الفاتر من الصنبور، قبل أن تختفي خلف ستار الكنيف... يمسح نعيم عرقًا ينساب على جبينه بفعل هواء السوكاندو المتقد بأنفاسه الحارة، بينما يستمع إلى أنات الألم وهي تدعك جسدها بالحلاوة... يراقب يد فضيلة البضة وهي تخرج لتغترف الماء من حوض الزنك... يعتمل في نفسه ما لا يطيقه بشر... تحمله الخيالات إلى بلاد النساء التي لم يزرها إلا في أحلامه وأحاديث فحولته المدعاة بين أقرانه... القصبي الأحمق لا يعرف كيف يُشبع فرسا كهذا... لا يقوى العجوز الهرم على ترويضها... وسيقوم نعيم بما عجز زوجها عنه.

مرت الأيام تباعًا حتى جاءت الظهيرة التي لم يرحل فيها نعيم... انتظرها على فراشها في خدر النساء الخالي حتى خرجت... يقطر شعرها بالماء فيزداد التصاق ثوبها بجسدها المبتل، فيصف وَيَشفّ كما يجب أن يفعل... يؤجج جمرته داخله... جفلت فضيلة عندما رأته وصاحت

- يوه، انت بتهبب ايه عندك؟ قوم فز بدل ما اصوت والمّ عليك الخلق

قالتها بعصبية دغدغت حواسه... قام نعيم بلا اضطراب أو تعجل... يطربه الافتعال البين في عصبيتها، وذلك ما تأكد منه في الأيام التالية، عندما صار يلبد يوميًا في فراشها... يتابع العرض... الذي ينتهي دومًا بخروجها، وزعيقها الدائم له... تختفي العصبية مع التكرار... يظهر الغنج مع التعود... تتزحزح الستارة التي لا تستر مع الأيام... ترحب به وتدعوه... فيرى ما لم يره من دنيا النساء طوال حياته في كفره العطن... تدعوه جمرته أن يُطفئ نارها المشتعلة في ذلك الجسد الفتي... حتى أتى اليوم الذي خطا فيه نعيم إلى الكنيف خلفها... لم تضطرب فضيلة عندما شعرت به يحتضنها... يلتصق بها... يشعرها بفحولته... لم يبال هو للبلل... لم يبال عندما قالت له «اخرج» من بين أنفاسها المتهدلة.

نهرته... لكنه لم ير إلا دعوة للجموح... لم يسمع إلا تمنع الراغبات... هكذا النسوة، يقلن ما لا يعنين ويُعرضن عما يصبين إليه... لا أحد يفهم النساء مثله... ولم تخلق بعد من لا ترغب نعيم... لم يأبه إلى ضربها الخفيف الذي يشبه خمش الهرر... ضمها إليه وغاص في طراوة جسدها... ذلك الشعور عندما اخترقها كاد يذهب روحه... تلك الشهقة التي حاولت كتمانها لكنها لم تستطع... تلك

النشوة المجنونة التي اجتاحته فلم يعد يأبه بالفضيحة... هو الآن يملكها، يخضعها... يفتح حصونها ويدك قلاعها... يثأر لفشله.

ظل نعيم يضحك كلما التقيا لأيام طويلة... يتندر على القصبي الذي ترك امرأته عذراء بعد ثلاث سنوات من الزواج... تنهره فضيلة تارة وتضحك تارة، وتبكي تارة أخرى... تكررت اللقاءات وازدادت حرارتها، حتى شعر نعيم أنه قد أقام لنفسه حياةً كاملة في السوكاندو... شعر أخيرا أنه مد جذوره وسقاها... تتكرر أيامه برتابة صار يحبها... يستيقظ مبكرًا... يعمل طوال اليوم في الإسطبل، وينام الليل كثور ظل طوال يومه يجر ساقية ثقيلة... لكن تبقى الظهيرة ملكهما... لم يكن ينغص عليه دنياه الجديدة سوى بن الغرايبة والسيرة الهلالية التي ينشدها طوال الليل... تذكره على الدوام بالواقعة القديمة... وأنفه المحطم.

استلقى نعيم تلك الظهيرة بجوار فضيلة يلهث بعد نوبة ترويض صاخبة... قال بعد أن التقط أنفاسه

ـ عايز منك خدمة

ـ خير!

أخرج لفافة تبغ وأشعل النار في طرفها، فخرجت كلماته محملة بالدخان

ـ عايزك تجيبي لي حاجة من السرايا

ـ حاجة ايه؟

ـ أي حاجة غالية... بس تكون صغيرة

ضربت فضيلة على صدرها العاري

ـ يا مصيبتي، ناوي على إيه يا نعيم

نظر نعيم إلى فراش دياب الخالي وهو يربط دكة لباسه

ـ ناوي أخلص من النجس اللي ماكانش المفروض يعتب السرايا

(١١)

تلكأ دياب أمام فراشه ريثما يفرغ الشحات من خلع زي السفرجي... راقبه وهو ينظف طربوشه بطرف كمه ويعدل الزر بعناية بالغة، قبل أن يضعه إلى جوار الوسادة... تبادلا في طريقهما إلى مائدة العشاء بعض العبارات المبتورة التي تزداد قصرًا بمضي الأيام، قبل أن ينفصل عنه الشحات ليأخذ موقعه بين العاملين داخل السراي... فجلس دياب يتناول طعامه في صمت، يفصله عن نعيم أحد الجناينية.

تضم مائدة السوكاندو وقت العشاء جميع خدم السراي، إلا أن دياب أدرك في شهوره القليلة التي قضاها في السراي، أن للخدم الجالسين على المائدة طبقات متباينة... يحرصون أن يحافظوا عليها ويتعمدون إظهارها لمن هم أدنى منهم... يقبع هو في الدرك الأسفل من تلك الطبقات مع باقي العاملين خارج السراي على شاكلته من الجناينية وسوّاس الإسطبل والخفر... وأعلاها من يتعاملون مباشرة مع البك، كالشحات من السفرجية... كان دياب يتمنى ألا تبعد تلك الطبقات صديق طفولته عنه، لكنها أبت إلا أن تبتلعه بين ثناياها.

بمرور المزيد من الأيام، كف دياب عن محاولات التقرب من الشحات... صار يذهب من توه إلى

مائدة العشاء، يأكل في صمت دون أن ينتظره... وإن ظل ينأى عن الخوض في أحاديث رفاقه من العاملين خارج السراي التي يتزعمها نعيم، والتي لم تكن تخلو من ذكر التحقيقات مع الجابي بك وآمال الإذن بالخروج... وما أن تطفأ الأنوار بعد العشاء حتى ينسل دياب خارج السوكاندو... يبقى بعيدًا عن ظلام القبو حتى يغلبه النعاس فيعود لتبتلعه غفوة طويلة، يفيق منها ليبدأ يومًا جديدًا يقضيه بين الزروع... تتكرر الأيام... تتحول الأسابيع إلى شهور... حد أنه لم يشعر بحلول الصيف إلا عندما تغير شكل الزرع ولونه.

في ليالي الصيف، تمتد جلسات السمر ويطول السهر في السوكاندو رغم اعتراض الخواجة، الذي يجد صعوبة حقيقية في إيقاظ الخدم صباحًا... وبحلول الصيف كاد ذكر التحقيقات يختفي من أحاديث الخدم، وبدا أن أيدي المحققين قد كفت عن النبش وراء الجابي بك، ولو مؤقتًا... لكن أهم ما طرأ على روتين دياب كانت تلك اللعبة التي علمهم إياها عبدون عبد الصمد... قال إن اسمها الدومينو... أوراق صغيرة صنعها عبدون، رسم على أحد أوجهها دوائر صغيرة بقلم كوبيا... وكاد ينفق من فرط الضحك عندما عجز الشحات ودياب عن نطق اسم اللعبة... يكرر عبدون اسمها كل ليلة ويأبى أن يبدأ باللعب حتى يقولا اسمها... فيضحك عندما يقولان

ـ ضامينة

جمعت تلك اللعبة دياب بالشحات من جديد وأزالت كثيرًا من الحواجز بينهما... لكن الأهم أن تلك اللعبة قادتها إليه

ـ اسمها ضومينا

هكذا قالت صِبا ذات ليلة، فخفق قلب دياب بعنف... أضاءت حياته بنورها... كان كتائه في الصحراء حتى اهتدى إلى نجمة الشمال... وكانت صِبا نجمته... بنصف انتباه سمع دياب عبدون يقول

ـ إنتي تعرفي تلعبيها يا نبرة

هزت هي كتفيها ثم جلست بجوارهم، فكاد نفس دياب يذهب عنه

ـ لو لاعبتكم على هدومكم حتقوموا بلابيص

كانت تلك البداية... بداية انضمام صِبا لحلف الدومينو... تعلم دياب سريعًا، فقط كي يشاركها اللعب... وسرعان ما تحول الدومينو إلى حدث يومي، يتجمع حوله كل ليلة بعد العشاء الكثير من الخدم، يراقبون صِبا والشحات ودياب وعبدون الجالسين على فراش الأخير، تتوسطهم الوسادة، تنزل عليها الأوراق الواحدة تلو الأخرى... كانت صِبا تشاكس دياب أحيانا، فيتلعثم قليلاً قبل أن يدرك أنها تعبث معه... يعلم أن لا جدوى ترجى مما يشعر به نحوها... هو الممنوع بعينه... لكنه لا يملك أن يتوقف.

ـ مخكم حديد... خسرتوني يا بهايم

هكذا يصيح عبدون في دياب والشحات كلما خسروا مجددًا لصِبا، التي وعدت بسحقهم وأبرت بوعدها... لو أن للفرحة وجهًا لكان وجه صبا الذي يشرق كلما فض عبدون اللعبة مغضبًا... تتراقص كطفلة وتنطلق صيحاتها فرحًا، تشق صمت السوكاندو الكئيب، وتبعث فيه الحياة من جديد، فيتصاعد تذمر الكفراوية... خاصة النسوة منهم... يقول نعيم وسط طرقعة الألسنة المتقززة

ـ قالوا للقردة اتبرقعي قالت دا وش واخد على الفضيحة

فتتعمد صِبا أن تزيد من الصياح والتراقص جذلاً... يرى في عينيها عدم الاكتراث بأحاديثهم عن الحشمة التي تفتقدها... تتعارك حينًا وتتجاهل حينًا وتبقى دومًا غجرية الطباع... تجلس بعد كل شجار

إلى موضعها بجوار الوسادة، تتناول أوراقها وتقول إن الحشمة إحدى آداب الخدم التي لن تكتسبها أبدًا... ما الذي يمنعها عن الشيء الوحيد الذي يسعدها في هذا القبو الملعون... يعشق دياب فيها ذلك التحدي والتمرد... تلك الاستهانة بما يعتقده الآخرون فيها... لم يكن لسان صبا مغلولاً بممنوعات الكفر وتاريخه الأسود مثله... لم تعتد أن تنقح كلامها... كم يتمنى لو أنه كان بذات الجرأة... بذات الحرية... وكم يحبها لذلك.

في نهاية الليل، بعد أن ينتهي اللعب ويجمع عبدون أوراقه، ينسل دياب خارج السوكاندو كعادته منذ أتى... لا يمل عبدون من مشاكسته كل ليلة قائلاً

- على فين يا سبع

في إشارة إلى خوفه من الظلام... يسمع دياب ضحكات الشحات المكتومة... ويهيأ إليه أن صِبا تضحك وراء خدرها

- رايح ادفن الفرس بره السرايا قبل ما جتته تعفن... ولا ماسمعتش الرصاص النهارده؟

يخجل أن يقول وهو ذاك العملاق أنه لا يزال لا يطيق الظلام... منذ طفولته وهو يرهبه... والسوكاندو في الليل قبر مظلم... ما زال صوت جدته الكبيرة يتردد في مخيلته، تنهر جُبنه كما كانت تفعل عندما يناديها وهو بعد طفل من بين دموعه في الظلام... توقد لمبة الجاز بجواره وتقسم بالمسيح إنها آخر ليلة توقد فيها اللمبة

- على فين يا سبع

يعاود عبدون السؤال ويضحك، فيخرج دياب سريعًا قبل أن يزيده النوبي من سخريته.

تحت قبة السماء الفسيحة، يجلس دياب... يفكر في صبا... يراوده أحيانا الأمل... ما الذي يمنع روحًا حرة كصِبا من فعل ما تهفو إليه، إن كانت حقًا تهفو إليه... يدرك أن بينهما جدارًا عاليًا حصينًا كأسوار السراي... لكن دياب يملك سرًا لم يبح به لأحد من قبل، قد يغير الكثير... قد يجعله قادرًا على عبور الأسوار بينهما ونيل مبتغاه... وقد لا يعني شيئًا!

مع فجور حرارة الصيف، لم يعد دياب الوحيد الذي يلجأ إلى الحديقة في الليل... صار الخواجة هو الآخر يهجر غرفته بعض الليالي... ليتنفس... هكذا يقول... والرجل حين يخلع زي كبير الخدم ويكف عن الصياح وتزول الرهبة، يصبح غاية في البساطة والود... وجد دياب في صحبته ما يشغله عن التفكير في صِبا الذي كاد يصرعه... ومع الوقت أحبه دياب وأحب أحاديثه، التي دومًا ما كانت تتمحور حول بنيامين، ولده الوحيد الذي سافر منذ سنوات طوال إلى فرنسا... يحدثه الخواجة عن انقطاع خطاباته بعد تقدم القوات النازية نحو بلجيكا... وفي تلك الليالي التي يكون فيها رائق المزاج، يستند الخواجة ودياب إلى شجرة قصيرة بجوار النافورة، يطربهما خرير الماء، ويحكي الخواجة عن محبوبته... القاهرة... كانت تلك أسعد لحظات دياب... يسمع فيها صوت «الوابور» العتيق يقترب من الكفر محملاً بحكاوي القاهرة... يعود طفلاً يخفق قلبه بعنف بينما يشرئب بعنقه بحثًا عن خاله بشاي بين الحشود الهابطة من القطار... ينتظر أن يستوي على الحمارة كي يقص عليه حكاويه.

افتقد دياب حكاوي القاهرة عندما غاب الخواجة عن الخروج عدة ليال... إلى أن جاءت الليلة التي سمع فيها دياب دبيب أقدام تقترب من جديد، لكن من جاءه لم يكن الخواجة... كانت هي... أفسح لها فجلست إلى جواره... شاكسته لوهلة عن خوفه من الظلام، فنفاه بحدة عندما آلمته رجولته

- أنا بطلع بره السوكاندو علشان أتنفس يا صِبا... الفرشة مولعة نار والملاية بتلزق في جتتي من كتر العرق... ده غير الخيل اللي بدفنها بره السرايا

ضحكت ولم تجادله... وبعد وهلة من الحرج سألته عن سبب كراهية الكفراوية له وللشحات

ـ الليلة اللي فاتت واحدة منهم اتسحبت وجات لي، قال إيه بتنصحني... قالت لي اعملي اللي انتي عايزاه بس ابعدي عن ابن الغرايبة وابن الافندي

هبط قلب دياب بين قدميه عندما جال بخاطره أنها قد تتجنبه بالفعل... ولعل وجهه فضح ما يدور بخلده فأفلتت من صِبا ضحكة خافتة، قبل أن تقول في مكابرة دون أن تريحه

ـ هاه... ماقلتليش... عملتوا إيه للكفراوية خلاهم يحطوني في أوضة الفيران علشان بالعب معاكم؟

ـ دي حكاية طويلة

هكذا قال باقتضاب وأطرق، فسارعت بقولها

ـ على فكرة انا عارفة حكاية العِرق

كان هذا دوره ليضحك... ضحك دياب حتى انقطعت أنفاسه عندما أخبرته صِبا بما قصه عليها عبدون

ـ يعني بعد الحكاوي دي كلها يطلع مافيش دهب؟

أدرك من انعقاد حاجبيها أنها غاضبة فكف عن الضحك وقال

ـ مافيش عِرق لكن فيه دهب

ـ دي فزورة؟!

قال دياب إن أهل الكفر اعتادوا العيش تحت ركام من الأسماء المستعارة والكثير من الأوهام لأن ذلك يناسب طبيعتهم... قال إن جذور الكفراوية تضرب في الأرض إلى بذرة من اللصوص فروا بحمل كبير من الذهب أيام العرب... ظلوا سنوات مطاردين من عسكر الوالي وعسسه، تترصدهم الأعين بلا كلل أو ملل... لا يظلهم مكان واحد من هجير المطاردة أكثر من بضعة أيام، يرحلون عنه بعدها في ستر الظلام... كانوا يتحاشون القرى والنجوع حيث يوجد عسس الوالي... حتى أهلكهم الفرار، فحطوا رحالهم في برارٍ كانت وقتها بركًا ومستنقعات... ظنوا أنه لا يسكنها سوى الكلاب والحيوانات الضالة... تواروا بين البوص النابت ودفنوا هناك كنزهم، وحاولوا دفن أصولهم معه... أقسم اللصوص ألا يخرجوا الكنز إلا بعد سنوات، حتى لا يشك بهم أحد أو يشي بهم واشٍ... لكن الأرض لم تكن خالية كما اعتقدوا... كان أجداده من الغرايبة هناك... استقبلوا اللاجئين في كنفهم وأكرموا مقامهم وأمنوا روعاتهم وقاسموهم الماء والزاد... لبس اللصوص ثياب الفلاحين واشتغلوا في عمارة الأرض واستصلاحها إلى جوار الغرايبة، بعد أن شقت ترعة جديدة في دربهم... وعندما اجتاح دين العرب المحروسة، تمسك الغرايبة بدينهم مع مجموعة من البيض... فيما تلون باقي اللصوص بلون العرب ودينهم، وصاروا يتقربون إلى الولاة باضطهاد من أكرم وفادتهم بالأمس القريب... ومع الوقت تكاثر نسل اللصوص، وصارت تلك البراري هي ذاك الكفر الذي تسمع عنه الآن.

كان يرى الأسئلة تتقافز في عينيها، لكنها بقيت تستمع له بلا مقاطعه... يدفعه اهتمامها ليحكي المزيد من أسرار كفرهم المسكوت عنها

ـ البرك كان ساكنها المرض... راح جدود الحرامية الكبار في وبا قبل ما يتنعموا بسرقتهم وماتوا وهمّا لابسين هلاهيل... لكن المصيبة ان ماحدش من ولادهم كان يعرف مكان السريقة... السريقة اللي بقى اسمها العِرق... ولحد النهارده لِسَّه بيبوروا الأرض علشان يلاقوها

ـ بس ده غير الوبا الجديد اللي بيقولوا عليه

ـ مافيش وَبا جديد يا صبا

صمت قليلاً قبل أن يستطرد

ـ لكن فيه ناس كتير ماتت

هكذا قال دياب ثم أحجم عن الكلام فبدا عليها خيبة الأمل... قالت إنها سألت قبله أم الخير والشحات مرارًا عن الوباء، لكنهما دومًا ما ينهرانها عن السؤال والخوض في المحرمات.

لم يكن دياب يكترث بخرافة تحريم ذكر الوباء، لكنه لم يكن يريد أن ينكأ جرحًا قديمًا فأحجم عن الكلام

ـ عايز تتنفس بجد، قوم معايا

هكذا قالت صِبا بلا مقدمات بعد طول صمت، وارتقت السلاملك... دفعت باب السراي وولجت على أطراف أصابعها فتلفت دياب حوله قبل أن يتبعها... لا يدري ما الذي يدفعه للانسياق وراء جنونها، لكنه لا يملك الاعتراض... قادته عبر بهو السراي... لم تكن الثريا مضاءة بالكامل، لكن دياب وقف تحتها للحظة، يتأملها ويطالع السماء عبر القبة الزجاجية بانبهار حتى سحبته صبا وهي تهمس

ـ خليك في ضلي

كانت تلك هي المرة الأولى التي يخطو فيها بقدمه داخل السراي، وسرعان ما تغلب الانبهار والفضول على الخوف... لم يعد يفكر في ما سيصيبه إن عاد الخواجة لتفقد شيء ما في السراي، أو إن خرج بن الجابي من غرفته... ارتقى مع صِبا السلم الداخلي للسراي، يكاد يسمع أنفاس بن الجابي خلف باب غرفته الموصدة... لعله يسمع بدوره خطواتهما الآن... لعله يسمع دقات قلب دياب التي لا بد أن جميع سكان القاهرة يسمعونها.

من الرواق العلوي تسللا إلى شرفة السراي الرئيسية... تلك الشرفة التي يقف فيها بن الجابي لتفقد طابور العرض... فتحت صِبا الباب فاندفع الهواء يطيح بستائر الرواق كأنما كان ينتظر من يدخله... أخذته من يديه بعد أن سمّره الخوف في مكانه وأوصدت باب الشرفة... أشارت إلى المنظر وقالت إنه هنا يمكنهما التنفس... اقترب دياب من حاجز الشرفة حتى لمسه ووقف مشدوهًا... تعجز الكلمات عن وصف ذلك المشهد من فوق الهضبة المرتفعة... للمرة الأولى منذ أن دخل السراي يرى أبعد من أسوارها... يرى القاهرة التي سمع عنها كثيرًا... من هنا كل شيء يبدو صغيرًا، منخفضًا... هينًا... حتى مآذن القاهرة البعيدة وأنوارها... كل شيء متناهي الصغر... من هنا يشعر المرء أنه إله فوق عرشه، يطل على رعية من النمل.

على كرسيين متقابلين جلسا... يبتسمان ملء فميهما... يطالعان قاهرة أحلامه... لم ير دياب في حياته غير العناء، لكنه في تلك اللحظة كان يملك العالم... فقط لأنه بقرب صِبا، يغلفهما صمت الليل والسماء المتأنقة بنجومها... منذ رآها علم أنه لا يريد أن ينظر من جديد إلا لهاتين العينين الغجريتين... أن يفقد ذاته بقربها... أن يتركها تخطفه ليصير أسير عالمها... تسرقه من خيالاته إلى واقعها.

لم تعاود صبا سؤاله عن الوباء، ولم يحك هو... حدثته عن جدتها... وعن الصرماتي الكهل الذي هربت من زيجته إلى السراي... حدثها عن الكفر... وعن الجدة الكبيرة... غرقا في الحديث حتى جفت الحكاوي وغلفهما الصمت... لكن صمتهما انساب هنيًا كما الكلام... ظلا في عالمهما الخاص حتى جفل دياب عندما سمع باب الشرفة يفتح وراءه... جف حلقه عندما أبصر بن الجابي في روب دي شمبر... يتقدم نحوهما حتى غزا عطره النفاذ أنف دياب

ـ بتعملوا إيه هنا؟

كان فم البك لا يزال ثقيلاً من أثر النوم... لكنه كان مرعبًا... له وجه قُدّ من صخر

ـ بنضف البراندة يا سعادة البيه...

هكذا قالت صِبا بعد أن تلجلج دياب... طالعها البك بفضول، وجال بنظره في الشرفة وأيديهما الفارغة... ابتسم بتكلف ثم قال

ـ إنتي شغالة فين؟

ـ في المطبخ

اتسعت ابتسامته وهو يقول

ـ واسمك إيه؟

(١٢)

انتظرت صِبا أن ينفجر فيها الخواجة بعد أن يوقظ الخدم صباح اليوم التالي ويطردها خارج السراي... انتظرت أن تقرصها أم الخير وتوبخها على رعونتها... انتظرت أن تصيح بها أم زكي فتتبعها جوقة نساء الكفر... لكن شيئًا من ذلك لم يحدث... كان يومًا اعتياديًا... الكثير من الطعام ليُعد... الكثير من الصحون لتنظف... ومشاكسة النسوة التي لا تنتهي لأم الخير كي تغير محطة المذياع...

لم يخبر البك أحدًا بما جرى الليلة الفائتة!

ظلت صِبا هادئة على غير عادتها، حتى إن أم الخير جاءتها بعد أن لعنت أمهات النسوة بينما هن يكتمن ضحكاتهن وقالت

ـ مالك يا بت... سهم اللـه نازل عليكي

ـ ولا حاجة يا امه

طالعتها أم الخير بنظرة متشككة، ثم أشاحت بيدها وعادت لغسل الصحون... ظلت شاردة حتى إنها لم تنتبه لنميمة النسوة التي تنمو حولها عن صاحبتها فضيلة... حتى حل المساء، واطمأنت من دياب إلى أن يومه مر بخير بدوره.

باتت صِبا عدة ليالٍ تفكر في نظرة البك... نظرة لم تستطع تفسيرها، وهي الخبيرة في نظرات الرجال... لم تكن نظرة جائعة تتفحص ثنايا جسدها، لكنها لم تكن بريئة أيضًا... ومع التوتر والفكر عادت صبا تكرر سؤالها على كل من تراه

ـ إيه اللي مصبركم على القعاد في السرايا؟

تبحث عن إجابة ترضيها... إجابة تجعلها تقنع بمكوثها في الحبس الاختياري... قالت أم الخير

ـ مافيش حاجة ارجعلها

وقالت فضيلة

ـ السور وقلة الحيلة... والقصبي المنيل

ولما أعادت صبا السؤال على عم عبدون ذات مساء قال

ـ النظام يا بنتي... لو الجابي بيه يسمح لنا نخرج مرة كل شهر ولا شهرين كانت تبقى عال

«لو يسمح لنا نخرج مرة ولا مرتين»... سمعت صوت جدتها المقيت في تلك الإجابة... كم تكره دين الخدم، ذلك الدين الذي يجبلك على الشعور بالامتنان لسيدك عندما يلقي إليك عظمة من مائدته... ويجبلك على الشعور بالذنب إن بت قبل أن تنتهي من مسح جميع أحذيته... ذلك الدين الذي يفرض عليك أن تسكن القبو حتى لا تزعج سيدك برؤية مأساتك... كي يغفو هانِئًا باعتقاده أنك تنعم بحياتك في كنفه... وأن الفرصة لو أتيحت لك فلن تختار إلا خدمته.

بحلول الخريف، نسيت صِبا واقعة الشرفة ونظرة البك... بمضي الشهور كفت عن التساؤل عما يبقي الخدم في السراي، بعد أن نسيت بدورها الحياة خارج الأسوار، أو كادت... بالتدريج ينمحي العالم خارج السراي... لم تعد تتذكر كيف هي القاهرة وضوضاء الأسواق... لم تعد تتذكر طعم حب العزيز ونبوت الخفير الذي كانت تجري على بائعه منذ نعومة أظفارها... بات كل ما بعد أسوار السراي ذكرى بعيدة تبهت بمرور الأيام... لكن ذلك لم يهون من شعور صبا بالانقباض كلما طالعت الأسوار.

ملت صِبا من الدومينو، لكنها لم تمل من التسلل ليلاً من السوكاندو لتلحق بدياب على السلاملك... صارت تلك عادتهما... أحيانا ينظران إلى الشرفة ويسترجعان تلك الليلة المجنونة... يضحك فيهفو قلبها، فترنو بعيدًا حتى لا تفضحها عيناها... ظنت في البداية أن ما تشعر به تجاهه مسألة عابرة، تشغلها ليوم أو يومين... فأنوثتها كانت على الدوام مصدرًا للمتاعب، حتى إنها كرهت الرجال... لكن قلب صبا يتعلق بالمستحيل والممنوع... كعادته... مجرد قربها منه يبعث في جسدها قشعريرة لم تعهدها من قبل... يبدو دياب غريبًا عن المكان كما تشعر هي... معه أحبت القمر والخلاء... معه عشقت السيرة الهلالية... تطرق وتغمض عينيها وتتوه في دنيا الهلالي، تمامًا كما يفعل دياب، حتى تنسى من تكون... تغرق السراي حولهما في رمال الصحراء، ويبتلع القمر نجومه ويختفي في جوف السماء... ولا يعود هناك شيء حقيقي إلا دنيا الهلالي... تحارب معه صبا وتدمى عندما يخوض معاركه... تحزن حد البكاء حين يتهدج صوت دياب في قصص الخيانة وغدر الزمان

«أول ما نبدي، نصلي على النبي...

نبي عربي... نوره طفى المصباح...

ألفين صلا ترضي النبي أشرف الأمم...

نور المكمَّل من جبينه لاح...

يا صفوة الخلج... نبي عربي صفوة كريم فتّاح»

يبدأ دياب الحكاية بتلك المقدمة التي تعشقها صبا... بها راحة نفسية عجيبة تغسل صدرها من شوائبه... والأعجب أنها تخرج من فم دياب... سألته ذات مرة لِم يبدأ حكايته بالصلاة على النبي وهو...

لم تجد الكلمة المناسبة فقال بابتسامة هادئة

ـ مسيحي!

أومأت برأسها إيجابا... قال دياب إن الجدة الكبيرة كانت دومًا ما تبدأ السيرة بتلك المقدمة، وهكذا كان يبدأها من سمعت هي عنه السيرة... يتناقلها أجيال من الرواة بلا تعديل أو تحريف... ينشدون بنفس اللهجة التي تروى بها السيرة من مئات السنين... يرتلونها بنفس نغم أوتار الربابة، التي يصلها شجاها وإن غابت... السيرة مقدسة كما قال، لا يجوز تحريفها، بعكس التاريخ الذي حرفه أهل الكَفر ليدفنوا جرمهم بعد أن حرّموا ذكر الحقيقة.

يقول دياب إنه يسمع صوت جدته حيًا يتردد مجلجلاً، مع صوت آلاف الرواة الذين يعيشون في طياتها، يتحدون الموت... ثم يصمت، كأنما يسترجع تلك اللحظات... تلتمع عيناه كما يحدث كلما تحدث عن جدته، يقول إن شبابها كان يرتد لها عندما تسرد عليه سيرة الهلالي التي كانت تحفظها عن ظهر قلب... تتخيله صِبا وهو بعد صبي يسمع السيرة أول مرة من جدته... يجلس مشدوها في جلبابه الصغير بجوار قدميها على سقيفة الدار في الكفر... تعلم أن ذلك الصغير كان يتمنى أن ينال رضا جدته... أن ترى فيه أبعد من خطيئة أمه وعارها، لكنها أبت إلا أن تحمله إثم أمه.

كيف يستطع دياب أن يبقي حب الجدة الكبيرة في قلبه رغم قسوتها... يَخِز ذلك التساؤل ضمير صبا لما تشعر به تجاه جدتها هي... فمهما حاولت أن تسامح، لا تستطيع إلا أن تمقت تلك العجوز اللئيم... وعندما تسأله، كيف يحب جدته رغم قسوتها، كان دومًا ما يستميح لها الأعذار... يقول إن مكانة الجدة الكبيرة بين الغرايبة هي التي فرضت عليها أن تعامله تلك المعاملة... يقول دياب إنه يؤمن بأنها كانت تحبه، بطريقتها، حتى إن لم تبد ذلك... لم تكن تكرهه هو... كانت تكره دم الجرباتية الذي يجري في عروقه

ـ تقصد إيه بدم الجرباتية اللي في عروقك؟

هكذا قالت صِبا... ولما لم يجب همست كمن يوقظه

ـ دياب!

ظل على صمته... فلم تلحّ عليه في السؤال، وعاد هو إلى سرد السيرة بعد وهلة.

عادت صبا ودياب إلى السوكاندو الساهر بعد أن جن الليل... تربعت صبا إلى جوار أم الخير في ركنها المعتاد، فيما تجمع رجال السوكاندو حول الشيخ جبريل الذي يقوم بدور الحلاق، يتراكم الشعر حوله مع كل رأس جديد... تراقب دياب الذي أخذ دوره في الطابور... وتستمع إلى أهازيج المساء ومواويله الساحرة التي تشدو بها إحدى النسوة... تبحر بها وتعبر الجدران.

(١٣)

لا يدري أحد من أطلق لقب «الشيخ» على حكيم الخيل... جاء الخدم إلى السراي ليجدوه «شيخًا»، رغم أنه لا يمت للمشيخة بصلة غير الشيخوخة... فالشيخ جبريل من أهل المزاج، يظهر بين الفينة والأخرى يحمل زجاجة شِبه فارغة... يرشف ما علق بها من خمر... يقولون إن هنالك علاقة تجمعه بإحدى عاملات المطبخ، وإلا من أين له ببقايا الخمر؟ الحقيقة إن العلاقات في السوكاندو متشابكة، حتى تكاد رائحة الفسوق تطغى على رائحة الخراء التي تغرقه، لكن لا أحد يعلم من هي خليلة الشيخ جبريل.

تلك الليلة مر القصبي بعد أن أتم الفرض بالشيخ جبريل، فسب له الدين... طفق القصبي يلعن رائحة الخمر التي تنجس السوكاندو وتطرد الملائكة... فانكمش الشيخ جبريل وقال

ـ تقبل اللـه يا سي قصبي

كان ذلك قبل أن يتسلل الشيخ جبريل في غفلة من القصبي ليخلط الماء في قُلَّته ببعض الخمر... عاد بعدها الشيخ جبريل ليتوسط خلانه... يشاهدون القصبي بعد أن ثقل رأسه، يتخبط في طابور الكنيف... حتى فهم السوكاندو فعلته... ورغم الفجور، فإن الجميع لم يملك إلا أن يضحك على القصبي، الذي طفق يسب الشيخ جبريل بأبيه وأمه بعد أن أدرك ما فعله الأخير.

ـ اللهم اجعله خير

هكذا تمتم مرعي عسكر عندما ضج السوكاندو بالضحك... كرع الماء من القلة على مهل ومسح فمه بكم جلبابه وهو يتابع القصبي يتخبط في سكره... فيزداد ضحك السوكاندو... أم الخير كانت تقهقه بدورها على طاولة الطعام... لا يدري مرعي ما الذي قالته صِبا ليضحكها بهذا الشكل، لكنه سمع ضحكتها تجلجل لتملأ السوكاندو، فابتسم بدوره... لم يستطع أحد إضحاك أم الخير منذ موت وحيدها سيد في الوباء سوى صِبا... سنوات طويلة بقيت أم الخير ميتة حتى جاءت صبا... يسمعها مرعي تمازحها وتعبث معها كل ليلة، تقول والخدم مجتمعون حول قصعة البامية

ـ عايزين نفرح بيكي انتي وعبدون يا ام الخير... تخلفوا لنا سفرجي شاي بلبن صغير يملا علينا السوكاندو

تكتم النسوة ضحكاتهن كي لا يستفززن أم الخير فتنقلب المزحة غمًا، فتقوم أم الخير عنهن وهي لا تزال تسبهن بأمهاتهن... لكن مرعي كان يرى الابتسامة تداعب شفتيها وهي تتصنع الغضب.

انتهى مرعي من دهن ركبتيه بزيت الكافور، وجر قدميه إلى السواد المتجمع حول فراش عبدون عبد الصمد... فيما ظلت فضيلة تجاهد لاحتواء ثورة القصبي، وحمله على العودة إلى فراشه... ينبئه قلبه أن هذا الضحك وهذا الصخب لن يعود على السوكاندو إلا بالخراب... كان مرعي عسكر متأهبًا عندما قطع الصراخ حكايات عبدون... لكنه التقط أنفاسه عندما تبين أنه صراخ إحدى النسوة من خلف ستار الكنيف

ـ تلاقيها شافت فار ولا ابو شبت

هكذا قال عبدون الذي تنعكس أضواء السوكاندو الخافته على بشرته السوداء اللامعة، فتكسبه هالة لطيفة، قبل أن يستطرد

ـ الفيران مافيش منها خوف... الخوف من ابو شبت

تأفف مرعي من الحكاية التي سمعها ألف مرة من قبل... اتخذ عبدون وضعيته المفضلة للحكي قبل أن يستطرد كأنما يشيع سرًا

ـ بيقول لك كتر الحشرات في الكنيف وحش

صمت الجميع وانتقلت أعين المستجدين من الخدم إليه

ـ بيقول لك أبو شبت بيحب الدفا... فيدخل لا مؤخذة من ورا... ويعشش هناك... وبعيد عنك المرض يصيب الجدع... ولا حد عمره حيدور في الحتة دي

اتسعت الأعين من حوله هلعًا، وامتدت بعض الأيادي تلقائيًا لتسد مؤخراتهم أمام أسراب أبوشبت الغازية... فابتسم عبدون ومضى في حكايته

ـ بيقول لك بياكل مصارين الجدع يا ولداه ولا حد حاسس بيه لحد ما يطب ساكت...

ـ يا نهار اسود

ـ آه والله... بيقول لك الحُكما مبيدروش بيه إلا اما يكون الجدع اتكوم وبدا يجيب دم من ورا... مافيش غير حكيم انجليزي هو اللي بيفهم في الحاجات دي، بس الفوزيتا بتاعته حراقة أكتر من أبو شبت

ـ الله يخيبك يا منيل

هكذا ارتفع صوت أم الخير، فأخرج عبدون علبة النشوق التي لا تغادر جيبه واستنشق... خفض صوته حتى لا تسمعه أم الخير وهو يعدد عليهم تجاربه مع أبو شبت والطرق المثلى لصد هجماته... وما أن انتهى حتى اقترب منه دياب وقال

ـ خد اقرا لنا دي يا عمّ عابدون... فيها تصويرة سيدك

اكتسى وجه مرعي عسكر تحفزًا وعدوانية عندما أشار بن الغرايبة إلى جناييني زميله، قال إنه استخرجها من القمامة... لم يكن مرعي يجيد القراءة، لكنه يعلم أن القراءة لا تأتي بخير أبدًا... تحلق الرجال حول عبدون في قلق مشوب بالحسرة، فيما رأى مرعي الفضول يقطر من عين بن الغرايبة.

جاء القصبي مترنحًا، وطفق يلعن الجرائد التي لم تحمل لسيده إلا الأخبار السيئة... فيعلو صوت عبدون بالخبر من جريدة الجهاد الوفدية... بعنوانها الرئيس «حروب الجابي»

ـ الجرنان بيقول لك «لم تكنِ الحرب الدائرة حرب سليمان بك الجابي، لكنها حملت معها تجارها ومنتفعيها... لتصبح القاهرة سوقًا فسيحة لجميع أنواع التجارة... كالتجارة في مخلفـات المعسكرات، وتهريب اللوريات المحملة بالمعاطف والبطاطين والمأكولات المحفوظة التي يشتريها تجار الحروب ببضعة جنيهات من الإنجليز لتباع بالألوف... حتى إن البعض تخصص في بيع الماء الملون لأصحاب الكارخانات على اعتبار أنه ويسكي إسكتلندي في صناديق مغلفة مختومة بختم الميناء، وتوسع البعض في تجارة الآثار والتحف المنتعشة».

تأمل مرعي في حنق وجه عبدون الأسود ذا الأنف الأفطس... لا بد أن ذاك الرأس الصغير لا يحمل عقلاً أكبر من عقل هرة... كم يكرهه... لم يكن شيئًا مما قيل يمس سيده بسوء، لكن كان يعلم أن ما سيتلو تلك المقدمة سيطال سيده... والضحك والهرج الذي غزا السوكاندو منذ قليل لا بد أن تتبعه المصائب... لم يستطع مرعي أن يبقى صامتًا فصاح

ـ السخام اللي بيتقال ده من كلام المطاريد يا عبدون يا نوبي

شعر بتحفز نعيم إلى جواره، فيما تجاهله عبدون وأكمل قراءة الخبر

ـ «لم يكن سليمان بك الجابي يلوث يديه بالصفقات التي يسهل تتبعها... لكن ذلك لا يمنع أنه كان شغوفًا بمعرفة جميع تفاصيلها، ومتابعة كل خيوطها، ليزداد سُمْك ملفات فضائح الساسة وكبار رجال الدولة في مكتبه، الأصدقاء والأعداء على السواء، يستخدمها في صد هجوم محتمل أو للتخلص من خصم عنيد، تلك الملفات التي جعلت الكبار يسكتون عن إفساده لوزارة الحربية ويكتفون بعزله في سرايٍ يرتع فيها كما يحلو له. ورغم عزلته في السراي الضخمة على أطراف القاهرة، فإن الجميع يعلم أنه لا يزال يحرك عرائس الماريونيت القابعة في وزارة الحربية... قد لا ترى وجهه، لكن المدقق قد يلمح أصابعه... صحيح أن الحرب الحالية ليست حرب الجابي بك، لكنها جيدة لتجارته التي ما زالت تتم على قدم وساق عن طريق إحدى الهوانم الإنجليزيات، المشكوك في أخلاقها... حتى اشتكت حساباته البنكية من التخمة المفرطة، ليبقى السؤال، إلى متى نكتفي بالصمت على الجابي بك؟ وإلى متى يتستر القصر والحكومة على فساد الحربية؟»

انفجر مرعي وراح يرغي ويزبد... طفق يلعن حماقة النوبي الأسود وقصر نظره، فانضم له نعيم وكاد يضرب عبدون قبل أن يعود به الرجال إلى فراشه... يحاولون تهدئته هو وعمه الذي راح يقول

ـ بيسمموا عقول الناس بكلامهم في الجرايد... وشرف النبي انا بحمد ربنا اني ما بفك الخط... ربنا حباني وحباكم بنعمة البعد عن الشر... اللي بيفك الخط ده شيطان

هكذا أنهى مرعي حديثه وهو يحدج بن الغرايبة والجناييني الذي استخرج الجريدة، ويعض على شفته السفلى في غيظ... لولا حرمة الحديث عن الوباء لأخبرهم أنه ما أتى بالوباء للكفر غير العلام

والمتعلمين... لكنه لم يعد يطيق أن يكتمها في صدره فاكتفى بأن صاح

ـ العلام أُس البلاوي... إيش فهمكم انتم في الكلام ده؟ إيش فهمك انت غير في مسح البلاط وغسيل الفرش يا عبدون؟

ضرب عبدون كفًا بكف وقال

ـ وانا مالي يا مرعي... إنت انطسيت في نضرك؟ ده الجرنان اللي كاتب... شكل التحقيقات حتتفتح مع سيدك من تاني

قال القصبي الذي لا تزال آثار السكر عالقة بكلماته البطيئة

ـ شوف يا أخي ازاي الكل بيتآمر على الجابي بيه... وهو واقف في مكانه... راسخ... ربنا حاميه

مصمص البعض الشفاه بينما بقى مرعي على غضبه

ـ حيعملوا إيه أكتر من اللي عملوه؟

هكذا قالت إحدى النسوة فجاوبها عبدون

ـ مين عارف بكرة يحصل ايه... يمكن مايكفيهومش حبسة السراية وياخدوه على السجن

غلت الدماء في عروق مرعي من جديد فحاول الوصول إليه ليفتك به... حاول أن يخبط ذلك البغل كفًا يستحقه على صدغه العريض... لكن الرجال حالوا بينهما، فيما راح نعيم يصرخ

ـ ماتقولش على سيدك محبوس يا عبدون يا نوبي...

مرت الأيام وظل مرعي على تحفزه، تزداد البغضاء في قلبه على بن الغرايبة وعبدون النوبي وزمرته... صمت معجون بالرهبة سيطر على السوكاندو مع استشعار الغد الهاجم بالمزيد من المرار، خاصة بعد أن تحققت نبوءة عبدون وفتح التحقيق مع الجابي بك من جديد... يهمس مرعي في مجيئه ورواحه

ـ كله من بن الغرايبة قدم النحس

ازدادت حدة الزلازل مع مرور الأيام... ففُصل الهاتف ومنعت الاتصالات... ولم يعد مرعي ينعم بالنوم بعد أن طال الأمر استرزاقه، عندما امتنع الجابي بك عن اشتراء الخيل الهالكة من العربجية عدة مرات.

(١٤)

استيقظ الخدم على صراخ الخواجة داوود كما اعتادوا مع فجر يوم جديد... البعض يتثاءب... البعض يتلكأ... لكن لا أحد يعترض... عاجلاً أم آجلاً يُجبل الخدم على مُراد الخواجة... تصبح الطاعة غريزة... يصبح الفكر والنقاش مكروهًا... ويصبح النظام غاية الحياة.

ترنح الشحات قليلاً وهو يتخذ دوره في طابور الخدم الطويل، يحمل الموسيّ في انتظار دوره ليحلق ذقنه أمام المرآة الصدئة... بعد انقضاء عدة فصول من وصوله، لم يعد الشحات يفتقد حياته قبل السراي... لم تعد الأسوار تحده عن العالم، بل تحميه من غدره... قل تذمره من الكنيف البائس الذي ينزع عنه وعن رفاقه آدميتهم بما لا يستره من عورات وروائح وأصوات... ثم انعدم التذمر تمامًا فور أن ترقى الشحات وابتعد فراشه عنه، ليحل مكانه خادم مستجد بجوار دياب القابع في قعر السلم

الوظيفي في السراي، ونعيم المغضوب عليه منذ واقعة الفحل... لم يعد أي شيء يزعجه منذ أن قرر أن يكون سعيدًا، وقد أدرك أن السعيد ما هو إلا شخص كف النظر عن البؤس المستشري في حياته.

أخذه الخواجة ذلك اليوم إلى طاولة الطعام المديدة، التي تحتل قاعة خاصة تمتلئ بثريات ومرايا تكسب القاعة الفسيحة مساحة إضافية... وقفا خلف كرسي على صدارة الطاولة ليملي عليه الخواجة درسًا جديدًا من دروسه التي لا تنتهي... رغم أن الشحات قد تشرب صنعته الجديدة حتى أصبح زي السفرجي جزءًا لا يتجزء من شخصيته... يمنحه حسًا بالفخر وأهمية لا يشعر بها إلا حين يرتديه... ورغم أنه قد حفظ أسماء أصناف الطعام والشراب المختلفة كاسمه، وأتقن أصول تقديم كل منها، لا يزال الخواجة يصر أن يبقي الشحات بعيدًا عن الجابي بك... لا يقدم الطعام إلا للخدم، حتى يتقن أصول الخدمة وفنون التعامل مع السادة، كما يقول.

عدل الخواجة من عويناته وقال

ـ إنت حتقف هنا... ورا الجابي بيه وضيوفه... ماتخطيش الخط ده

لم يعلق الشحات على انعدام الضيوف، وبحث عن الخط الذي يشير إليه الخواجة فلم ير إلا السجاد

ـ شايفه؟!

عاود الشحات البحث وتردد قبل أن يهز رأسه نفيًا

ـ لازم تبقى شايفه زي ما انت شايفني

هكذا قال الخواجة ورسم خطًا وهميًا بقدمه أمام الشحات... خط لا يجب تعديه إلا لتقديم الطعام أو إزاحة الصحون الفارغة... الخط الذي ستبقى عيناه معلقين به طوال وجود البك، لا تُرفعان في عيني سيده... أبلغه الخواجة في نهاية الدرس أن الجابي بك سيتناول طعامه اليوم في حجرة المكتب، ثم قال بابتسامة قلما تزور محياه

ـ جهز نفسك

كسا الشحات التوتر والصمت طوال ساعات الانتظار أمام المطبخ حتى بلغ مداه... كانت مجرد فكرة أن يكون مع الجابي بك في نفس المكان، يتنفس نفس الهواء، تصيبه برعشة تمتزج فيها الرهبة بالرغبة.

ظل الشحات يعدل من ثياب السفرجي النظيفة وطربوشه الأحمر كعريس يتأهب لحضور حفل زفافه، حتى اصطحبه الخواجة بعد الظهيرة إلى حجرة المكتب... حيث وقف الشحات بجوار تمثال جرانيتي في أحد الأركان... ورغم تحذيرات الخواجة، فإن الشحات وجد عينيه ترتفعان عن الخط الذي رُسم لهما... راح يسترق عدة نظرات لما حوله... نظرة خاطفة إلى الجابي بك وهو يحدث الخواجة... نظرة إلى بدلة سيده العسكرية المعلقة بعناية على حامل خاص يظهر أزرارها اللامعة... نظرة إلى المكتبة العملاقة التي تعج بالكتب وتشغل جدارين من المكتب الفسيح... نظرات خاطفة لكنها كانت كافية ليعلم الشحات أن مكتب البك لم يكن يعج بالزخارف الصارخة كالبهو الرئيسي.

ظلت عينا الشحات تجوبان المكتب... تمتصان التفاصيل... حتى تسمرت نظرته على صورة عتيقة تزين الحائط خلف الجابي بك، تواجه المقبل على المكتب... صورة لعجوز هزيل ذي شارب أبيض يتوسط شابين يبتسمان في فخر... ميز الشحات وجه سعد باشا زغلول من صورة قديمة ضمن حاجيات والده في دار عمته... لكن ما جعل دقات قلبه تتسارع كان وجه الشاب ذي النظرة الحالمة على يمين سعد باشا.

لوهلة نسي الشحات الخط وظل يحدق في وجه أبيه... كان بعد شابًا... تحمل ابتسامته كل آمال

الدنيا... ميز بصعوبة في الشاب الآخر ملامح الجابي بك... تكشف تلك الصورة أفاعيل الزمان في وجه سيده وما أضافته السنون من تجاعيد... حدثته عمته مرارًا أن أباه والجابي بك كانا لا يفترقان في صباهما... تؤكد عمته أن الجابي بك هو الناجي الوحيد ممن أصابهم الوباء، كما تؤكد أنه لم يطأ الكَفر بعده... حدثته كثيرًا عن أبيه والجابي بك كي تسري عنه... كي تزرع فيه ارتباطًا بوالده... لكن تلك اللحظة كانت المرة الأولى التي يراود الشحات شعور حقيقي بالفخر كونه بن الأفندي... أراد لحظتها أن يقول للجابي بك إنه بن صديقه... ود أن يبلغه أنه يحبه... أنه لم يكف عن الهرولة مع أهالي الكَفر وراء شاحنة السراي في كل زيارتها للكَفر... علها تكون زيارته المرتقبة... ليخرج مولانا الجابي بعد أن يتضح أن الشاحنة أتت فارغة، في مهمة لإمداد السراي بأرطال الزبد وأجولة المؤن، ويعد بزيارة وشيكة لم تأت... لكن عينيه ما لبثتا أن عادتا إلى موطئ قدميه، تراقب الخط عندما حدجه الخواجة بنظرة غاضبة... تجمد على أثرها الشحات في ركن المكتب، ينتظر أوامر سيده كي يعود إلى الحياة.

أنهى الجابي بك كأس المارتيني على مهل... التقط علبة سجائره وأشعل النار في إحداها، قبل أن يشير للشحات بكأسٍ جديدة وهو يطالع الفراغ... لاحظ الشحات وهو يزيد سيده من الشراب رعشه في يده اليسرى... رعشة ظل الشحات يشعر بها تهز كيانه وهو يجرجر قدميه مساء إلى السوكاندو بعد صعود البك إلى غرفته... حدث الشحات خاله مرعي برعشة يد البك فأوصاه خاله بالكتمان وقال إنه لا يخشى على الجابي بك شيئًا... وإن ما يجري ما هو إلا سحابة صيف، تصفو بعدها الأجواء سريعًا... فسيده راسخ، ذو جذور ضاربة في الأرض لا تقتلعها رياح الخيانة.

تابع الشحات تلك الليلة حديث الخدم الذي تطرق إلى الحرب التي أصبحت على أشدها... يحكي عبدون عما سمعه في المذياع عن ضربات المحور وعن اجتياح القوات الألمانية لأوروبا، وتحطم القوات الإنجليزية في دنكرك... ودخول اليابان الحرب واستيلائها على ماليزيا وبورما وسنغافورة... يقول عبدون إنها بشائر انتصار ألمانيا والمحور

ـ يلا خلي الانجليز يحلو عن سمانا... بيقول لك الألمان أرحم

لم يستوعب الشحات شيئًا من ذلك، ولم يكن يهتم... لكنه انتبه حين سمع نعيم يقول

ـ تصدق ممكن حال الجابي بيه يتغير مع دخول الألمان

تنهدت إحدى النسوة

ـ وحالنا يتعدل معاه... وناخد الإذن ونخرج ونشوف الدنيا بقى

ـ تفتكر يا عم عبدون؟

قالها الشحات راجيًا

ـ كل شيء جايز

هكذا أجاب عم عبدون قبل أن يستطرد

ـ بيقول لك باشاوات كتير رجعوا العزب في الريف من كتر غارات إيطاليا... بيقول لك صفارات الإنذار مابقتش تبطل في مصر الجديدة... أصوات الانفجارات بتزيد وبتقرب يوم عن يوم لما أعصاب الناس تلفت... إحنا ربنا كتبلنا الخير ان السرايا بعيدة عن الضرب والغم... بس يصح ندهن شبابيك السرايا والقبة أزرق زي ما بينبهوا في الراديون... ماحدش ضامن

تبرم خاله مرعي وزم شفتيه... قال بامتعاض إن الجابي بك لن يلوث قبة السراي باللون الأزرق الكئيب.

عم صمت ثقيل، لا يقطعه إلا همس النسوة من خلف الخدر... إلى أن ضج السوكاندو بالصراخ بلا

مقدمات... بعض الخدم يتناوشون بجوار الكنيف... فز الشحات عندما تبين دياب يهم أن يفتك بنعيم... يتعاون الكفراوية أن يمنعوه

ـ الغرايبة كلهم حرامية ولاد كلب

قالها نعيم وهو يرفع بعض فضيات السراي التي أخرجها من فراش دياب... وما أن قالها حتى تكرر نفس المشهد الذي يتذكره الشحات جيدًا من طفولته... دياب يعجز عن الحديث... تشله وقاحة نعيم... يشجع الصمت نعيم على التمادي... دياب يجثم فوق نعيم الذي يصرخ بلا توقف... يهوي عليه بقبضته... فيحطم أنفه... من جديد.

حدث ذلك في ثوانٍ معدودة... عم بعدها الهرج والاتهامات والسباب حتى جاء الخواجة فصمت الخدم

ـ والنعمة ما اعرف عنهم حاجة

قالها دياب الذي استطاع الخدم تكبيله من جديد... طالع الخواجة نعيم ذا الوجه المهشم قبل أن يُخرج دفتره الرمادي ويدون به تفاصيل الفضيات

ـ انجر قدامي

هكذا قال الخواجة وهو يدفع دياب أمامه... فصرخ نعيم

ـ وانا يا جناب الخواجة... أنا... بص البهيم عمل فيّا إيه؟

لم يعلق الخواجة الذي قاد دياب المستسلم أمامه... تفادى الشحات التقاء الأعين حتى اختفى دياب، يسمع خاله مرعي يقول

ـ في ستين داهية... خلي السوكاندو ينضف

(١٥)

لم يهتم الخواجة داوود كثيرًا بما حدث تلك الليلة، فكيد الخدم ودسائسهم لا تنتهي... ذلك ما تعلمه في سنوات عمله الطويلة بينهم... لكنه ظل يضحك في الصباح التالي كلما تذكر الأحمق الذي دس لدياب المسروقات... فتش بعينيه عن نعيم بين الخدم المتكتلين حول الشاحنة التي عادت لتوها من الكفر بالمؤن، حتى وجده منزويًا أمام باب الإسطبل، يداوي الشيخ جبريل أنفه كيفما اتفق... يعلم الخواجة منذ واقعة الفعل أن نعيم أخرق، لكنه لم يتوقع أنه بتلك البلاهة، كيف نسي ذلك الغبي أنه لا سبيل لجناينى لا يطأ بلاط السراي كي يطال تلك الفضيات... كانت الابتسامة لا تزال على محيا الخواجة حين اقترب منه سائق الشاحنة وأخبره بتدهور صحة والد الجابي بك، حتى أشيع في الكفر دنو أجله.

قرر الخواجة ألا يفسد يوم سيده من بدايته... سيخبره ليلاً... لم يعد البك يحتمل المزيد من الأخبار التعسة منذ إعادة فتح التحقيقات... ولا شيء يمكن فعله على أية حال، البك حبيس السراي بلا هاتف... انشغل الخواجة طوال اليوم في ترتيب المخزن بمؤن حرص على تكديسها لتكفي السراي لعدة شهور ترقبًا للحرب التي اقتربت من أعتاب المحروسة... ومع حلول الليل، قام بجولته الأخيرة في السراي لتفقد الخدم، ثم مكث أمام مكتب الجابي بك... حيث سيبقى رابضًا خارجه حتى ينتهي البك من كتابة مراسلات لبعض الأصدقاء، يتولى مرعي عسكر ترتيب خروجها ودخول الردود عليها عن طريق العربجية.

أَلِفَ الخواجة التماثيل المنتشرة في أركان السراي وألفته... يتماهى ظل كبير الخدم الثابت بينها خاصة عندما يغلفهم الصمت المطبق مع انحسار صدى أقدام الخدم العائدين إلى السوكاندو ليلاً... لكن ثقل الأخبار التي يحملها الخواجة جعله يتململ تلك الليلة... خاصة بعد أن عاودته همومه وقلقه على ابنه بنيامين... صار عقله غائبًا مع الأخبار المتوالية عن اكتساح القوات الألمانية لهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج... لم يتبق إلا بضع خطوات ويضع النازي قدمه في فرنسا... حيث بنيامين... كان مجرد التفكير في ذلك يدمي قلب الخواجة... ينكأ جرحًا لم يندمل منذ رحيل ولده.

لا يتذكر الخواجة بنيامين شابًا إلا لمامًا... ربما لأنه لا يزال صبيًا في مخيلته... ربما لأن شبابه لم يحمل إلا الكثير من الألم والجحود... تظل صورة بنيامين في خيال الخواجة لطفلٍ يلهو ويتقافز عندما يصحبه إلى المعبد اليهودي بشارع عدلي... أو يبكي عندما يسحبه بعيدًا عن الأطفال الخارجين من مدرسة الفرير الابتدائية في حى الظاهر... أو يغضب حتى يحمر وجهه عندما يقول له إن تلك ليست مدارسهم، وهؤلاء أطفال لا يصح أن يلعب معهم... كان الخواجة يريد أن يزرع فيه الفوارق الطبيعية بين الطبقات مبكرًا حتى لا يشقى في حياته... لكن بنيامين أبى إلا أن يتمرد حتى رحل إلى بلاد قال إنها لا تعرف ثقافة الخدم.

انتزع الخواجة نفسه من دواماته الداخلية... ابتلع أحزانه وقلقله على ابنه بحرفية خادم أمين... وسرعان ما توارت أولوياته الخاصة خلف أولويات سيده، فأخذ يدور خارج المكتب كنحلة، حتى حسم أمره في النهاية وطرق الباب في أدب... تقدم الخواجة بخطوات خجلى نحو الجابي بك الجالس خلف مكتبه العريض، يرتدي رداء يظهر من تحته قميصه الأبيض ذو الياقة المنشاة... ضاعفت إضاءة المكتب من حضور هالة دخان السجائر التي تحوم حول كرسي سيده المغطى بالجلد الأسود... كأنما تتعمد أن تفصله عن العالم، ليزداد هيبة فوق هيبته... لكن الدخان لم ينجح في إخفاء صرامة وجهه وهو يطالع الجرائد، التي لا بد أنها تحمل المزيد من المصائب

ـ السواق وصل الدوا لوالد معاليك النهارده في معاده

هكذا بدأ الخواجة حديثه وتحرج قبل أن يضيف

ـ وبيقول إنه بعافية... وإنه مابقاش يقوم من السرير

توقف الجابي بك عن القراءة للحظة ثم قال دون أن يرفع عينيه

ـ روح نام انت يا خواجة، كفاية عليك كده الليلة

عاد الخواجة إلى غرفته... ومع فجر يوم جديد قام ليوقظ الخدم... كان يوم الخواجة اعتياديًا قبل أن تستوقفه أم الخير بوجه ممتقع في أثناء جولته في السراي... أخذته من يده وأجلسته جوار المذياع، فطاوعها كطفل تائه... كان يعلم مقدمًا ما سيُقال لكنه رفض التصديق قبل أن يسمع بنفسه... وصلت القوات الألمانية إلى العاصمة باريس... فيما فر العديد من أعضاء الحكومة الفرنسية وسط حالة من الفوضى... سقطت فرنسا في يد النازي وسقط معها فلذة كبده... آه يا بنيامين... سمع اقتباسات من خطاب المارشال بإتان، يعلن استسلام فرنسا، وتقسيمها إلى قطاعات... حاول الخواجة منع نفسه من تخيل بنيامين وقد أُجبر على وضع شارة نجمة داوود على ذراعه، تصمه بالعار، وتعده بغد كالح السواد في عالم فقد صوابه.

التصق الخواجة بالمذياع على مدار أيام طويلة لا يدرك لها حصرًا... يستمع في صمت... لا يظهر من البراكين التي تثور وتخمد آلاف المرات في صدره غير بعض من رماد ساكن على وجهه المتغضن... فيما تواري حممها روح الأب المكلوم... كان ينتظر أن تأتيه الأيام بما يرد له الأمل، لكنها لم تأت إلا بمزيد من الأخبار المفزعة... حتى صار يؤمن أنه يعاقب على ذنب لا يعرفه ببقائه حبيس السراي بعيدًا عن ولده... لم يعد يميز صباحًا من مساء... لم يعد يشعر بالزمن يمضي من

حوله... لا هو حي ولا هو بميت... هو أحد ساكني مدينة النسيان، يترنح على حافة الهاوية... يسير في أرض التيه... لكن هل بقي في العمر ما يكفي أن يخرج منها، أم يصبح كأجداده من معمري قوم موسى الذين قضوا في التيه.

كان قد عاهد نفسه أنه لن يدفن إلا في بلده... بين ناسه وأهله... يحتضنه تراب محبوبته... وحدها كانت ستحنو عليه... وحدها تعلم أنه ليس بخواجة... كيف لابن طين هذا البلد أن يكون خواجة؟ غير أن القدر يأبى إلا أن يفرقه عن مصر... لكنه لم يعد يحتمل أن يبقى مغلول اليدين... لم يهبط الخدم إلى السوكاندو في موعدهم تلك الليلة، ولم ينهرهم الخواجة... يسمعهم يتهامسون بما ينوى أن يفعله وهو يطرق غرفة مكتب سيده ويدلف... وقف على بساط الأدب وقال بصوت تغالبه العبرات

ـ في حاجة كنت عايز إذن معاليك فيها

جاوبه الصمت المطبق فازدرد الخواجة ريقه واستطرد

ـ بعد إذن معاليك أنا عايز امشي

هكذا دمدم الخواجة فضاقت عينا سيده... نزع عوينات القراءة وحدق فيه فأسقط الخواجة نظره إلى موطئ قدميه، تحاشيا لالتقاء الأعين

ـ تمشي تروح فين يا خواجة؟

تلجلج الرجل وهو يقول

ـ ابني يا سعادة البيه في فرنسا... ومعاليك عارف الألمان بيعملوا إيه في اليهود هناك اليومين دول... ماعدتش طايق أبقى بعيد عنه وهو في النار

أمسك البك بثقالة ورق زجاجية، تشبه قبة السراي إلى حد كبير، وكرر «فرنسا» كأنما يزنها... سكون ثقيل خيم على المكتب قبل أن يستطرد الجابي بك بعد أن أفاق من شروده

ـ وانت حتعمل له إيه يعني يا خواجة؟ حتحارب هتلر؟ هو انت تعرف أصلا ابنك فين؟

كان صوته جافًا... باردًا كالصقيع... حتى إنه أرسل رعشة في جسد الخواجة الذي تماسك وقال

ـ أيوه عندي جوابات منه، بالعنوان

ـ أغلب اليهود هربوا قبل ما هتلر يدخل... أكيد ابنك سابها معاهم... اصبر شوية

تلجلج الخواجة... تلعثم بحثًا عما يقوله... لكن العجوز في النهاية وجد نفسه يقول

ـ أنا عملت كل حاجة علشانك يا سعادة البيه... كل حياتي بتدور حوالين معاليك والسرايا... طول عمري زي طور مربوط في ساقية... باكدب على نفسي وعلى الخدامين وحابسهم معاك بقالي سنين... عمري ما طلبت الإذن... ودلوقتي بقول لمعاليك ابني بيروح مني، تقولي اصبر شوية؟ إنت ازاي مش مقدّر؟

ـ بُص لي يا خواجة

قالها البك فرفع الخواجة نظره في عينين سوداوين كبئر بلا قرار، تحيط بهما هالة داكنة تتخللها تجاعيد رقيقة... طبقات من اللون الأسود تجمعت في عيني سيده لتعطي تلك الدرجة التي لا تعكس أي ضوء... طالعه الجابي بك للحظات بدت له كدهر، حتى إن الخواجة بدأ يتعرق ويندم بالفعل على ما قاله... يشعر أن عيني البك تخترقانه... تنفذان إلى روحه... تعلمان عنه أكثر مما يعلم الخواجة عن نفسه

ـ من صغري باكره البهايم... عارف ليه باكرههم يا خواجة؟ لأن البهايم جاحدة... عكس الكلاب اللي ولاءها مش مشروط بحسن المعاملة... البهايم متعودة تلاقي حد يحش لها البرسيم في مكان معين في وقت ثابت... عارف لو البهايم مالقتش الخضرة تعمل ايه؟ بتحرن... وممكن ترفس الإيد اللي بتأكلها... مش عارفين إن لولا الإيد دي ولولا إن فيه واحد مضلل عليهم كان زمانهم ماتوا في جِلّتهم... أو ماتولدوش من الأساس... إنت مستني مني أقدّر... عايزني أهنيك على إنك بتعمل شغلك... عايز سيدك يعاملك بالإحسان... إنت مش راضي بوضعك، لكن ناسي إن أنا كمان مش راضي... مش راضي بالفكرة اللي بتنبت جواك اني لازم أقدم لك شيء في مقابل شيء... أنا مش راضي عن الأوهام اللي بدأت تتكون في دماغك انك ممكن تحط كتفك قرب كتفي وتطلب كأنه واجب عليا التنفيذ... كونك جنبي دلوقتي وأنا مهرستكش لما قُلت الكلمتين الخايبين بتوعك دول في حد ذاته فضل إنت ماشكرتنيش عليه... ولو مافُقتش جايز قوي أراجع نفسي... البهيمة اللي تحرن دواها إنها تتدبح يا خواجة

هكذا قال البك وهو يخرج مسدسه من درج المكتب ويضعه بجوار ثقالة الورق... لم يجد الخواجة ما يرد به على البك الذي صمت وعاد إلى قراءة الجريدة، إلا أن قال

ـ معاليك تحب تتغدى إيه بكرة؟

صرفه البك بإشارة من يده دونما تعليق... كاد الخواجة يختنق، حملته همومه إلى دياب وصِبا بجوار السلاملك... لم يكن يريد أن يتكلم... فقط أراد أن يسمع أحاديث السيرة إلى أن عاد إلى غرفته... حيث ظل شاخصًا في ما تبقى من الليل... يستمع إلى صوت أغصان الأشجار في الحديقة، تتلاعب بها عاصفة لم تكتمل بعد... تعوي في مخيلته أبواق السفينة التي لا بد أن تحمله كما حملت ابنه من قبل بعيدًا عن المحروسه... ساورته مشاعر عديدة على مدى سنوات عمله مع الجابي بك، لكن تلك الليلة كانت الأولى التي يمقت فيها الخواجة سيده... ما هي إلا أيام وسيسجن البك ويرحل عن السراي، هكذا قرأ في إحدى الجرائد... ظل الخواجة يدعو اللـه أن يعجل بالخلاص إلى أن غفا وهو يتساءل، لم يصر الملعون على تعذيب الجميع معه حتى آخر لحظة.

(١٦)

لم يأتِ الخواجة لإيقاظ الخدم في الصباح، لكنهم قاموا في موعدهم على صوت مرعي عسكر يصيح بهم

ـ فز منك له!

استوقف الشحات خاله وهو يمر مع جمع من الخدم

ـ أمال فين الخواجة يا خال؟

ـ ابن الصرمة قال إيه عامل غضبان... عايز يبوظ لنا النظام

هكذا قال خاله وانطلق يوقظ البقية المتكاسلة... انتظم الشحات في طابور الكنيف، يسترق نظرة إلى صِبا كعادته كل صباح... بادلته صِبا ابتسامة ناعسة، رقص قلبه لها طربًا قبل يدفعه عبدون عندما تحرك الصف فتلكأ حتى لا تتوارى عن ناظريه... وحدها صِبا تهون عليه رتابة الأيام... يبدأ يوم الشحات مع سماع إشراقة ضحكتها الرائقة في المطبخ وينتهي بغروبها خلف خدر النساء.

أحب الشحات من قبل... أحب الكثير من فتيات الكَفر، في صمت... لكنه لم يعد يحب... الشحات يعشق... يعشق ضحكة صبا البديعة التي تتزين بأسنان تلمع كاللآلئ مع سمرة وجهها... يعشق أمواج

شعرها الغجري التي ترفض الانصياع وتأبى إلا أن تضرب شواطئ غطاء رأسها... ما لم يتغير بين حبه القديم وعشقه الحالي هو الصمت... حتى أنِس إلى خيالات أن يقضي عمره بجوار صبا... يدرس تفاصيلها... ويعشقها في صمت، إن لم يتح له الكلام.

كان الشحات لا يزال غارقًا في خيالاته عندما ارتفع صوت عبدون خلفه في الصف... يتعمد أن يُسمع مرعي عسكر

ـ يعني محبوس وعملنا نفسنا مش عارفين... حطينا البلغة ف بؤنا لما حابسنا معاه... لكن ذنبه إيه الراجل الغلبان يعذبه من غير عازة؟ ليه يحوشه عن ضناه وهو محتاجه؟

تحصن الشحات بالصمت خوفًا من تبعات الكلام حين طفق خاله يسب عبدون

ـ ماتقولش على سيدك محبوس يا عبدون يا نوبي بدل ما أشق بطنك بالموس

ـ مش انا اللي باقول يا بهيم، دي الجرايد

احتقن وجه خاله وهو يقول

ـ ومن إمتى الجرايد بتُصْدق... كلها كدب في كدب

ـ وانت بتعرف تفك الخط يا مرعي؟

لم تدم ابتسامة عبدون المتهكمة عندما أطبق مرعي على تلابيبه... يتناثر الزبد من شدقيه وهو يصيح

ـ وانت مال أمك بافُك الخط ولا مابافكهوش... إنت مابتطلّعش غير الأخبار اللي بتسب في اللي لحم كتافك من خيره يا ابن الهرمة

سكن قلب الشحات حلقه، فألقى بنفسه داخل الكنيف الحجري وأسدل الستار خلفه... جلس القرفصاء وغاب في قضاء حاجته... غاب قدر استطاعته هربًا من الجمع المتنازع... ارتضى أن يعيش في عالمين تفصلهما صحراء قاحلة... عالم السوكاندو وعالم السراي... لا تتلاقى هموم السوكاندو التي لا تتعدى في العادة طلبات إصلاح الكنيف الملعون، مع هموم واهتمامات السراي... حتى صحون وملاعق السوكاندو لا تغسل في نفس الحوض الذي تغسل به سائر صحون السراي، كي لا تختلط مياه الغسيل... لكن الشحات لم يعد يحتمل التصدع الذي أصاب عالم السوكاندو، وحوله إلى فرق شتى لا تكتفي بعدم التلاقي، بل تتسابق في التناحر.

تعالى وطيس المشاحنات عندما خرج الشحات من الكنيف... إلى أن فرق دياب بين مرعي وعبدون ودفع الأخير في الكنيف وأسدل الستار خلفه... بصق خاله على الأرض وهو يدفع يد دياب وصاح

ـ شيل إيدك من عليا يا ابن الغرايبة

كاد شجار جديد ينشب بين دياب وخاله، فسارع الشحات بارتداء ثياب السفرجي النظيفة، وانسل من السوكاندو هربًا من ذلك الشقاق... يصيح الرجال من خلفه

ـ استهدوا باللـه يا اخوانا وخلونا نطلع نشوف أشغالنا

كان آخر ما سمعه الشحات صوت خاله وهو يقول

ـ خليكم ساكتين كده وسيرة سيدكم بيمرمطها الحَوَش

لم ير الشحات الخواجة طوال اليوم، حتى ظهر مساءً يحمل دفتره الرمادي... كان يبدو كرجل

آخر... زال عن وجهه لونه... وبدا أن سنوات عمره قد لحقت به أخيرا وولت عنه وسامته دونما رجعة... كان الخواجة شاردًا، فلم ينتبه إلى الشحات الذي حياه من مقعده على مدخل المطبخ... لا يعلم الشحات كيف دون الخواجة التالف من الملاعق والأكواب والصحون تلك الليلة... لكنه سمع من موقعه صِبا تعاونه على العد... سمع أم الخير تواسيه... سمع النسوة يسألن أم الخير بعد أن رحل الخواجه عما أصابه... فتجيب الأخيرة بصوت مختنق

ـ يا ولداه عايز يروح لضناه ومش عارف... الضنا غالي يا حبة عيني

ـ ليه؟

قالتها صِبا بحده

ـ ماخدش الإذن يا بنتي

ـ ربنا على المفتري

هكذا قالت صِبا فعم صمت ثقيل في المطبخ.

في المساء جلس الشحات بين أهل السوكاندو إلى مائدة الطعام، كل إلى مكانه المحفوظ... حاول تجاهل دقات قلبه المتسارعة وهو يرى خاله مرعي يغمض عينيه ويتنسم عبق صِبا وهي تناوله نصيبه بالمغرفة... حاول تجاهل همسه بفحش القول وهو يوزع بعض الأفيون الذي تحصّل عليه من العربجية على بعض رفاقه من الكفر، فيضجون ضحكًا... هلل الشيخ جبريل وقام بإخراج زجاجة شبه فارغة، وصب منها بعض الشراب في كأس مرعي احتفالاً بنفحة الأفيون.

في الليل تجمع الشيخ جبريل ونعيم والقصبي وباقي السواس وبعض النسوة حول مرعي عسكر... فيما تحلق دياب مع أم الخير وتوحيدة الأرملة وجمع آخر حول عبدون... وجد الشحات نفسه يذهب إلى حيث جلست صِبا وحيدة وهمس بعد طول صمت

ـ هو الخواجة لو مشي مين حياخد مكانه؟

هزت كتفيها في لا مبالاة

ـ أكيد البيه حيجيب حد من بره... ده لو لقى حد يرضى بالنظام

نظر الشحات إلى خاله مرعي وجلسائه ممن تتصاعد لعناتهم على الخواجة وجحوده، قبل أن يقول

ـ وليه مش خالي؟ ده شغال في السراية من زمن الزمن

بدا أن مجرد ذكر خاله عكر مزاج صِبا فقالت

ـ خالك سايس... ماشتغلش غير في الاسطبل، حيشتغل مكان الخواجة ازاي؟

لم يعلق الشحات... ربما كانت صِبا على حق... ربما لا يصلح خاله ليكون كبير الخدم... لكن من غيره؟

(١٧)

صار سيد يهفو على أم الخير كثيرًا في الأيام الأخيرة... ربما كان ذلك بسبب ما تسمعه عن الخواجة وابنه... ربما ذكرتها الفرقة التي اجتاحت السوكاندو بالأيام الملعونة... ربما لأن السراي تتصل بالكِفر بحبل سُري طويل، بطول سنوات عمرها... لا تدري أم الخير... لكنها صارت تتذكر

الوباء الذي خطفه منها بعد طول التناسي... تتذكر الأفندي المأفون يؤلب الفتية والفتيات على أهاليهم... تتذكر الوجوه النحيلة التي أخذت سيد من دفء صدرها إلى برد دار الحَجر، كما تتذكر الوجوه الغليظة التي أفتت بقتله.

صعدت أم الخير ذاك الصباح إلى المطبخ... تراودها ريح سيد... كان العبء فوق الطاقة... حتى إنها كانت على وشك البكاء حين صدمتها فضيلة التي تقطع بهو السراي عدوًا... اخرجت الصدمة أم الخير من دوامتها الداخلية وصرخت بفضيلة بعد أن اعتدلت

ـ ماتفتحي يا بت... إيه اللي صابك؟

لم تجبها فضيلة وأكملت طريقها كالممسوسة... نظرة واحدة لما حولها كانت كافية لتدرك أم الخير أن فضيلة لم تكن الوحيدة التي فقدت صوابها هذا الصباح... السراي بمجملها أصابها المس... اختفت أصوات التنظيف وأخذ الخدم يهرولون في الأروقة... يبكي بعضهم فرادى ومجموعات ويتهامس البعض الآخر... كادت أم الخير تمضي في طريقها إلى المطبخ، لكن رؤية وفد من الكونستبلات يدلف إلى مكتب البك استوقفتها... أدركت أن هنالك شيئًا ما يجري في السراي... شيئًا كبيرًا... كتمت أنفاسها مع أنفاس الخدم المحتبسة في الصدور وراحت تطالع المكتب... هل جاءوا أخيرا ليصطحبوا بن الجابي إلى السجن... انتظرت أم الخير مليًا أمام المطبخ، لكن الاجتماع طال... فاستوقفت إحدى الخادمات لتستنطقها عما يجري

ـ مولانا الجابي... تعيشي انتي!

اخترقت الكلمات أذني أم الخير لكنها لم تستقر في قلبها إلا بعد وهلة... لا تدري ما الذي أصابها في تلك اللحظة... اعتملت في صدرها مشاعر متراكبة... أرادت أن تصرخ بالهم والقهر والغضب الذي بقي حبيس صدرها لسنوات طوال... أرادت أن تبكي وتضحك في ذات الوقت... أرادت أن تطلق الزغاريد لموت ركن من أركان الوباء... لكن أشد ما أرادته في تلك اللحظة هو أن تقف على قبر سيد... وتبكيه... علّه يستريح في تربته.

ظلت أم الخير على وضعها أمام المطبخ، تتأرجح في وقفتها من فرط الانفعال، حتى خرج الكونستبلات أخيرا... جرت قدميها إلى من كان يومًا رفيق ولدها... وجدته يجلس كعادته خلف مكتبه... يدخن بشراهة.

ـ البقاء للـه يا سليمان بيه

قالتها بلا حزن قبل أن تستطرد

ـ هو معاليك حتحضر الجنازة؟

نظر إليها البك نظرة خاوية فسقطت عينا أم الخير إلى موطئ قدميها

ـ مش حيمنعوني عن جنازة أبويا كمان يا ام الخير

قالت بصرامة لم تعهدها في نفسها

ـ الأصول يا بيه اننا نروح نحضر الدفنة في الكَفر

ـ عايزة تحضري دفنته... دفنة...

لم يكمل البك عبارته... لا تدري أم الخير أكان يريد أن يقول دفنة زوجك الثاني... أم أراد أن يقول دفنة من أدخل ولدك دارًا لم يخرج منها إلا محمولاً على الأعناق... لكنها قالت بحسم

ـ الأصول أصول يا سعادة البيه

صباح اليوم التالي، عقدت أم الخير شعرها الشائب، واكتست بالسواد... قبلت صِبا ودثرتها في فراشها... وعدتها مجددًا أنها ستعود سريعًا بعد أن تزور سيد... ثم تكدست مع باقي الكفراوية في صندوق الشاحنة، التي انطلقت بهم خلف سيارة البك تطوي الطريق.

كاد الطريق الوعر والبقاء في صندوق الشاحنة يقصم ظهر أم الخير... لكنها تحاملت... تشعر بالدنيا تضيق بها كلما اقتربت الشاحنة من الكَفر... تتحول الطرق العمومية إلى طرق فرعية... ثم إلى مدقات... تختفي السيارات وتظهر الكارو التي تجرها البغال الضامرة... تختفي الطرابيش وتسود الطواقي البلدي... تتشح النساء بالسواد وتختفى الملابس من على الأطفال المنتشرين على جوانب المدقات... لم تر أم الخير الكَفر منذ عقد على أقل تقدير... لكن ما أن ولجت الشاحنة طرقاته حتى أدركت أنه لم يتغير كأنما تركته بالأمس... بقايا الحفر لا تزال منتشرة أمام الدور بحثًا عن العِرق... الأعين الوجلة المتوجسة لا تزال تبحث عن المتآمرين على كفرهم المجتبى... كل ما هنالك أن الوجوه البائسة ازدادت ضمورًا.

عبرت الشاحنة بحر الساحل، ومرت من أمام دار فتحي عسكر... دار الحجْر الخاوية على عروشها... لا تزال أم الخير تسمع صراخ سيد بالداخل بين أكوام البشر واستنجاد شباب الكَفر بالأهالي... مرت بدار الأفندي المخربة، حيث وقف يومًا يخطب في الشباب... ترى سيد بينهم، يهتف بهتافهم... لو أن الأفندي صمت، لو أن المأفون ابتلع لسانه وترك الغرايبة يلقون مصيرهم كما فعل الجميع، لما مات سيد... لكنه ظل يصرخ... ويصرخ... كما يصرخ الجميع في ذاكرتها.

انهارت أم الخيرِ على المصطبة أمام دوار الجابي... يدوي عويل المعددات اللاتي استأجرهن العمدة في أرجاء الكَفر... راقبت المقدس عبد ربه الذي يبكي بحرارة بجوار مدخل الدوار... في الداخل يُغسَّل مولانا الجابي... تراه يبكيه أم يبكي نفسه؟ هرم المقدس كثيرًا، ولا بد أنه يدرك أن يومه هو الآخر قد اقترب... تُراه يخشى الحساب؟ أم أن أمثال هؤلاء نسوا أمر الل-ه؟

ما زالت أم الخير تتذكر حين وقف المقدس ومولانا الجابي على رأس الكفر وأمرا بعزل الموبوئين... قالا إن الكفر يتطهر... قالا إن العلاج مر والصبر موصوف... كانت تذهب كل يوم لمولانا الجابي، تحب على يديه أن يخرج ابنها... تقول إنها ستذهب به إلى الهوزبتاليا الأميرية... ستسافر به إلى طنطا ولن تعود به إلا صحيحًا... أو لن تعود أبدًا إن وافق ذلك مراده... كل ما عليه أن يدع سيد... ينهرها الجابي فتذهب للمقدس... ترجوه وتتوسل إليه بالمسيح وكل ما تعلم أنه مقدس عنده... يقول إن سحر الغرايبة شديد وسيد لم يتحسن بعد، لكن الأمل في الل-ه كبير

«ونعم بالل-ه... طب اشوفه»

لا زيارات للمرضى حتى يصحوا كي لا ينتشر الوباء... تلك تعليمات حلاق الصحة... تذهب إلى دار الحجْر، ترى الكهول على بابها يحرسونها... تتوسل إليهم كي ترى سيد... تهتف باسمه فتجيبها الصرخات والاستغاثات من الداخل فيزيحونها بازدراء... تدفعها الأقدام... صارت «حيطة واطية» بعد موت أبو سيد... و»الحيطة الواطية تخطيها الكلاب يا سيد».

لم تره أم الخير بعدها إلا جثة ملقاة... بلا حراك

- قوم فز يا وله... راقد كده ليه؟ قوم ارحم أمك... قوم ماتقطعش قلبي

هكذا أخذت تصرخ... لكنه لم ينهض... ضربته فلم ينهض... تسمعهم يقولون

«ربنا اختاره يا ام سيد... شدي حيلك»

لم ينعتها أحد بأم سيد بعد ذلك اليوم... راحت الابتسامة الرائقة المستخفة بالموت ولم يتبق لها إلا قسوة الأيام... آه يا سيد... أنقذ الجابي ابنه وتركك... ما زال الملعون يحتفظ بذلك الحقد القديم... لم

يهدأ حتى نزع منها وليدها الوحيد... ملعون هو كسلالته من البلطجية واللصوص... ملعونة سلالة الجابي.

أصرت أم الخير على حمل ولدها إلى تربته مع الرجال... يحترق قلبها بنار الغضب واليأس... حتى الكلبة في طرقات الكفر تنهش لحم من يقترب من خلفتها يا سيد... لكنها سكتت كما سكت الجميع... وزع الدم بين الدور وبقيت الحرقة في الصدر... إلى من تشكو أولاد العم والجدود... إلى من تشكو الجيران والخلان يا حبيبي... خرج الجابي المتعوس وحرم ذكر الوباء، كي يبرأ الكفر من ذكراه... فلم تعد أم الخير تذكره، لكنها لم تبرأ من ذكراه... الهم راسخ في قلبها لا يتزحزح مهما حاولت دفعه... حتى القدر لم يشأ أن يحنو عليها حين حاولت الابتعاد عن الهم بالهرب من الكفر... فلم تجد لها مأوى إلا سراي بن الجابي.

دفعت أم الخير الخطى حين خرجت جنازة الجابي باتجاه الجبانة... بخطوات مهزوزة، سارت بين الغيطان في المدق المفضي إلى المقابر... ذلك المدق الذي قيل إنه يفضي إلى الأرض التي هبط عليها حجر من السماء في قديم الزمان... لا يوجد اليوم حجر ولا عِرق... فقط القبور التي تكاد أم الخير تسمع لعنات ساكنيها للأحياء ليل نهار.

دُفن مولانا الجابي، فكتمت أم الخير لوعتها وتركته يلقى حسابه... يا الله... كم تشتاق لأن ترتاح هي الأخرى... ما للعمر يمضي والموت يتلكأ؟ لِمَ لا يرحمها من عذابها المقيم؟ تعوذت بالله من الشيطان الرجيم... وقبل أن تمضي قبضت قبضة من أديم الجبانة... أوصتها أن ترفق بولدها سيد... أن تحنو على من قضوا معه في الوباء... آن لهم أن يستريحوا.

(١٨)

عاد دياب إلى الكفر مع الخدم كي لا يسمع كلمة عن أخلاق الغرايبة وقلة أصلهم، لكنه لم يذهب للدفنة ولم يكن ينوي الذهاب للعزاء... استقر على المصطبة أمام دار جدته تحت عريشة محملة بالحطب والدريس، يصله صوت المعددات ينعين الجابي من بعيد... مرت به امرأة توازن بلا مشقة بين رضيع يتعلق بذراعها، وصينية كبيرة فوق رأسها غُطيت بقطعة قماش... حيته وأراحت الصينية بجواره على المصطبة وقالت

ـ الجنازة حارة والميت كلب

نظر دياب إلى نعيم ومرعي عسكر على رأس الشارع... يتصدران جموع الأهالي ممن يرشدون المعزين من خارج الكَفر في طريق عودتهم من المقابر كي يتجنبوا دور الغرايبة، ولم يعلق... ناولته المرأة بعض الكحك قبل أن ترفع الصينية من جديد لتطوف بدور الغرايبة... يتلقاها رجالٌ يلبسون الثياب البيض بالطرقات الضيقة بين دور الغرايبة... يتناولون الكحك ويغتصبون ضحكة بموت الجابي من بين أنياب الذكريات... تتلقاها النسوة على مداخل الدور، يأخذن الكحك ويتبادلن الدموع على ذكرى من قضوا في الوباء.

نحى دياب الكحك... لو أن الجدة الكبيرة كانت حية لما شاركت المحتفلين بموت الجابي، ولم تكن لتبكي من فقدت من أولادها في الوباء... كانت ستخرج على مهل من مدخل الدار بانحناءة ظهرها المميزة... ربما كانت ستسب قلة حياء تلك المرأة وتبصق على رجلٍ من هنا أو هناك... كانت ستستقر على المصطبة وتنظر صوب المقام المهجور، وتحكي كعادتها قصة آل الجابي... ذلك الاسم العالق بالمقام

ـ قال إيه سموه الجابي علشان جاب جتة الوالي لاجل يعمل للكفر قيمة ويلاقوا ببركته العرق

تمط الجدة شفتيها بازدراء وهي تقول إن الجرابتية يحرفون التاريخ، ثم تشير إلى صدرها وتقول إن التاريخ يبقى مصونًا هنا... تقول الجدة إن لون الغرايبة قاتم بلون الظلم الذي قاسوه والحقائق التي يعلمونها وتبقى حبيسة الصدور... تقول إن اسم الجابي يرجع لجباية أعمار المقام التي فرضها ذلك اللص على أهل الكفر المعدمين، عندما فشل في تحصيل العطايا من المريدين الذين لم ينهمروا على المقام القبيح، الذي أسسه هو وعصابته.

لا يعلم دياب، ولم تخبره جدته لماذا عنّ تهافت المريدين على المقام... ولعل جد الجابي الأكبر فوجئ بدوره... فاضطر الرجل بعد أن أتم إعمار المقام، إلى التحول من لص موسمي إلى بلطجي دائم... تعددت الجبايات واتشحت بأسماء عديدة في حياته وحياة نسله... حتى الرضع لم ينجوا من جباية أسموها «بركة الخلفة»... ثم توحدت صفوف آل الجابي مع جماعة القص، فأسبغ كل طرف على الآخر صفات الشرف... لونوا التاريخ وفق أهوائهم، حتى نسي أهل الكفر أصل الاسم بعد أن تحشمت القوة العارية عبر الأجيال، واستتر النبوت تحت عباءة الوالي... وحدها الجبايات لم تتغير... يدفعها المسلمون لمولانا الجابي ويدفعها الأقباط للمقدس عبد ربه... لا أحد يتساءل عن جذورها أو جدواها... أصبحت شعيرة دينية... أصبحت واقعًا كهواء الكفر العطن يجب أن يتعايش معه ساكنوه.

ـ كحك يا دياب!

انتزعه من شروده استنكار الشحات الذي استقر بجواره على المصطبة

ـ افرض حد شافك من اللي شغالين في السرايا... إنت ناقص؟

ربت دياب على كتف صديقه ومد له يدًا بالكحك

ـ ماتقلقش، ماحدش منهم بيعتب هنا... كُل كُل

تردد الشحات قبل أن يتناول كحكة تناثر فتاتها من فمه وهو يسأل

ـ مش جاي العزا؟

ـ مايصحش حد من الغرايبة يروح عزا مولاك الجابي... بعدين ينجسه

لم يلتقط الشحات السخرية التي تقطر من كلمات دياب، وافترق الرفيقان على أن يلتقيا بعد العزاء.

فتش الشحات في جيوبه قبل أن يعرج على دار عمته عما يعينها على بخل زوجها... لم يجد بها إلا نصف فرنك وبضعة ملاليم... فقرر أن يعطيها كل ما في جيبه... مر في طريقه على الساحل بمجموعة من الصبية حول قطعة موحلة، يتبارون في صنع أحصنة وعرائس من الطين، وآخرين يتسلون بتعذيب ضفدع... ألقى الشحات نظرة خبير على الضفدع العجوز وارتفاع الصفيحة، وابتسم عندما أدرك أن الضفدع سيموت سلقًا.

كادت الفرحة تصرع عمة الشحات عندما رأته بمدخل الدار... أفلتت كل ما في يدها لتلتقطه في حضنها وتلثم خديه

ـ واللـه وحشتنا يا شحات... قاطع بينا فراقك يا ابني

قام زوج عمته على مهل وسلم على الشحات بفتور قبل أن تطل سعدية، ابنة عمته الكبرى، من غرفتها عندما سمعت صوته... ألقى الشحات عليها التحية وقال بعد أن جلس

ـ أمال فين بقية البنات

قاومت عمته دموعها وهي تشير إلى غرفتهم الفارغة

ـ راحوا يشتغلوا هم كمان... قالوا لي ف سرايا في المنيل... مافضلش غير سعدية

جلس الشحات لتناول الغداء بعد أن دس النقود خفية في يد عمته أسفل الطبلية... اغرورقت عيناها بالدموع على الفور، في شكر لا تعبر عنه الكلمات

ـ مالك يا ولية؟

هكذا زام زوج عمته بصوته العكر، فربتت عمته على ظهره وهي تقول

ـ ولا حاجة يا اخويا... أصله واحشني

لم تكف عمته عن الثرثرة بعد أن تمالكت نفسها، تحدثه تارة عن البنات، وتسأله تارة عن السراي، وتارة عن الجابي بك.

وضع زوج عمته لقمة غليظة في فمه وقال وهو يلوكها

ـ وانت بتتحصل على كام في السرايا دلوقتي يا شحات؟ أكيد لك مهية محترمة

لم ينظر الشحات إلى زوج عمته وهو يجيبه

ـ حتلاقيني باخد زي اعتماد وفتحية

ـ لا يا اخويا... البنات بيشتغلوا بلقمتهم والكسوة اللي بياخدوها... الرك والباقي عليك... هيه... ولا بلاش نزود في الكلام لا عمتك تاخد على خاطرها

تجاهل الشحات ابتسامة الرجل الساخرة التي تستنطقه... يريد أن يجره إلى الكلام كي يسهب في الحديث عن أفضاله عليه طوال وجوده في الدار... نظر الرجل إلى سعدية البايرة بعد أن مل الانتظار قبل أن يستطرد

ـ ومش ناوي تكمل نص دينك يا شحات... إنت بقيت راجل ملو هدومك... والجواز للي في سنك سترة... بعدين تطلع عليك سمعة بطالة

مجرد ذكر الزواج جعل الشحات يرى وجه صِبا... ومجرد تلميح زوج عمته جعله يستشعر عذوبة الموت غرقًا في الرياح المنوفي، إذا ما عنى الزواج الارتباط بسعدية الشمطاء

ـ لسه ماجاش النصيب

هكذا قال الشحات منهيًا الحديث، فبدت علامات الخيبة على الرجل وتمتم بكلمات مبهمة قبل أن يردف

ـ آه... وانت ناوي تبات ولا راجع على طول؟

حدجه الشحات بنظرة خاوية

ـ كلنا راجعين السرايا بعد العزا

(١٩)

شد العمدة على يد الجابي بك وأبدى عظيم الحزن على فقد الرجل الصالح، بعد أن ترجل عن مطيته... تظاهر بمسح دمعة لم تغادر مقلتيه الجافتين وهو يقول للواقفين إلى جواره

ـ يا سلام عليه... اللهم صلي على كامل النور... لو تشوفوه... وشه رجع شباب... والضحكه

كانت منورة... نور رباني

لم يلتفت الجابي بك إلى مباراة الحاضرين في مصمصة الشفاه... كم يمقت الكذب والأفاقين... رأى البك والده في أثناء الغُسل... وما رآه لم يكن تبسمًا... رأى شفتين شاحبتين كشفاه الخفافيش... وجهًا ساكنًا بلا حركة ولا لون... جلدًا أملط يدعو للتقزز... ورغم العطور التي أضافها المغسلون إلى الجثة العفنة التي تغذى عليها المرض، فإن رائحة الشيخوخة القابضة ظلت تفوح منها حتى ووريت الثرى.

لم يشارك البك في حمل نعش أبيه، ولو ترك له الأمر لبصق على قبره... وحدها الأعين تمنعه... ما زال سليمان الجابي يتذكر عندما ألقاه أبوه في دار الحجر رغم استجدائه... لا تزال الندوب التي خلفها التعذيب حاضرة في جسده لم تتمح... تركه الملعون متعمدًا مع الأفندي ورفاقه بعد أن أعلن توبته عن قولهم وتبرأ منهم، موقنًا بما سيفعلونه به... سبعة أيام كاملة تعرض فيها لعذاب السجين والسجان حتى سُمح له أخيرا بالخروج... سبعة أيام لم يذق فيها سليمان الجابي شيئًا إلا الألم حتى أدمنه... ولى عن الكَفر فور أن فُتح الباب ولم يعقب... ترك صعاليك الكَفر لأوهامهم وترك أصدقاءه القدامى لملاقاة مصيرهم... أدرك أخيرا كم كانوا سذجًا حينما ظنوا أنهم يستطيعون إصلاح شيء في كفرٍ اتخذ الجهل مدراسًا.

عبث نواح المعددة بأوتار أعصاب الجابي بك المشدودة وكاد يدفعه للجنون... استأجروا من تبكي المأفون بعد أن ضنت الأعين عليه بالدموع

ـ خليهم يخرسوا

هكذا قال الجابي بك فبُهت العمدة

ـ حلمك يا سعادة البيه... خليهم يقوموا بالواجب

الحلم سيد الأخلاق، هكذا يردد أهل الكَفر دومًا... لا يدرون أن الأخلاق التي يتفاخرون بها لم تُخلق إلا للعبيد... ضغط الجابي بك على حروفه وهو يكرر طلبه للمرة الثانية، فأشار العمدة لأحد عساكر الدرك المنتشرين في المندرة

ـ قوم فز يا وله خلي النسوان اللي بره يخرسوا... حيخرموا دماغنا

هكذا قال العمدة، ثم لم يلبث أن عاود استدعاء العسكري... راقبه الجابي بك وهو يتنحى به جانبًا... يخرج الحافظة الجلدية المربوطة في جيب الصديري... ثم يناوله سبع مليمات ليحضر له الدخان، و»لوازمه»...

ما زال العجوز إذن يدمن الحشيش.

مع اختفاء صراخ المعددات عم الصمت، فوضع البك طربوشه على الطاولة وجلس ريثما يُعد السرادق خارج المندرة ليتسع للمعزين... ترك العمدة يسهب في مديح أبيه وذكر محاسنه وراح يطالع الصحف... كان الخبر الرئيسي في جميع الصحف عن القبض على ثلاثة من الجواسيس الألمان في القاهرة... لكن ما استرعى انتباهه كان خبر نشرته مجلة اللطائف المصورة في صفحتها الثالثة... خبر عن حضور وزير الحقانية مع محافظ القاهرة مأدبة طعام، أقيمت لفقراء العاصمة في إحدى المدارس بالقصاصين... ارتسمت ابتسامة في ركن فم الجابي بك، وهو يطالع صورة الألفي باشا الذي يحاول أن يخفي تأففًا وهو يطعم طفلاً شبه عارٍ أرزًا باللحم، فيما تطلق أمه الزغاريد في الخلفية.

لا يحمل ذلك الأحمق المبتسم في الصورة من المؤهلات لملء مقعد وزارة الحقانية، غير اسم عائلة تنتسب إلى أحد بكوات المماليك، ومصاهرة أحد أقارب الملك من الدرجة الثانية... جاء محملاً بالعبارات الجوفاء عن العدالة العمياء والمساواة أمام القانون وتطهير الوزارات من الفساد... كان هو

أول من بدأ به الأحمق... لا يدري كيف واتته الجرأة على عزله... كيف واتته الوقاحة لتحديد إقامته في السراي؟

العدالة... التطهير... المساوة... القانون...

سحقًا...

أخذ الجابي بك يراقب المارة أمام المندرة، راكبي الحمير منهم والمترجلين... مجموعات من النمل المذعور في حاجة ماسة إلى النظام... تنتظر من يسيطر عليهم ويدعوهم نحو وجهة ما كي يجدوا لحياتهم البائسة معنًا... رأى الجابي بك في حياته أسوأ ما في البشر، حتى زال عنه وهم إمكانية إصلاح هذا الجنس العفن... القوة هي القانون الوحيد الذي يحكم الجميع مهما حاولوا تزيين تصرفاتهم بقشور المبادئ... الكل يتمسح في ثوب العدالة فقط إن كانت تخدم مقاصده... أما مقصد العدالة الوحيد فيجب أن يكون فرض النظام والحفاظ على مصالح السادة من الصعاليك والهمج... تعلم الجابي بك في هذا الكفر مبكرًا أنه في بلاد النيل إما أن تكون من سحرة فرعون وكهنته، وإما أن تكون من العبيد... لكن الوزير الساذج لا يدرك أن العدالة العمياء تقود البلاد إلى الهاوية.

ألقى الجابي بك المجلة على الطاولة وتناول الشاي، فتنحنح العمدة قبل أن يقول

ـ هو مافيش حد حيجي يعزي معاليك من الباشوات والأكابر

طالعه الجابي بك بنظرة خاوية، فازدرد العمدة ريقه وهو يستطرد

ـ أنا بسأل علشان نعمل التجهيزات يعني...

قالها العمدة بلهجة ذات مغزى وهو ينظر إلى الكونستبلات المحيطين به... أدرك الجابي بك أن اللعين يريد أن يخبره أنه يعلم بما أصابه... تسرب إلى الكفر خبر عزله في السراي رغم حبسه للخدم هناك... ولو أن هذا الجاهل يحسن قراءة الصحف لعلم بفتح التحقيق معه من جديد

ـ الباشاوات مايجوش كفر زي ده يا عمده... الباشاوات حيجوا يعزوا في السرايا

قالها البك باقتضاب بعد طول صمت... كم يكره الكذب... لكنه يضطر إليه

ـ أيوه صحيح... الأصول كده برضو

هكذا تمتم العمدة وعاود النظر أمامه في صمت.

تناول الجابي بك جريدة أخرى لمنع المزيد من الحديث... خلت جميع الصحف من التعازي كما توقع... لا رؤساء أحزاب، لا برلمانيين، لا حاشية القصر، لا أصدقاء... اختفى المتملقون... لم يكن البك مدهوشًا بقدر ما كان غاضبًا... كان يمني نفسه ألا يدعه الأصدقاء هكذا طويلاً... كان يوهم نفسه أنهم ينحنون للعاصفة ثم يعودون لالتقاطه... لكنهم لم يتفضلوا حتى بإهالة التراب على جثته بعد أن سقط... تركوه ليتعفن بينما يتأففون علانية من فساده ويحذرون أنفسهم من مغبة السقوط في مجالسهم الخاصة.

ظل الجابي بك على صمته... يحتفظ بوجةٍ مستقيم حتى انتهى العزاء... شد العمدة على يده أمام السيارة بعد تكوم الخدم في الشاحنة

ـ المصيبة كبيرة... بس انت مؤمن... وحسك في الدنيا

ود البك لو أنه حطم أسنان العمدة الصفراء المعوجة التي طالعته في ابتسامة مشجعة...

مؤمن!

هذه بدورها كذبة... الكل يعلم أنه لم يكن متدينًا يومًا في حياته... الكل يذكر خيبة والده العارمة عندما عاد صبيًا إلى الكفر متمردًا على تلقي العلم في الجامع الأحمدي بطنطا، بعد أن فاخر أبوه بنذره للقرآن... لكن لا أحد يعلم أنه فقد إيمانه كليًّا... فقده في دار الحجْر... ترك سليمان الجابي الإيمان لأهل الكَفر يوم رحل عنه... فلينعموا بأحلام الجنة وأحلام عِرق الذهب وليتركوا الدنيا له لينعم بها... لكنه اكتفى بقوله

ـ ونعم باللـه يا حاج أحمد

(٢٠)

انبطحت صِبا مع خدم المطبخ أرضًا ذلك الصباح عندما رج دوي رصاصة جديدة أرجاء السراي... أسقطت في طريقها بعض صحونٍ كانت تجففها... ازدادت وتيرة إطلاق الرصاص منذ عودة الجابي بك من الكفر، حتى لم يعد يمرّ يوم دون أن يقتل جوادًا... يتهامس الخدم بقرب خلو الإسطبل من خيل الحرب... كما يتهامسون عن لوثة أصابت سيدهم.

جاء الخواجة مثقلاً على صدى تهشم الصحون، طالعهم في صمت حتى قالت أم الخير

ـ اتزفلطوا من إيدي وانا باغسلهم

لم يبد أن الخواجة سمعها وهو يدون شيئًا ما في دفتره الرمادي، فراحت صبا تجمع الشظايا... تحاول إخفاء ارتعاش يدها... يصرخ داخلها ذلك الهاجس اللعين الذي يحمل صوت جدتها... «ولا عمرك حتفلحي في الخدمة»... لم تكف يدها عن الارتعاش إلا عندما مالت عليها أم الخير وقالت

ـ خدوا الشر وراحوا يا ضناي

ابتسمت وهي تناول صبا مقشة عتيقة، ثم ربتت عليها وهي تقول

ـ حاسبي على إيدك

على عكس البك، لسبب ما صارت أم الخير رائقة بعد عودتها من الكفر... وإن بقيت مسحة الحزن لا تبرح عينيها... تبقى حاضرة حتى عندما يضيء وجهها بابتسامة عابرة... ما أن رحل الخواجة حتى شرعت أم الخير تقول إنها لا تزال تتذكر أحد أطفال الكفر يلعب في حوش دارها... يغافلها ويسرق قطعة من الجبن مع سيد ابنها قبل أن يعدو في الشارع عاري المؤخّرة... لكنها لم تتخيل أن يكبر ذلك الطفل ليصبح أحد البكوات ممن يطلقون الرصاص على الخيل.

أطلقت النسوة شهقات الدهشة فارتسمت ابتسامة على محيا أم الخير... سألتها إحداهن إن كانت مؤخرة البك تشبه مؤخرات البشر... قالتها بتلقائية وفضول حقيقي فلم تتمالك صِبا نفسها... جلجلت ضحكتها الحرة في أرجاء المطبخ فشاركتها النسوة الضحك

ـ اللهم اجعله خير

هكذا راحت أم الخير تتمتم وأحجمت عن السخرية... كي لا يعم الخراب.

هدأ الضحك وعادت النسوة لتبادل أطراف النميمة... والنميمة مؤخرًا لا تخلو عادة من ذكر فضيلة... قالت توحيدة الأرملة بعد أن انتهت من موجة سعال عنيفة إن النسوة يتهامسن بعبث فضيلة... حتى صارت تتعجب كيف لم يصل الخبر إلى القصبي

ـ حرام عليهم... دي مسكينة... القصبي مبهدلها

هكذا قالت صبا... أنهت أم الخير غسل الصحون وناولتها لصِبا كي تجففهم ثم جلست على الطاولة قبل أن تقول

- النسوان ما بيصدقوا يلاقوا جنازة ويشبعوا فيها لطم... الواحدة منهم عندها فضايح تسد عين الشمس، لكن ميحلالهاش إلا الكلام عن فضايح غيرها... سيبك يا توحيدة من كلامهم والتفتي لصحتك... السجاير حرقت صدرك

ارتفع في تلك اللحظة صوت هدير الطائرات تشق السماء، فجثت صِبا بحركة تلقائية على ركبتيها... أعقبها صوت تهشم الصحون من جديد، يخترق سكون السراي ككقنبلة... عاونتها أم الخير في إزالة بقايا الصحون التي تهشمت وهي تحوقل

- إيه اللي صابنا يا رب؟ اللهم اجعله خير

انتظرت صِبا مجيء الخواجة... لكنه لم يأت... ظهر بدلاً منه الشحات، ووقف يتنحنح لدى الباب... لم يرفع نظره عن الأرض وهو يقول إن البك يأمر بصعودها لتنظيف غرفة نومه... مادت بصبا الدنيا... ظنت لوهلة أنها أخطأت سماع اسمها، لكن نظرات النسوة التي تركزت عليها جعلتها تدرك أنها لم تخطئ... أرادت أن تكذب قلبها الذي يعرف معنى صعودها إلى تلك الغرفة... لكن وجه أم الخير الممتقع أكد لصبا ما تعلمه... خرجت منها همهمة مبهمة تحمل مرارة الآتي وهي تسأل لم هي، وأين عبدون... تحاشى الجميع التقاء الأعين وجاوبها صمت ثقيل، فيما وقفت أم الخير بباب المطبخ، تستند إلى إطاره كي لا تطيح.

جففت صبا يديها وعدلت من هندامها دون أن تكرر السؤال... تترد أسئلة جديدة في ذهنها في أثناء صعودها الدرج... لِمَ تنصاع لأمر البك بهذه السهولة! أين ذهبت صلابتك يا صبا؟

لا بد أنها سألت نفسها ذلك السؤال ألف مرة وهي تقترب من السلم كأنها منزوعة الإرادة... بلا إجابة... أهي الأيام التي قضتها في السوكاندو؟ هل انتقل تسليم الخدم لها كالعدوى لمجرد مجاورتهم؟ أم أن صفات الخدم التي ورثتها جيلاً بعد جيل ظهرت عليها أخيرا؟ هل جدتها راضية عنها الآن وهي تصعد إلى غرفة البك كخادمة طيعة؟

شعرت صبا بقدميها تغوصان في سجاد السُلّم القاني... تخونانها كلما اقتربت من ذلك التمثال ذي الوجه المشوة... الغرفة التي سمعت عنها كثيرًا تناديها... تريد أن تبتلعها كما ابتلعت الكثيرات من قبلها... لو أن صبا تعلم ما ينتظرها لما خشيت... كل الفتيات اللائي صعدن إلى تلك الغرفة هبطن صامتات... لا تدري ما الذي فعلنه أو فُعل بهن... تتذكر حديث فضيلة عن أنين تسمعه في موقع معلوم من البهو بعد أن تُغلق تلك الغرفة على إحدى الفتيات... أسمته فضيلة أنين السراي... لأن ذلك الأنين لم يكن أنينًا أنثويًا... كان عواء ذكريًا...

لكنها ليست كمن سبقنها...

هكذا راحت صبا تحدث نفسها... لكن المسخ الذي يحرس الغرفة أخذ يطالعها... ينبئها أنها لا تختلف عن الفتيات التي شاهدهن يدخلن من قبلها... تتضح ملامح وجهه البشعة كلما اقتربت منه... فتتسرب من صبا شجاعتها المصطنعة.

كانت الغرفة تسبح في إضاءة خجلة بفعل الستائر المخملية المسدلة... لا تشي ألوانها المتناسقة والفخامة التي تصرخ من كل قطع الأثاث بالأهوال التي سمعتها عنها... تفوح منها رائحة عطور رشت حديثًا، لم تنجح في إخفاء رائحة الهواء العطن من طول غلق الغرفة... سمعت صبا خزات المياه وهي تتساقط على جسد الجابي بك في الحمام... الأطباق على الطاولة تشير إلى أنه التقط بعضًا من طعام حمله عبدون إليه... كان عليها أن تنظف الغرفة قبل أن يفرغ من حمامه... لا تعرف صبا

على وجه اليقين ما ينتظرها، لكنها تعرف أنه كريه... سارعت بسحب الملاءات القديمة... جمعت بقايا الطعام... نفضت مطفأة السجائر وحملت زجاجات الخمر الفارغة... كانت تسابق الوقت... تريد أن تنتهي قبل أن يفرغ البك من استحمامه... يحدوها الأمل أن تنجو... لكنها كانت تدرك في أعماقها أن القدر لو أراد أن يلطف بها لما أرسلها إلى هنا من البداية.

كاد قلب صبا يتوقف مع توقف خرير الماء في الحمام... خرج الجابي بك يرتدي روب دي شامبر حريري، كذلك الذي رأته به يوم دخل عليهم الشرفة... استلقى على السرير، وأمرها بجلب مائدة الطعام... كانت حذرة... تكاد تهلك من فرط الرعب... وضعت صبا الطعام على فراش البك، فغزا أنفها شذا عطره الذي ارتبط في ذهنها بالرهبة... كل شيء يتغير بحضوره... حتى الأثاث الذي بدا مستكينًا منذ لحظات، أكسبه حضور صاحبه سطوة طاغية

ـ إنتي قلتي لي اسمك إيه؟

زاد ارتعاش صبا... سمعت الكثير من الحكاوي عن اغتصاب بعض العاملات من أسيادهن... هل كانوا يسألون عن أسمائهن!

ـ صِبا يا سيدي

كرهت صوتها عندما سمعت لفظ «سيدي» يخرج من بين شفتيها... ابتسم من صار سيدها وقال

ـ تعرفي حكاية النبي سليمان يا صبا؟

ارتبكت صبا وتداخلت قصص الأنبياء جميعا في عقلها الذي كف عن العمل... كان لسماع اسمها بصوت الجابي بك وقع غريب... لم تدر بم تجيب فاكتفت بالصمت... التقط البك علبة سجائره وأشعل النار في إحداها

ـ أمي كانت بتحكيها لي كل ليلة... علشان انا كمان اسمي سليمان... قصة ملك من ملوك زمان... ملك الدنيا كلها... سخر الجن والريح... كل حاجة كانت ملك يمينه

لمحت صبا شعلة سيجارته تومض وتخبو عدة مرات قبل أن يستطرد

ـ هاتي الصنية اللي هناك دي

أخرجت صِبا ما بدا لها صحنًا فضيًا عريضًا، تراص عليه سوط، وعصًا غليظة وأدوات أخرى لم تعرف لها أسماء، لكنها أدركت أنها أدوات تعذيب... أمرها البك أن تنظفها وأن ترفع كل أداة ليتأكد من نظافتها بنفسه... حاولت التماسك فيما راح الجابي بك يكمل قصة النبي الملك... قال البك إن النبي دعى إلهه كي يرزقه العدل والحكمة... صفتان لا بد أن تجتمعا في كل قاضٍ... لأن العدل بلا حكمة خراب... قال إن التلمود والتوراة تحدثا عن قصوره وجواريه

ـ التوراة بتقول إنه كان عنده ٧٠٠ زوجة و٣٠٠ وصيفة... كان منهم مصريات... ده غير قصة ملكة سبأ

تنهد البك وهو يقول إن نهاية مجد النبي كانت بفعل مجموعة من النمل أكلت عصاه التي يستند عليها... فتمرد الجن عندما اكتشفوا موته... وضاع المُلك.

سحق الجابي بك سيجارته بهدوء، واقترب منها وهي تنظف الأدوات... حتى شعرت بأنفاسه تلفح عنقها من الخلف

ـ أنا كمان كنت ملك... لحد ما شوية نمل حبسوني في السرايا... ودلوقتي عايزين ينتقموا مني

رائحة التبغ الثقيلة تجثم على روحها... آن أوان الهرب... لكن قدميها لا تطيعانها... أخذ حمل

صبا يرتعش في يدها وشعرت أنها على وشك النفوق... تضاعف جزعها عندما قبض البك على يدها وهي تمسك بالعصا الغليظة... اعتصر قبضتها طويلاً قبل أن يزيح العصا من يدها... أجبرها على إمساك السوط... أصبح أخذ الأنفاس عملاً شاقًا... غمرها العرق كأنما حطت ألف شمس لافحة فوق رأسها

ـ حاسة بالقوة لما يكون الكورباج في إيديك؟

لم تكن صبا تشعر بالقوة... كانت تشعر بالحياة تنساب من جسدها... روحها تغادرها وتنظر إليها من العلياء... ترى تلك الفتاة العاجزة... يحركها سيدها كدمية بلا أرادة... ترى الجابي بك يحرك يدها ويضرب بها الفراغ... تتسارع الضربات وتزداد قوتها حتى زمجر السوط في الهواء... يئن الجابي بك مع فحيح السوط كحية رقطاء... أنين ميزت فيه صبا صوت النشوة... ارتعش جسدها بالكامل عندما همس البك في أذنها بأنه يريدها أن تسدي له خدمة جليلة الليلة... تسمع صوته مختلطًا بصوت عبدون يقول ذات ليلة بمقدمته التي لا تتغير، «بيقول لك»، إن البك قبل أن يُعزل كان يستقدم عاهرة أجنبية تخصصت في تلبية رغبات الباشوات الشاذة.

سمعت صبا الجابي بك يهمس بأنه يمقت من اخترع الملابس... قالها وأفلت الروب من على جسده فسقط عند قدميها... قال إن الملابس تجعل البشر يختبئون من كل ما يذكرهم بحيوانيتهم... يتخفون خلف أقنعة من المناصب والكراسي والبذات والفساتين المبهرة التي تجعل منهم آلهة، حتى نسوا أنهم مجرد حيوانات... جعلوا النوم عورة والجنس عورة والألم عورة والمرض عورة... لكن الحياة لا تستقيم هكذا... لأنهم ليسوا بآلهة... هم مجرد حيوانات ضالة بائسة... كلنا عبيد، في حلقات مختلفة... أصفاد من ذهب وأصفاد من حديد... وكلما ترقى العبد حن إلى ماضيه وأصله... قال إنه يريد منها أن تساعده الليلة على التعري من تلك الأقنعة الزائفة كي يسترد نفسه.

تدافعت الدموع من عيني صبا... تكوي وجنتيها... عاجزة... مشلولة... بنصف وعي تدرك ما يجري حولها... بنصف وعي ترى جسد البك العاري يتكور عند قدميها... نصف وعي لم يسعفها بما يجب فعله للخلاص... ودت لو أنها ماتت... لو أنها لم تولد... ودت لو أنها تصرخ باسم أم الخير... تغوص في حضنها وتبكي... لكنها كانت وحيده... مع سيدها الذي ركع تحتها وصرخ كي تُعمل به سوطها... فأطاعت.

عند قدميها، كان البك في عالم آخر... كان بحاجة لأن يُخرج ما يعتمل بداخله... كان عليه أن يصرخ وإلا مات قهرًا... لا بد له أن يتطهر... أن يشعر بدونيته... أن يستمتع بوجود سيدة يتبادل معها الأدوار، لليلة... تقهره، فيصرخ ألمًا... هوى السوط... فامتصت جدران السراي عويل البك... اجتاحته النشوة وتغلغل الخدر في أوصاله... تزيده سيدته من العذاب مع كل ضربة على ظهره العاري... تزيده من الجمال... من التحرر... حتى لم يعد يتبقى من عالمه غير مزيج خاص من النشوة والألم... الألم الذي لا بد أن يُعبد... ينهال عليه السوط... ينهل من لحمه... يعوي... يغيب عن الدنيا... يتوه في ملكوت الألم... يغرق في مملكة الظلام... بعيدًا عن مشكلاته... يلامس دونيته... يغيب الغد القادم له بالسجن... لا يبقى إلا اللحظة التي يعيشها الآن... يصرخ... يبكي دموعًا اختلط ملحها بحلاوة النشوة في مزيج لا يفهمه إلا هو... تعود له أيام العزل في دار فتحي عسكر... مع صديقه الأفندي... يبكي... يصرخ بآدميته... بحيوانيته... يتحرر... فيصرخ طالبًا المزيد.

فوقه وقفت صِبا ترتعش... غارقة في عرقها... تغمض عينيها حتى لا تراه... تضرب بالسوط حتى لم تعد يدها تطاوعها على الاستمرار في ذلك الجنون... حانت منها التفاته نحو فراش البك الفسيح... تدرك ما ينتظرها إن هي لبثت هنا حتى ينتشي البك... تزادد الغرفة ضيقًا... تعتصرها،

حتى لم تعد قادرة على التنفس... توقفت... سمعته يتضرع من أجل ضربة تالية... لكنها ركضت...

أرادت أن تهرب إلى رحابة المطبخ... إلى أم الخير... إلى دياب... سمعت الصراخ يطاردها... يتحول إلى عواء غاضب مجنون... عواء حيوان نزعت منه الحياة.

لم تبلغ صبا المطبخ... سقطت عند نهاية الدرج... وعندها فقط أدركت أن البك يطاردها... قامت تركض من جديد... ألقت السوط الذي كانت لا تزال تحمله كالملسوعة... صرخت... رأت توحيدة تأتي مهرولة بين النسوة من المطبخ على أثر الجلبة... رأت أم الخير تحاول أن تلحق بها قبل أن يبلغها الجابي بك... تريد أن تسحبها بعيدًا عن يده... إلا أنها لم تدركها في الوقت المناسب... التنفس ذاته توقف مع هدير صوت الجابي بك خلفها

- وقفوا القحبة دي

تلاه صوت صفعة رددت أصداءها أرجاء السراي... صفعة شعرت بها صبا تزلزل كيانها... صرخ الطنين في أذنها كإسرافيل ينفخ في بوق الفناء وهي تهوي إلى الأرض... زاغت الرؤية... تسارعت دقات القلب... حاولت النهوض فركلها البك... تسمع أنفاسها المتسارعة في السكون بين صرخات البك التي راحت تزداد بعدًا... أنفاس بعيدة تستحيل إلى حشرجة كلما حاولت أخذ النفس بين الركلات... تسمع الخواجة يقول بضعف

- بص في الأرض منك لها

رأت نظر الشحات يسقط إلى قدميه... رأت فضيلة تنظر إليها في جزع قبل أن تندفع قدم الجابي بك إلى وجهها... انفجرت ألوان وخطوط بيضاء في مقلتيها وترجرج عقلها... وحين استطاعت صبا التمييز من جديد أبصرت طابور الخدم الذين لم يرفعوا عينًا عندما أتتها الركلة الثانية... والثالثة... وحدها أم الخير ظلت تنظر إليها... لا تفارقها عيناها... تطمئنها بين الركلة والأخرى.

تكورت صبا لتحاول حماية وجهها... سمعت صوت تهشم شيء في صدرها... شعرت بدفء دمائها السائلة من جراحها... أصبح أخذ الأنفاس عذابًا مع أنين ضلوعها تحت وقع الركلات... يزيد من ألمها أنها لا تتوقع أن يدفع أي من أصدقائها عنها الأذى... ترى شفاه أم الخير تتحرك، لكنها لم تعد تسمع إلا أنينها المكتوم مخلوطًا بصوت ركلات البك، التي تتعمد أن تجد وجهها... إلى أن تورمت عيناها أخيرا ولم تعد ترى إلا الظلام.

أدركت صِبا أن البك توقف عن ضربها عندما شعرت بعد وهلة بأيادٍ عديدة تتعاون على حملها... تمنت للحظة أن تكون يد دياب بينهم، تمسد جراحها... لكنها سرعان ما حمدت الله أنه خارج السراي... لا تريد له أن يراها هكذا... أطلقت لدموعها العنان... ضُربت صِبا من قبل... ربما بعنف أشد من هذا... لكنها كانت دومًا ما تقاتل لترد الصاع صاعين... أما هذه المرة فقد اكتفت بالتكور... ضربها من لا يتوقع منها ردًا أو دفاعًا... ضربها من يرى لنفسه حقًا في أن يؤذيها ويفتك بها دون أن تعكر صفوه بأنينها... بكت لأنها هُزمت... تركته يضربها لأنها أصبحت أخيرا، خادمة.

(٢١)

أسوأ ساعات السوكاندو هي تلك الساعة التي تتلو العشاء، حين يصطف كل العاملين في السراي أمام الكنيف في نفس الوقت... يعلو الصياح ويهتاج الخدم، فيما يحاول كل منهم السيطرة على أمعائه التي تئن بحملها... يصرخ الجمع في تعيس الحظ القابع خلف الستار كي يهم بالخروج...

لم تكن تلك حال السوكاندو بعد العشاء تلك الليلة... خيم صمت خسيس على الخدم في طابور الكنيف... لا يقطعه إلا صياح الخواجة والرجال المتجمعين حول دياب كي يكف عن جنونه...

يسمعونه يرغي ويزبد

- واللـه لاقتل ابن الجابي بإيدي

تمتقع وجوه الخدم... ويعلو صياح نعيم عسكر المحتج على جنون ابن الغرايبة

- إيه اللي بينك وبينها علشان تتحمق قوي كده؟

يتعالى السباب، فينهر الخواجة نعيم تارة وينهر دياب تارة أخرى... فلا يفلح إلا في زيادة هياج الشابين.

يتحرك طابور الكنيف بمن لا يشاركون في العراك... فيتحاشى الخدم النظر إلى ركن السوكاندو، حيث تداوي أم الخير وجه صِبا الذي أصبح عجينًا من لحم ودم بلا ملامح... يتحركون في صمت كأجولة تُركل كلما تحرك الطابور... لا أحد يريد أن يكون أول من يتحدث... لا أحد يجرؤ على السؤال إلا همسًا فتأتي الإجابات همسًا هي الأخرى.

لم تكن صِبا أول فتاة تعود من غرفة البك تحت أنظارهم... طالما اعتاد السوكاندو أن يدعي العمى والصمم حين يضطر إلى ذلك كي يتعايش مع واقعه... يرفض الخدم أن يعلموا ما يحدث في تلك الغرفة... يسارعون بنبذ الفتاة ويصمونها بالعار حتى تصمت... والقليلات اللائي تجرأن على الحديث، قابلن آذانًا صماء حتى رحلن مع الكونستبلات في ستر الليل، بعد أن يكتشف الخدم كما العادة مسروقات في فراش من رفضن الصمت... يعود بعد رحيلهن الهدوء المحبب ليغلف السوكاندو... لكن ما حدث في السراي ذلك اليوم فاق الحد... لم يسبق أن عادت فتاة مشوهة من قبل كما عادت صِبا... لم يحدث أن سمع الخدم من قبل أن الجابي بك شوهد شبه عارٍ يهرول وراء خادمة في بهو السراي.

انزوى الرجال في جحورهم بعد قضاء حاجاتهم... فأسرعت الخادمات في تكوين صفهن... اتخذت فضيلة موقعها بين النسوة، يتحرك الصف فتتحرك معه في وجوم... حتى حان دورها... أسدلت الستارة عليها واحتملت الرائحة الخانقة في الكنيف... تسمع ذلك الصوت الكريه يطاردها كاللعنة... لم يكن صوت نميمة النسوة، ولا صوت عراك الرجال... بل صوت شيطان يهمس في أذنها

«يا زانية»

همس ضعيف، لكنه يتردد في عقل فضيلة كقرع الطبول... تسد أذنيها وتبكي، فيزداد وضوحًا... يدفعها الهمس إلى حافة الجنون... لم ينفع مع ذلك الهمس اللعين التجاهل أو التعوذ من الشيطان... لم تشفع لها عنده جميع المبررات التي ساقتها فضيلة من تجاهل زوجها وحرمانها الجسدي... لا ينجح في إخماده غير شيء واحد... أخرجت فضيلة من جيبها موسى الحلاقة، وبحركة خبيرة، جرحت ساعدها... بدقة... شرط دقيق يكفي لأن يفجر الألم، ولا ينزف كثيرًا... راقبت فضيلة الأقدام الظاهرة خلف الستار، وانتظرت وهلة قبل أن تعدل من سروالها وتسدل جلبابها... وتخرج.

قبعت فضيلة في ركنها المعتاد... أغمضت عينيها وعضت على شفتها السفلى... تستشعر ألم ساعدها... تضغط عليه كلما سكن... ومع الألم يبتعد عنها أنين صبا... يبتعد صياح دياب حتى يكاد يخبو... والأهم أن همس الشيطان الذي يوسوس لها أنها زانية منبوذة، يبتعد... تزيد من الضغط... يصرخ الألم... فتغيب عن الدنيا... ولا يبقى إلا شعور بسعادة آثمة كلما طالعت فضيلة تجمع النسوة حول فراش أم زكي يتهامسن على صبا... لم تعد سيرتها هي مسار أحاديثهن في جلسات النميمة... لم تعد هي هدف نظراتهن الغائرة... صارت هناك ذبيحة جديدة تلتف حولها العقبان، إلى حين... جلست فضيلة تستمتع بخدر الألم حتى انتبهت إلى إحداهن تقترب منها... تدعوها إلى سرير النميمة، لتقص على النسوة ما رأت.

راحت معها فضيلة... تطالعها عيون يقتلها الفضول... ترمقها أم زكي بنظرة متشككة... تعلم فضيلة أن العجوز تخشى أن تقول ما لا يجب أن يقال، فتحسست كلامها

ـ أنا كنت بانضّف البيانو ساعة ما سمعت دربكة جاية من ناحية أوضة البيه... طلعت اجري ناحية السلم، لاقيتها واقعة على الأرض والبيه بيجري وراها

ـ يبقى اللي جرالها ده من وقعة السلم

هكذا قالت أم زكي فترددت فضيلة... كانت أعين النسوة تدلها عما يردن سماعه، فاكتفت بهز رأسها بالإيجاب فيما صاحت توحيدة من فراشها

ـ وقعة السلم برضو يا سوكاندو نجس؟

لم تعرها النسوة اهتماما... فيما قالت أخرى

ـ صحيح اللي بيتقال؟ إنه البيه كان...

فهمت فضيلة ما أرادت أن تقوله دون أن تكمل... تضرج وجهها بحمرة الارتباك، لا تدري فضيلة كيف تنفي أنها رأت سيدها شبه عارٍ

ـ ماشفتش البيه... سمعت صوته وهو بيزعق بس... مايصحش عيني تترفع في وجوده

ظهرت علامات الاستحسان على وجه أم زكي... فقالت إحداهن

ـ تستاهل... هي مرقة من يومها

ـ بيقول لك كسرت نص أطباق المطبخ من ساعة ما جت

هكذا قالت أخرى فسارعت فضيلة بقولها

ـ آه... أنا دايما بسمع صوت تكسير اطباق من المطبخ

الغريب أنها كلما تمادت في الكذب، صار الكذب أسهل... تشجعها ابتسامات القبول في وجوه النسوة... وبالتدريج زال شعور فضيلة بالإثم... صِبا راحلة راحلة... لن تزيدها كذبتها البيضاء ضيرًا في الأيام القليلة الباقية لها في السوكاندو... أما فضيلة، فعليها التعايش مع العقبان

ـ حاولي تبعدي عنها يا فضيلة... دي بت مشيها بطال

كان ذلك أقصى ما تصبو إليه فضيلة... أن تصبح منهن... أن يثنينها عن الخروج خارج القطيع لتنعم بالدفء بينهن... وفضيلة تتوق للدفء

ـ كانت عايقة قوي... آدي آخرة المسخرة وقلة الحيا

هكذا قالت فضيلة بازدراء.

لم تكن سيرة صبا حكرًا على النسوة... ففي عمق السوكاندو انتحى مرعي عسكر بالكفراوية، يتداولون همسًا في حلقته الحديث عن ميوعة صِبا وسوء خلقها... يقلبون شفاههم في ازدراء وهم يذكرون تراقصها في السوكاندو أمام الرجال بلا حياء... يروي لهم نعيم عن التصاقها بابن الغرايبة القبطي قبل أن ينعتها بالفاسقة التي باعت دينها.

انفصل عبدون عن تلك الحلقة، وعاد إلى حيث يقف دياب... بهدوء حاول أن يخبره أن ثورته تؤذي صِبا أكثر مما تنفعها... الكفراوية يتداولون أخبار علاقة محرمة بينهما... زاد ارتعاش يدي دياب من فرط الغضب، لم يكن بحاجة ليسأل من الذي يبث تلك السموم... يعلمه... يشم ريحه النجسة

بين الكلمات... لم يستطع أحد أن يحول بين دياب وبين نعيم عسكر هذه المرة... على الأقل قبل أن يسيل دياب دم نعيم ويجعله يبتلع إحدى أسنانه.

تكاثر الرجال على دياب... يصيحون بموت ابن الحرام النجس... ضربهم دياب وضربوه... وبدا أن تلك الليلة لن تمر دون أن يأتي أحدهم على الآخر... يتكالبون عليه كلما دفع أحدهم... تخرج العصي وقضبان الحديد من حيث لا يدري... تنهال على كل شبر من جسده العملاق... حتى كادوا يأتون عليه بالفعل، لولا أن أخرجه الخواجة من تحت أيديهم إلى الحديقة، غارقًا في دمائه... قال له الخواجة

ـ اهدا... لو على صبا انا حخرجها... حاخدلها الإذن بكرة

ـ كنت أخدته لنفسك يا خواجة

قالها دياب ثائرًا فاحتقن وجه الخواجة وعجز عن النطق للحظة... قبل أن يشير إلى جثة الجواد الذي قتله الجابي بك بالصباح

ـ تدفنه بره السرايا لحد ما اشوف حل في الهم اللي جوه

هكذا قال الخواجة لدياب قبل أن يسارع بالعودة إلى السوكاندو لتهدئة الخدم... بلا جدوى.

ظل الخدم في انتظار إذن البك لصبا بالخروج طوال اليوم التالي، عل الهدوء يعود للسوكاندو برحيلها... لكن البك لم يبرح غرفته ذلك اليوم... ولا اليوم الذي تلاه... ما جعل الهمس ينمو في السوكاندو عما أصابه... يستحث الخدم عبدون كل ليلة أن يفتح الغرفة ليتأكد أن الجابي بك على ما يرام...

ـ مايصحش يا جدعان

يقولها عبدون ويوليهم طهره.

لا أحد يدرك كم يرهب عبدون تلك الغرفة... عمل الرجل في الكثير من السرايات، ورأى الكثير من المآسي والأهوال... لكن تبقى غرفة البك التي يحرسها ذلك التمثال المسخ تطارده في كوابيسه... قال له سيده حين أوكل إليه مهمة تنظيفها أنه موهوب في تنظيف الشراشف... لكن عبدون كان يدرك أن الموهبة المطلوبة هي الصمت... ينزع عبدون الشراشف الملوثة بالدماء المختلطه بالخمر والمني دون أن يتساءل عن مصدر تلك الدماء... بعين لا ترى وبيد لا تشعر يطهر عبدون عدة التعذيب ويعيد ترتيبها في الحقيبة الجلدية الأنيقة، ثم يخفيها في مكانها في خزانة الملابس دون أن يتساءل فيمَ استخدمت... يغض الطرف عن الشذوذ ويتجاهل الحقيقة التي تحدق في وجهه... والأهم أن يصمت على جلد الخدم للفتيات حين يهبطن إلى السوكاندو، حتى يأذن لهن سيده بالرحيل.

واظب عبدون على الصعود إلى غرفة البك... يطرق الباب ويعود أدراجه دون أن يدخل عندما يجيبه الصمت... حتى حل اليوم الثالث لاعتكاف الجابي بك... وقف عبدون مليًا أمام غرفة البك بعد أن طرق الباب عدة مرات بلا مجيب... كان يشعر أن مكروهًا أصاب سيده... لا يمكن أن يبقى البك كل تلك الأيام بلا طعام أو شراب... عاود الطرق وألصق أذنه بالباب... لا شيء... كاد عبدون يعود أدراجه كعادته... لكنً نازعًا ما جعله يرجع ويفتح الباب بلا إذن

ـ صباح الخير يا سعادة البيه

قالها العجوز النوبي بصوت وجل فجاوبه الصمت... تقدم بضع خطوات... يتحسس طريقه في الغرفة المظلمة... يتوقع أن تأتيه رائحة نتنه، تشي بموت سيده... يتوقع أن يصرخ به الرجل إن كان حيًا يرزق... توقع عبدون كل شيء وأي شيء، إلا ما وجده...

سقط عبدون على أقرب كرسي... تدور عيناه في أرجاء الغرفة الخالية... يحاول أن يستحث عقله الذي كف عن العمل... ليجيب على التساؤل الوحيد الذي لم يستطع كتمانه...

أين ذهب سيده!

الجزء الثاني

«لا تلبث أن توطّن نفسك على أصفاد العبودية، حتى تعد أطرافك طواعية للتقيد بها»

إبراهام لينكولن

(١)

لم يعد يمر يوم دون أن ينشب عراك بين نساء السوكاندو... يبدأ عادة عندما تسمع توحيدة أنين صِبا... يعبث ألم تلك الفتاة وما آلت إليه أحوالها بأعصاب الأرملة العجوز... يشعرها بقدر حقارة الزمان والمكان... بقدر حقارتهم...

بقدر حقارتها...

تجلس توحيدة إلى جوارها... مشلولة... تمامًا كما وقفت منذ بضعة أيام عاجزة عن درء الظلم عنها... تربت الأرملة العجوز على صبا بعد أن تواتيها الشجاعة على لمسها... فتند عن المسكينة جفلة خفيفة، وتنظر إليها قبل أن تسارع بإخفاء وجهها... تهمس لها توحيدة كذبًا أن وجهها قد تحسن كثيرًا... فلا يجيبها إلا نحيب ضعيف، بالكاد تتبينه... تتركها لأم الخير التي تمسد شعر صبا وتقول

- الصبر يا بنتي... أول ما يطلع النهار حكلم عمك عبدون يطلع تاني يستأذن الجابي بيه... جايز يرد النهارده... الخواجة كمان عايز يمشي علشان يدور على ضناه، وبإذن المولى حتمشي معاه

كفكفت أم الخير دموعها وجعلت صبا تستلقي على فخذها... راحت تمسد شعرها وتعدها مرارًا أنها ستغادر هذا القبو عما قريب.

تركتهما توحيدة وقامت إلى النسوة اللاتي يتبادلن رخيص الكلام عن المسكينة... تغلي الدماء في عروقها فترفع صوتها كي تُسمع الجميع

- يا كبدي يا بنتي... بقيتي ملطشة للي يسوى واللي مايسواش... صدق المثل، القحبة تلهيك وتجيب اللي فيها فيك

تلقيها على آذان النسوة في ذهابها ورواحها بقرف... حتى ثارت ثائرة فضيلة بعد أن شعرت أن توحيدة تقصدها

- إنتي مالك ومالي يا ولية؟ مش مكفيكي انك رابطالي الراجل بأعمالك

شمرت توحيدة عن ساعدين نحيلين استعدادًا لشجار جديد... وما هي إلا لحظات حتى تعالى اللغط وتجمعت النسوة... كلٌ يتكتل في حزبه... حزب المطبخ وحزب عاملات النظافة... عشرات الأفواه تتكلم ولا أذن تصغي... وسرعان ما تستحيل الشتائم إلى شجار عظيم بين النسوة... تُشد فيه الشعور

وتُخمش الوجوه وتُعض الأيادي والأرداف... يستعر الشجار فيما يبقى الرجال يضربون كفًا بكف... يلعن بعضهم سوء خلق النسوة وضآلة عقولهن... والبعض يتفرج في استمتاع تام، كنعيم، الذي يصد كل من يحاول أن يفض العراك من الرجال

ـ تدخل بين النسوان... سفخص عليك نطع

هكذا يقول نعيم قبل أن يسارع بالعودة لفراشة كي لا يفوته شيء من تعري النسوة.

تابع مرعي عسكر العراك تلك الليلة بلا انتباه... ظل شاردًا حتى هبط عبدون إلى السوكاندو، فهرول واتخذ مكانه في الحلقة التي تكونت حوله... يحدوه الأمل أن يسمع ما يسره

ـ البيه رد عليك يا عبدون؟

طالعته الأعين عندما صمت لبرهة... مسح عبدون عرقًا أغرق وجهه وصلعته قبل أن يقول

ـ لا ماردش

شيء ما في تردد العجوز النوبي أقلق مرعي... فسأل بحرص

ـ طب فتحت الباب اتطمنت عليه؟

هز العجوز رأسه نفيًا فعلت الهمهمات وانفض الجمع من حوله... عاد البعض لمتابعة ما تبقى من عراك النسوة فيما حاول آخرون النوم وسط ذلك الصخب... أما مرعي فلم ينم ليلته تلك.

راقب مرعي عسكر العراك الذي أوشك على الانحسار من بعيد... كان يعلم أن الأمور ستزداد سوءًا بمضي الأيام... سيأكل الرعاع بعضهم البعض وسيتقاتلون في الغد في بهو السراي إن لم يكسر سيده اعتكافه في الغرفة ويظهر عليهم من جديد... مجرد غيابه يبعث ببوادر الفوضى بين الخدم... ثم أين الخواجة اللعين من كل ما يحدث؟ ألم يسأم بعد من ادِّعاء الغضب كالأطفال!

صباح اليوم التالي بدأت رياح الخماسين تهب على السراي، لتكسوها برداء أصفر كئيب... قبع مرعي في الإسطبل، يتجنب الاختلاط بالسواس أو الذهاب إلى السوكاندو... يتحرى الهدوء وسط العاصفة... حتى أتاه أحدهم ليخبره بحضور العربجية، فجر قدميه إلى البوابة... لم يكن يدري ما الذي أتى بهؤلاء الملاعين في هذه العاصفة، ولا كان يدري ما الذي يجب فعله معهم... دثر وجهه وجلس صامتًا بينهم حتى تململوا مع ارتقاء الشمس كبد السماء واشتداد الرياح... تتوتر أعصابه كلما سمع أحدهم يتساءل

ـ هو البيه مش حيشتري النهارده يا سي مرعي؟

ـ لو مش كده قل لنا نمشي بدل المرمطة دي

ظل مرعي على صمته حتى انفجر في الجميع أخيرا

ـ اللي مش عاجبه يستنى يغور في ستين داهية

جر بعضهم العربات ورحلوا في صمت هربًا من الرياح السموم التي كادت تأتي على الجياد... فيما بقى البعض الآخر يحدوه الأمل أن تتضاعف فرصته مع قلة المعروض... تجاهل مرعي همهمات من تبقى وأخذ يطالع الستائر المسدلة في الشرفة الكبيرة... يتردد داخله التساؤل... متى يظهر سيده.

كان آخر الراحلين عربجيًا قصيرًا ذا شعر أصفر منتوفًا كشوشة الذرة، يفخر أنه ورثه عن أحد الجنود الأتراك واقع جدته، حتى أسماه العربجية بالتركي... تأبط التركي طرف ثوبه بعد طول انتظار

وأعطى مرعي قطعة من الأفيون قبل أن يرحل... حملها مرعي وسارع بالعودة إلى الإسطبل... نفض عن نفسه الرمال العالقة ورقد فوق أجولة العليقة... دس قطعة الأفيون أسفل لسانه وحاول الاسترخاء... الإسطبل رطب كجنة في لسعة الظهيرة... حتى الخيل غلفها سكون القيلولة... تمدد مع سريان الأفيون في عروقه المتوترة... واسترخى.

لا يدري مرعي عسكر إن كان ما رآه بعد ذلك هو من خيالات الأفيون أم أنه غط في النوم... لكنه رأى مولانا الجابي، رحمة اللـه عليه، يأتيه على بغلة بيضاء بصحبه المقدس عبد ربه... كان المقدس على هيئته التي تركه عليها في الكَفر... عجوز بائس يعبث الهواء بالشعيرات التي تشبثت بها صلعته اللامعة... أما مولانا الجابي فقد كانت له هيئة نورانية... ارتد إليه شبابه وصار وجهه يشع نضارة... ينطق محياه بالبشر وهو يشير إليه كي يربط البغلة عند دار عمه، فتحي عسكر.

شكا له مرعي ضيق الحال وتعطل التجارة، فترجل مولانا الجابي من على بغلته واقترب منه بعرجته المميزة ثم ضربه على رأسه... تحسس مرعي موضع الضربة فيما أمره مولانا الجابي بصوته العميق بحفظ الأمانة في أثناء غيبة ابنه

ـ أمانة ايه يا ابا الحاج؟

زعق أحد المارة في بعض العيال يراهنون على موت الضفدع، ففروا لينسكب الماء المغلي على قدم مرعي ويشويها... عرج مرعي خلف المقدس ومولانا الجابي، يريد أن يلحقهما... يكرر سؤاله

ـ أمانة ايه يا ابا الحاج؟

ـ السرايا

لم يقلها مولانا الجابي ولم يكن المقدس هو القائل... الصوت كان صوت سيده... الجابي بك... يتردد في ثنايا عقله... تلجلج مرعي حتى وجد صوته

ـ أحميها من إيه ومن مين يا سيدنا؟

فتح مولانا الجابي فمه ليجيب... لكن المقدس رفع يديه بجوار أذنيه وراح يؤذن للفجر... تجمع الخدم للصلاة ففتح مولانا الجابي دار الحجر لهم كي يدخلوا، فيما قدمه المقدس ليؤمهم.

راقب مرعي المقدس من طاقة الدار بينما يصلي بالخدم... يراه يستوقف إحدى فتيات الغرايبة... فتاة لم تبلغ الخامسة عشرة من عمرها تتشح بالسواد... تبين مرعي عندما استدارت الفتاة وجه أخته... أم الشحات... اضطرب قلبه لكنه بقي ثابتًا في صلاته... رأى المقدس ينزل سلة البوص من فوق رأسها ويأخذ منها بيضًا أسود... تمغص بطن مرعي عندما رأى المقدس يلتهم البيضات السود، الواحدة تلو الأخرى... وكاد يفرغ ما في بطنه عندما فاحت رائحة فم المقدس الكريهة وهو يسلم عليه بعد أن ختم الصلاة... شد الكهل على يدِ مرعي وأشار للخدم بعينه... قال إن عليه أن يحميهم من الوباء الكامن فيهم... عليه أن يكون رجلاً وإلا انفرط العِقد.

بكى مرعي عسكر...

قال إنه لا يدري كيف يحفظ السراي ولا يدري كيف يحمي الخدم... ابتسم مولانا الجابي وسلمه مفاتيح دار الحجر... مفاتيح ثقيلة، كأنها تزن أطنانًا...

انكفأ مرعي بها أرضًا... وعندما قام كان المقدس يعاون مولانا الجابي على اعتلاء بغلته... هرول مرعي خلفه حتى كاد يدهس في طريقه الخدم الذين ما زالوا ساجدين رغم قيام الأمام... ركع مرعي على ركبتيه عندما لحق مولانا الجابي وراح يقبل قدمه... يرجوه أن يبقى... يرجوه أن يحفظ السراي كما حفظ الكفر من قبل... اكتفى مولانا الجابي بالربت على كتفه، فيما أخبره المقدس وهو يشد حبل

البغلة ليحدوها صوب الرشاح، أن عهده وعهد مولانا الجابي قد انقضى... والآتي هو بداية عهد جديد... عهد أولاد عسكر.

(٢)

صام عبدون عن الكلام منذ أن رأى غرفة البك الخالية... يأتيه الخدم ويذهبون حيث يقبع على فراشه في ركن السوكاندو، دون أن يستبقيهم ليحكي حكاية جديدة... ظل الرجل غارقًا في أفكاره... يبحث عن إجابة شافية للسؤال الذي يدور كالطاحونة في رأسه، حتى كاد يهلكه...

أين ذهب الجابي بك!

لو لم تكن أسوار السراي بهذا الارتفاع لقال إن سيده قفز من فوقها... لو لم تكن بوابة السراي مدججة بالكونستبلات لقال إنه هرب... وإن لم يكن قد هرب، فأين اختفى...

تتسارع الأفكار وتتزاحم حتى يُضرِب عقله عن العمل... يزفر عبدون نفسًا حارًا ويطالع الخدم الهانئين بغفلتهم حوله، ويتساءل... إلى متى سيظل يحمل ذلك السر التعيس على كاهله وحيدًا... والأهم، من سيحدد مصيره ومصيرهم من معه بعد غياب البك؟

استند عبدون إلى ساعده فأخذته سنة من النوم... لا يدري كم بقي شبه نائم، شبه ميت... لكنه استيقظ على جلبة بقرب الكنيف... لم يكن صوت عراك جديد بين النسوة... ميز في صوت الخدم حماسًا غادر السوكاندو هذه الأيام... اشرأب بعنقه حتى أبصر مرعي عسكر الذي راح يردد كالممسوس

ـ سيدي الجابي ناداني

قاتل عبدون حتى شق طريقه بين الأجساد إلى مركز الحلقة، حيث كان مرعي يكمل الرؤيا... قال إن مولانا الجابي بشره بالفرج وأمره بالصبر... وبعينين تكاد تدمعان من فرط التأثر، راح مرعي يمسك بكتف الخدم واحدًا تلو الآخر... يخبره أن فرج المولى قريب... وأنهم مكلفون بحماية السراي... أمسك بكتفي عبدون ونظر في عينيه مباشرة... هزه مرعي، فاهتز قلبه... قال له إن إذن البك بالخروج آتٍ... ذلك اليقين الذي يتكلم به مرعي أخرسه... ألجمه... وأصاب قلبه سهم الإيمان... حتى إنه نسي لوهلة أمر الغرفة الخاوية وانزاح عنه الهم الذي يملأ قلبه.

عندما انتهى مرعي من التبشير برؤياه جلس على طرف فراشه يلهث... كانت تلك هي أولى اللحظات التي شعر فيها ساكنو السوكاندو بالأمل منذ اعتكاف سيدهم في غرفته... راح أحد الكفراوية يتحدث عن كرامات آل الجابي منذ جدود الجدود... وعن إعمار الجابي الكبير لمقام سيدنا الوالي بالكفر... وآخر يتذكر أيام السراي العامرة قبل أن تهاجمها المصائب... فيما أول الشيخ جبريل ظهور مولانا الجابي بأنه بشارة بقرب ظهور براءة البك... فانتقل الحديث إلى عودة الأمور إلى نصابها القديم... ستعود الحفلات وزيارة الهوانم والبكوات إلى السراي... ستعود القبة المنيرة قبلة لكبار البلد... عّم الحبور وساد جو الاحتفال حتى قال الشيخ جبريل عندما تطايرت لأنفه رائحة التقلية

ـ يا ألطاف اللـه، هي الليلة ملوخية؟

وجد الخدم تلك الليلة لعشائهم طعمًا... قالت أم زكي على مائدة الطعام إنها موقنة أن أم كلثوم ستحيي الحفل الذي سيقام فور إعلان براءة سليمان بك الجابي.... فاندلع الجدل إن كانت أم كلثوم ستحي وحدها حفلاً بتلك الأهمية، أم سينضم إليها عبد الوهاب... هو الجنون بعينه... يدرك عبدون ذلك جيدًا... ولا بد أن بعض المتجادلين يدركون ذلك... لكن هذا الجنون صادف هوى في أنفسهم كما

صادف هوى في نفسه

ـ أراهن انه حياخد الباشوية

هكذا قالت أم زكي، فسارعت فضيلة بقولها

ـ أراهن انه حيبقى وزير الحربية

تعالت ضحكات النسوة، فصرخت فيهن أم الخير من وراء الخدر كي يصمتن

ـ فيه واحدة راقدة في وسطينا... خلّوا عند أهاليكم شوية حيا

وكاد عراك جديد ينشب.

أكل عبدون آخر لقمة في رغيفه، وعاد إلى فراشه... جلس العجوز النوبي يراقب الخدم الذين اضطجعوا في حلقات صغيرة، يتدارسون البشارة التي حملتها رؤيا مرعي عسكر... كل يفتي بتأويل أو يضيف تفصيلة تستحق التأمل... يغرق جسده في عرق بارد كلما حاول تصور ما يمكن أن يحدث إن علم هؤلاء أن سيدهم الذي ينتظرون براءته قد اختفى

ـ بهايم

جفل عبدون عندما قالها دياب، وأحس بدبيب الكآبة يعود من جديد إلى قلبه... طالعه عبدون لوهلة... تأمل شبابه وحداثة سنة... ماذا يعلم هذا الغر الساذج عن الدنيا... لن يفهم هذا الفتى الغض ما يعتمل في نفوس الخدم... هو حتى لا يدرك ما يعتمل في نفس من يحدثه... يفترض أنه غير راض عما يجري لمجرد اعتزاله الجمع... غبي... عبدون كالخدم، مجبول على الطاعة... يشعر بذاك التوتر كلما راودته فكرة الحياة خارج السراي بلا سيد... مجرد التفكير يجعله نزقًا

ـ خليك في حالك يا دياب... لو حد سمعك مش حيجرى لك طيب... وبعدين ايش فهمك انت في تفسير الأحلام... الرؤيا الصالحة مذكورة في القرآن، حرام تكدبها

طالعه دياب بشك... ولما أيقن أنه لا يمزح، مط شفتيه بامتعاض وعاد إلى فراشه.

في الصباح عرج عبدون على المطبخ... سأل عن توحيدة عندما لاحظ غيابها، فقالت النسوة إن مرض صدرها قد اشتد وتوعكت صحتها حتى لم تعد تقوى على الصعود... افتقد عبدون صخب الأرملة المهذارة وراح يدعو لها بالشفاء مع النسوة... اعتدل في جلسته مع انتهاء برنامج الأغاني وأشار للنسوة كي يصمتن... جلس عبدون لصق المذياع، يأمل خبرًا جديدًا يبعث به إلى أراضي الحكاوي... يعينه على نسج حكاية جديدة يلقيها على من يريد أن يسمع، علّه يستعيد بعضًا من سكينته المفقوده... رشف عبدون الشاي على مهل وهو ينصت... خرج الصوت من المذياع العجوز، يحكي عن ويلات الحرب المستعرة... عن غارات المحور التي تعصف بالقاهرة وتتوسع رقعتها كل يوم... ذكر المذيع شيئًا عن مقتل العشرات في غارة إيطالية بالأمس على المعادي، بالقرب من مسجد... أعقبها بحزمة من النصائح المكررة بوجوب طلاء النوافذ ومصابيح السيارات باللون الأزرق الداكن.

عندما هبط عبدون تلك الليلة إلى السوكاندو كان قد حاك قصة من وحي قصف المعادي... شيء ما عن شيخ قرر الركض وراء لص رآه يسرق حذاءه من أمام المسجد، فنجا من الدفن مع المصلين الذين وقع المسجد على رؤوسهم وساواهم بالأرض... ليصبح اللص والشيخ صديقين مقربين، يستضيفه الشيخ كل جمعة ويعتقد ببركته... لم تكن تفاصيل الحكاية قد اكتملت في ذهنه، لكن ذلك لم يشكل عائقًا لعبدون من قبل... ما أن يجلس إلى الجمع ويحكي حتى تحل عليه كل التفاصيل التي تنقصه.

هبط عبدون إلى السوكاندو منتشيًا لكنه لم يجد آذانًا صاغية لحكايته... تحلق الجميع حول مرعي عسكر... يراه يجلس في الجانب الآخر من السوكاندو بجلبابه القذر، يدهن ركبتيه الهرمتين بزيت

الكافور... ثم يكرر رؤياه للمرة المئة... لا يمل مرعي من التكرار ولا يمل الخدم من السماع... لم يتطلب الأمر مجهودًا لتضرب الرؤيا بجذورها في سوكاندو الخدم... نمت سريعًا لتصبح ديانة يتعلقون بها طالبين الهدى في ظلام الشكوك... يحتمون بها من خوفهم الفطري من العصيان... حتى حلقة النسوة الوحيدة التي لم تكن تستمع لمرعي لم تكن فيها من تريد أن تسمع حكايته... جلست النسوة بجوار توحيدة التي رفضت أن يقربها الشيخ جبريل ليطببها... تشير حولها وتقول بين أنفاس السجائر التي لم تهجرها رغم حشرجة أنفاسها

ـ إحنا صحيح عايشين في زريبة، بس انا مش بهيمة علشان يشوفني حكيم البهايم

مرت الليلة بطيئة على عبدون... وفي اليوم التالي قام بوجهٍ بقعه السهد وصعد من فوره إلى غرفة البك... كان نزق المزاج كعادته كلما فشل في إيجاد من يستمع إلى حكاياته... فراح ينظف... يشغل نفسه عن الفكر... ظل ينظف الغرفة ويهويها حتى زالت عنها روائح البراندي والسجائر التي كانت تغرق فيها... جلس بعدها على مقعد سيده... يلتقط أنفاسه ويطالع الغرفة الخالية... رسا طائر ضخم لا يعلم له عبدون اسمًا في الشرفة... تلاقت الأعين لوهلة قبل أن يحلق الطائر من جديد لتبتلعه السماء... لا يدري عبدون أي شيطان وسوس له بما فعله بعد ذلك... أي وحي ألهمه كي يهبط إلى المطبخ... يقف ثابتًا في وسطه ويقول في جمع النسوة

ـ سيدكم بيقول حضروا له الفطار في أوضته

طالعته النسوة لوهلة، تعلو وجوههن أمارات البلاهة... فقال

ـ يلا همي منك لها

عاونته أم الخير في رص الطعام على الطاولة الصغيرة... فيما سرى الخبر من المطبخ إلى باقي أرجاء السراي كالبرق

«الجابي بيه طلب الفطار وعبدون حيطلعهوله»

تنفس الخدم الصعداء أخيرا وارتدت الدماء إلى الوجوه الممتقعة... في المطبخ زودت الخادمات الأطباق ببعض المقبلات... تأكدن أن الشراب كما ينبغي قبل أن يحمل عبدون الطاولة إلى البك في غرفته... توصيه أم الخير للمرة العاشرة أن يخبر الجابي بك بوجوب رحيل صِبا إلى أهلها... علها تبرأ مما قاسته هنا... فيما توصيه النسوة أن يسمح باستقدام طبيب لتوحيدة، أو يسمح بخروجها هي الأخرى.

كان عبدون يشعر بأعين الخدم على ظهره وهو يرتقي السلم... تطالعه قبل أن يختفي في الردهة المفضية إلى غرفة نوم البك... أحكم عبدون غلق الغرفة خلفه... نظر إلى الفراغ لوهلة قبل أن يضع الطعام على الطاولة... طالع الغرفة الفارغة للمرة العاشرة، كأنما يتأكد أن سيده لن يعاقبه... أخذ بحد السكين الفضية بعضًا من الزبد وراح يفرده فوق الخبز... رشة ملح خفيفة فوقه كما يفعل البك جعلته كأطيب ما يكون... لم يكن عبدون ينوي أن يأكل كثيرًا... البك يترك في العادة نصف طعامه... لكنه لم يستطع المقاومة... تمتد يده إلى أطايب الطعام كلما حاول كبحها... حتى أتى على كامل الفطور... ومن ورائه الغداء الذي طلب فيه «البك» جميع أصناف اللحوم.

عندما هبط عبدون تلك الليلة كان الكل ينتظره... رحب به الرجال والنسوة أيما ترحاب... جميعهم يريدون أن يعلموا ماذا قال له الجابي بك... أخذ عبدون وقته في تغيير ثيابه... يتبعه الرجال والنساء أينما ذهب... يفسحون له طريقًا إلى الكنيف... يتدافعون للجلوس إلى جواره حول مائدة الطعام... يأمرون بزيادة نصيبه في العشاء فيترفع... ينتشي عبدون برؤية الجميع ينتظرونه كي يتخذ وضعية الحكي.

قَص عليهم عبدون عن سجادة الصلاة التي وجد البك عليها فور أن أذِن له بالدخول... حكى عن الغرفة التي كانت تسبح في طيب المسك والعنبر... قال إنه انتظر حتى أنهى سيدة صلاته ليسأله لمَ بقي كل تلك المدة في الغرفة

ـ قال لي انا مش خارج دلوقتي يا عبدون

شهق الخدم فاندمج عبدون أكثر في حكايته... قال إن الوالي الكبير الذي جلب جد البك الأكبر رفاته إلى الكفر، أتى لسيدهم في منامه... قال الوالي إنه جاء لرد الجميل... وأمر سيدهم بالاعتكاف والتفرغ لذكر اللـه في الغرفة حتى تظهر براءته مما يحاك له

ـ يعني البيه مش حيطلع من أوضته تاني؟

هكذا قالت إحدى الخادمات فسارعت أم زكي بقولها

ـ بيقول لك لحد ما البراءة تظهر يا وليه

ـ شششششش

هكذا زمجر مرعي وأشار للخادمات بالصمت... فعاد عبدون إلى حكايته... لم يعجبه أنه يستقي بعض ما يقول مما سمع من رؤيا مرعي عسكر... لكنه لم يكترث... جماهيره تصغي... جماهيره تحب ما يقول... ينتشي قلبه كلما استحسنوا كلامه واستعذبوا منطقه... كان ذلك قبل أن تقطع إحدى العاملات في المطبخ استرساله بقولها

ـ والست توحيدة... قولت للبيه ان يلزمها حكيم يا سي عبدون؟

تعالت احتجاجات الخدم لقطع حديثه، فأشاح عبدون بيده وقال إن ما أصاب توحيده ليس إلا سحر المطاريد، ولا حاجة لها بطبيب

ـ والمطاريد يعرفوا توحيدة منين بس يا عبدون اللـه يهديك!

ـ ماكانش لتوحيدة... كانوا مسلطين السحر على الجابي بيه... بس تقولي إيه، عفاريت اليومين دول!

هكذا قال عبدون بحسرة حقيقية، وهو يسب العفريت الذي أخطأ وتلبس الأرملة العجوز... لم يخرجه من حسرته إلا بصقة توحيدة التي التصقت بقفاه

ـ عفاريت يا ابن الأرندلي

قالتها توحيدة بصوت متحشرج بعد أن أتى السعال المزمن على أحبالها الصوتية... اسود وجه عبدون واشتد أساه وراح يلعنها ويلعن أجدادها جدًا جدًا... يزداد غيظه كلما جلجلت ضحكة توحيدة في أرجاء السوكاندو وهي تتوكأ على أم الخير... لم يتوقف الخدم عن سب سوء خلق توحيدة ليطيبوا خاطر عبدون، إلا حين تقوس ظهرها وراحت تسعل بعنف أوشك أن يزهق روحها.

كاد عبدون يعاود حكاويه عندما أتته صِبا... كان وجهها لا يزال متورمًا، لكنها قامت أخيرا من فراشها... أفسح لها الخدم طريقًا حتى وقفت بجواره

ـ وانا يا عم عبدون... كلمت البيه عني؟

طالع كدمات وجهها وقال بعد تردد

ـ لسه يا بنتي... ماجاش الإذن

انفجرت أم الخير

ـ يعني إيه ماجاش الإذن؟

كثر اللغط والهمس... الملاعين يفسدون عليه لحظته... يفسدون عليه حكايته

ـ يعني الصبر يا ام الخير... جرى لك ايه يا ولية؟

لم يعر عبدون دمدمة أم الخير كثيرًا من الانتباه... حاول تجاهل أنين صبا في أثناء عودتها... لكن ما لم يستطع تجاهله كان صياح دياب

ـ إنت انطخيت في مخك يا جدع انت؟ إذن إيه اللي حنستناه؟ الست توحيدة لازم تشوف حكيم... وصبا كمان

توقف لحظة لينظر إلى عبدون كأنما ينفذ إلى أعماقه

ـ واللـه لاخدهم بكرة للحكيم... والبيه بتاعك لو مش عاجبه ينزل يقول لي... ولا إيه يا عم عبدون؟

هكذا قال دياب وحدج عبدون بنظرة أسقطت قلبه بين قدميه وأخرسته... الملعون يعلم.

(٣)

مع الفجر انتعل مرعي عسكر مداسه وهرول إلى غرفة كبير الخدم... طرق الباب وانتظر مليًا... كانت عروق رقبته تنبض غضبًا... ابن الغرايبة يريد أن يطيح بالنظام... يريد أن يفسد السراي كما حاول أهله من قبل إفساد الكفر... لا بد للخواجة أن يتدخل، وإن تهاون اللعين سيتصرف مرعي بنفسه... هو المكلف بحماية الخدم وحفظ السراي.

لم يأبه مرعي لآثار النوم البادية على وجه الخواجة حين فتح الباب... راح يقص عليه ما دار بالسوكاندو البارحة، وما ينوي دياب فعله بعبارات مبتورة من فرط الانفعال... أنهاها بقوله

ـ لازم تشوف لك صرفة يا خواجة

أخذ مرعي يلهث... كأنما ألقى بحملٍ كبير عن صدره... ترك الخواجة باب الغرفة وعاد إلى فراشه

ـ وعايز مني إيه دلوقتي يا مرعي؟

هاله السؤال الذي يقطر جهلاً وعدم اكتراث

ـ باقول لك عايزين يخرجوا توحيدة تشوف حكيم... والبت صبا كمان

انحنى الخواجة على شيء ما بجوار فراشه قبل أن يقول

ـ واحدة عيانة وعايزة تشوف حكيم... والتانية عايزة تمشي زي كل اللي قبلها ما مشيوا... فين المشكلة؟

اتسعت عينا مرعي قبل أن يصرخ مستنكرًا

ـ فين المشكلة! من غير إذن يا خواجة، من غير إذن

حينها أبصر مرعي ما يفعله الخواجة، أو لعله أدرك ما رفض أن يصدقه... بجوار الفراش كان

الخواجة يضع بعضًا من متاعه في حقيبة صغيرة.

ـ إنت بتعمل ايه يا خواجة؟

بدا صوت مرعي أقرب إلى الاستجداء منه إلى الغضب... قال الخواجة دون أن يلتفت إليه

ـ باجهز حاجتي انا كمان... حاروح ادور على ضناي يا مرعي... ماحدش حينفعني لو ابني جرى له حاجة

ـ والسرايا! السرايا محتاجانا النوبة دي أكتر من أي نوبة فاتت

ـ البني آدمين أهم من الطوب والحجارة

ـ طوب وحجارة! إنت خلاص بعت يا خواجة؟ داحنا اللي بنينا السرايا... أنا وانت اللي علينا سورها بإيدينا...

لم يجبه الخواجه فاكتست ملامحة بالدم وهو يصيح

ـ عايزنا نمشي كلنا ونسيب السرايا... مش كده؟ إنت نسيت النظام يا خواجة... ماحدش بيسيب السرايا الا بإذن...

لم يبد أن الخواجة سمع ما قاله مرعي، أو لعله لم يكترث

ـ ماعادش ليا قعدة هنا... كل واحد لازم يشوف حال سبيله

لم يبق مرعي ليستمع إلى مزيد من هرطقة الخواجة... لم يعد يحتمل الجدل مع الخونة... راح يسعى من فوره بين السواس في الإسطبل... يصرخ فيهم كي يتجمعوا حتى التف الجمع حوله... بكلمات مبعثرة وبوجه متعرق راح يخبرهم بخيانة الخواجة... امتقعت الوجوه حين قال إن الخواجة ينعت سيده بالهارب لأنه معتكف ولا يستمع لما يقوله عنه الأراذل... نظر إلى الشرفة الخالية قبل أن يردف

ـ بس مصيره يطلع... وساعتها مش حيرحم حد

ـ والعمل يا ابا مرعي؟

هكذا قال نعيم... مسح مرعي عرقه في طرف جلبابه وجلس على جوال يفكر لوهلة

ـ هِم يا وله قول لعمك عبدون يبلغ سيدك الخواجة ابن الصرمة بيقول عليه إيه في غيبته

ـ ده إيه البلا اللي صابنا ده بس يا رب؟

هكذا قال نعيم فسرت في جسد مرعي عسكر رعشة عنيفة...

البلاء...

الوباء...

كيف غابت عن باله الرؤيا... مولانا الجابي ينظر إليه الآن... ينتظر أن ينجح في الاختبار... يعول على حسن تصرفه كي يحمي السراي... أبصر مرعي أخيرا الحقيقة... تذكر الماضي ومعه استشرف المستقبل... يكاد يسمع الخدم يتشاورون في كيفية معصية سيدهم بعد رحيل الخواجة... ستنفك العروة وينفرط العقد... أربد وجه مرعي بالغضب وقال إنه سيجمع المتطوعين لمنع الخدم من المغادرة، ريثما يخرج الجابي بك من اعتكافه ويحكم بنفسه في أمرهم.

جمع مرعي خاصته من الكفراوية، عزوته كما يطيب له أن يدعوهم... وحدهم سيفهمونه...

وحدهم سيقدرون ما يعنيه انفراط العقد والخراب الذي سيعم فور أن تضرب الفوضى أطناب السراي... لم يخذله الكفراوية... كما عهدهم رجال وقت الشدائد... انهمر المتطوعون منهم لحماية السراي ممن يتآمرون عليها من الداخل... ومع استواء الشمس في كبد السماء تكون له جيش صغير من الحرس... امتزجت في صفوفه ملابس الجنانية بملابس السواس بملابس خدم السراي... سلح مرعي عسكر الجميع بالفؤوس والمناجل، كما فعل عمه في الأيام الخوالي في الكفر حين كون عُصبة العزل.

جلس مرعي في وسط الحرس الجدد تلك الليلة، بعد أن أشعلوا النار ليجوروا بها من برد الصحراء... ينتظر ظهور ابن الغرايبة ليجز رأسه... لكنه لم يخرج... سأله أحدهم عما ينوي فعله مع الخواجة إن قرر الرحيل، فتجشأ مرعي وقال

ـ يغور العجوز اليهودي في ستين داهية... ولا حيفرق معايا... لكن لو سبته يمشي، بكرة يجي واحد تاني يحصله... وتالت ورابع... لحد ما السرايا تفضى علينا ويبوظ النظام

تعالى سباب الخدم في الحلقة حول النار... نعتوا الخواجة باليهودي الخائن، الذي أكل من خير البك ثم أنكر... يزداد غضبهم كلما تحدث أحدهم عن وصايا الخواجة القديمة بالصبر قبل أن ينقلب على عقبيه

ـ ده بعده... ده انا احش رقبته قبل ما يبوظ النظام

هكذا قال نعيم فأومأ مرعي في رضا... إن تهاون في كُفر أحدهم بالنظام، فسيفسد ذلك عقول الخدم... يعرف مرعي عسكر ذاك التسلسل جيدًا... يضعُف الإيمان... تكثر الهرطقة وينتشر الفكر... فيجاهر الأوباش بالاعتراض على ما يربطهم جميعًا، وينفرط العقد... فيما مضى كفروا بوجود العِرق... والآن سيكفرون بنظام الجابي بك... طوال عمره يدرك حكمة ما فعله أكابر الكَفر في زمن الوباء... تلك أوقات لا تعرف رحمة أو شفقة... تلك أوقات الشدة... تلك أوقات الرجال.

وزع مرعي عسكر الأفيون حتى استوى مزاج الرجال، فقال أحدهم

ـ بكرة لما الجابي بيه ينزل من أوضته يخليك كبير الخدم يا مرعي

ـ آه واللـه تستاهلها

ابتسم ولم يعلق... يعرف مرعي موقعه جيدًا... لم يكن متعلمًا أو أفنديًا، لكنه كان يملك من الفطنة ما يجعله يدرك أن الناس طبقات... هكذا أراد اللـه لعبيده أن يكونوا... لا يسعفه الأفيون الآن على تذكر الآية التي تقول ذلك المعنى... سيتذكرها بالغد ويلعن غباءه... لم يحلم مرعي بأكثر من راحة البال والثبات... حتى منصب كبير الخدم ما رأى فيه أبعد من فرصة لزيادة الاسترزاق وحظوة أكبر عند سيده... فرصة ليدخل السراي، بعيدًا عن برد العراء وقيظ الصحراء.

قال مرعي بعد طول صمت إن المسألة أكبر من طمع في منصب كبير الخدم... المسألة أنه يحب السراي... يحبها لا لأنها أعظم سراي في بر المحروسة... ولا لأنه يتحصل على أعلى راتب بين الخدم... لكنه يجد في هذه السراي شيئًا لا يمكن وصفه بالكلمات... تعلق بجدرانها عصارة ذكرياته وأفراحه وأتراحه... يحبها بترابها وبؤسها وكدها... يحبها بحكاوي عبدون النوبي ومناوشات توحيدة وخيالات الشيخ جبريل في سكره... أحبها مرعي حين كان شقيًا كجنايني وأحبها عندما شعر أنه ملك الدنيا عندما نقل للإسطبل... أحبها لدرجة الغيرة عليها من دياب ابن الغرايبة عندما رأى وجهه أول مرة في الشاحنة... ولو كُتب له أن يرحل إلى سراي أخرى يعيش فيها ملكًا لما وجد الراحة التي يجدها ببقائه هنا... بينهم... في سراي الجابي.

(٤)

وقف دياب أمام خدر النساء، يصله سعال الست توحيدة الذي لم يعد يتوقف... خرجت له صبا بعين تدمع رغم تورمها، تقول إن المسكينة صارت تبصق دمًا وبُح صوتها حتى ذهب تمامًا... صمتت لوهلة قبل أن تضيف

ـ مش حينفع تمشي بحالتها دي... دي مابقتش قادرة تتعدل في فرشتها

اندفع دياب يقول

ـ أنا اشيلها لحد الحكيم

ـ مش حينفع

طالعتهما بريبة امرآة تحمل البخور الذي أمر عبدون به طردًا للأرواح الشريرة ودفعًا لرائحة الكنيف، قبل أن تدلف الخدر... نظر دياب إلى صبا التي يُسحق شبابها تحت أقدام من يتعثرون في السير من دون أصفاد تكبلهم... لن تتعايش مع دين الخدم، حيث الفكر مكروه والحقيقة خطيئة والخروج عن السمع والطاعة كفرٌ بيّن... همس دياب

ـ وانتي يا صبا

ـ مش حينفع اسيبها كده يا دياب

أذهب وقع اسمه من فمها عنه بعضًا من الهم الذي يحمله... كم كان يتمنى دياب أن يجمعهما مكان مختلف... ربما القاهرة التي حدثه عنها الخواجة ومن قبله خالة بشاي ولم يرها... ربما في السينما حيث الصور ترقص على الشاشة العملاقة التي يتحدث عنها عبدون... أي مكان غير هذا القبر القذر... أي مكان يليق بهذا الجمال المصاب الساكن أمامه... وجد دياب نفسه يصيح

ـ مالكيش دعوة يا صبا... امشي انت وانا مش حفارق الست توحيدة... بس امشي... ده مش مكانك... كل اللي هنا راضيين يعيشوا زي الفيران، ولو استنيتي حتندفني وسطيهم

ـ تمشي فين يا ابن الغرايبة

نظر دياب إلى نعيم الذي نبت من العدم

ـ إنت فاكرها دار أبوك... آه لا مؤاخذة... انت مالكش دار...

هكذا قال نعيم قبل أن يكتسي صوته بالغضب وهو يكمل

ـ ولا لك أب... هنا مافيش حد بيخرج من غير إذن الجابي بيه يا بن الحرام... هنا فيه نظام

احتقن وجه دياب وكاد يشتعل بينهما شجار جديد لولا حضور الخواجة... أخرجه من السوكاندو كما أخرجه منذ عدة ليالٍ حين أراد أن يقضي على نعيم... قال له الخواجة هذه المرة

ـ كلها كام يوم وامشي وحاخد صبا معايا... اهدا

اهدأ...

قالها له الخواجة منذ عدة ليال أيضًا... أخذه الخواجة حينها إلى نفس المكان بجوار النافورة بعد أن تعدى ابن الجابي كالكلب المسعور على صبا، لكن دياب لم يهدأ... ما زال دياب يتذكر حين أشار الخواجة إلى جثة الجواد الذي قتله ابن الجابي بالصباح... وأوصاه أن يدفنها خارج السراي ريثما

يتحدث مع الخدم... وعده أنه سيتصرف، لكن دياب صار يعرف إلامَ تفضي وعود الخواجة... لا شيء.

تركه الخواجة وعاد مسرعًا إلى السوكاندو... لكن دياب لم يدفن جثة الجواد... ليس بعد...

كانت السراي خالية حين تسلل إليها دياب تلك الليلة... لم يشعر بهيبة تجاه التمثال المسخ الذي يحمي الرواق حين عبر بجواره... لم يشعر باختلاج قلبه وهو يدلف إلى غرفة ابن الجابي... كان المأفون يستحم، لكن أنى لقذر مثله أن يطهره الماء... بدا له ضعيفًا وهو يطبق على رقبته... لم يهتز دياب عندما سمع حشرجة أنفاسه... لم ترتجف يداه عندما رأى الحياة تتسرب من عيني ابن الجابي... رآه تلك اللحظة على حقيقته... تائه مثل خدمه... روح معذبة كباقي البشر... كاد دياب يتراجع، لكنه ذكر نفسه حينها أن هذا هو الحيوان الذي عذب صِبا... ذكر نفسه أنه يأخذ ثأرًا قديمًا من سلسال آل الجابي بقتل هذا الملعون... سلسال اللصوص الذي لم يجلب إلى الدنيا إلا الخراب، كما كانت تقول الجدة الكبيرة.

دثره دياب في ملاءة بعد أن لفظ نفسه الأخير وجره عبر ردهات السراي الخاوية... سحبه إلى الإسطبل وألقاه إلى جوار جثة جواد الحرب الهرم... كور الجثة بين قوائم الجواد وربط جذع ابن الجابي إلى بطن الجواد ثم أحكمهما تحت دثار الخيش... حيا الغفير والكونستبلات وهو يجر الجثتين ككجثة واحدة كبيرة في ستر الليل إلى الحفرة... وراح يهيل الرمال... وعندما عاد دياب إلى موقعه بجوار النافورة ليلتقط أنفاسه، كان صوت جدال الخدم لا يزال يصله.

لم يكن يتخيل دياب حينها أن الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه الآن... كان يعتقد أن الخدم سيكتشفون من تلقاء أنفسهم اختفاء البك... قدّر أنهم سيبقون بعدها يومًا أو بعض يوم يتجادلون، لكنهم سيهجرون السراي قطعًا في النهاية... كم كان ساذجًا... لم يخيل إليه أن هنالك بشرًا إذا ما غاب عنهم السجان، سلسلوا أنفسهم في قضبان السجن في انتظار عودته... سكت دياب مع من سكتوا حين سمع هراء مرعي عسكر... ألجمت وقاحة كذب عبدون لسانه... صار يعود كل مساء ليراقب الكذبة تنمو من حوله، تتفرع أغصانها اليابسة في أرجاء السوكاندو... تخترق فروعها الآذان والأبصار... صار الخدم لا يَرَوْن الجابي بك إلا كما يراه مرعي وعبدون... سيد منزه عن الخطايا على صهوة جواده... ينعم على العربجية ويحرر الخيول الأصيلة من قيدها... وكلما غالوا في تبجيله، كرههم دياب... كرههم لغبائهم... كرههم لحقارتهم... كرههم لأنه لم يعد يرى لهذه الأيام السوداء من نهاية.

لم يعد دياب إلى السوكاندو هذه الليلة... ظل يطالع مرعي وحرسه المتجمهرون حول البوابة حتى خرج الخواجة وأخذه معه إلى غرفته، حيث بات ليلته...

تمضي الأيام...

يقل ظهور الخواجة ويزداد التصاقه بالمذياع لتقصي أخبار الحرب... يرى دياب النزاع البادي في عينيه... يعلم أن حقيبة الخواجة معدة... لكنه يؤخر الرحيل... مرعي بدوره لم يعد يغادر كنف البوابة، يتردد عليه الخدم كالمريدين على شيخ الطريقة... يتناقلون عنه الأخبار... يسمعه دياب بالنهار يقول إنه رأى الخضر في الليلة الفائتة، وأخذ على يد فلان وفلان وأوصاهم بالصبر وإقامة النظام... وفي المساء يسمع عبدون الذي زادت سمنته يصطنع كذبته التالية... يسكبها في آذان ما عادت تميز ما يلقى فيها من نفايات... يسمع همس الخدم في ظلمة الليل يقولون إنهم في اختبار... يتواصون بالصبر... ستنزاح الغمة وسيهبط سيدهم بعد أن تظهر براءته وتعود الحياة إلى طبيعتها... يقولون ذلك بيقين راسخ لا يتزحزح... لا يخامره شك... وحين يخرج دياب بالليل ليتنفس في الحديقة، يرى مرعي يطالع قبسًا من النار لا يخبو، تدور عليه وعلى رجاله جوزة نبتت من العدم... لا يمل مرعي انتظار ظهور سيده، ولا يمل مَعاتيهُه تدخين الجوزة ومعاقرة الأفيون.

يمضي أسبوع...

يعود دياب إلى عمله في الحديقه، يدفن بين زروعها غضبه وخوفه... لا يمر يوم دون أن يتساءل... لم لا يقول الحقيقة؟ لم لا يضرب مرعي بيمينه فيلقيه في قبره؟ لم لا يرحل؟

ما الذي أسكتك يا هلالي؟

يدوي صوت الأطفال في أذن دياب «مافيش هلالي اسود» فينفض رأسه علهم يصمتون... الحقيقة أن الهلالي هو الآخر يخشى تبعات ما اقترفت يداه... ويخشى الرحيل... مهما أنكر ذلك... ماذا لديه في الكفر ليتطلع إلى العودة إليه... ثم هنالك صِبا... الرحيل يعني الفراق... سيعود هو إلى الكفر وتذهب هي إلى جدتها... لتفرق بينهم المسافات والدروب والأديان.

يتأمل دياب الشحات يحمل الطعام إلى مرعي والحرس... يرفل مبتهجًا في لباس السفرجي... يضرب دياب بالفأس في الأرض، فتدمى ترابًا... يدفن غيظه فينبت همًا... يحمله ويعود به إلى السوكاندو...

حيث صِبا...

لم يُعِد عليها دياب ذكر الرحيل... اكتفى بمراقبتها وهي تتعافى ببطء على مدار الأيام... تنشغل عن جراحها بتمريض توحيدة... حتى كاد وجهها يعود إلى سابق عهده... تاركًا ندبة بسيطة أخبرها أنها تزيدها حلاوة... وعندما يغفو دياب يحلم بأن السوكاندو امتلأ بالماء حتى وصل الحناجر... تقول الضفادع من حوله إنها لا تزال تستطيع التنفس... لا داعي للفزع.... لا يرى دياب النار لكنه يسمع حسيسها... يشعر بسخونة الماء الآخذة في الارتفاع... لا يرى الأطفال لكنه يسمعهم يجمعون الرهون على موته سلقًا... ينظر إلى باب السوكاندو ويطمئن نفسه بأنه سيخرج قريبًا... الماء ليس بتلك السخونة حتى الآن... حتما سيخرج... ليس هناك داعٍ للعجلة... يراوده ذلك الحلم كل ليلة... حتى جاءت الليلة التي استيقظ فيها دياب غارقًا في عرقه علىً صراخ النسوة من وراء الخدر...

ماتت توحيدة...

عندها فقط أدرك أن الماء يغلي.

(٥)

غسّلت النسوة توحيدة وأعددنها للرحيل... لم يتعارك الخدم على أخذ الإذن للأموات بمغادرة السراي... ولم يتعاركوا عندما أصر مرعي عسكر أن الطريقة الوحيدة لإيصالها لأهلها في السكاكيني هي أن يحملها العربجية معهم... كان وقع الحدث أكبر من أن يهتم أحدهم بتلك التفاصيل... تزاحم الخدم لانتشال رؤية أخيرة لكارو التركي التي تهتز بجثة توحيدة لدى البوابة... يتقطع صوت أم الخير وهي تصيح كي يصلها الصوت

ـ مع السلامة يا توحيدة... مع السلامة يا حبيبتي

بكتها جميع النسوة، حتى من طالهن لسان توحيدة الطويل بالسباب المقذع... كن يعلمن أنها تحمل في جوفها قلبًا أبيض... قلما يجود الزمان بمثله.

ابتلع الصمت السوكاندو تلك الليلة... حتى عبدون قلت حكاويه عن جلساته المطولة مع البك وتدارسهما لأمور الدنيا والدين... يسألونه ماذا قال سيدهم عن موت توحيدة، فيهز العجوز كتفيه ولا يجيب... لم يكسر ذلك الصمت إلا الإشاعة التي سرت بين الخدم عصر اليوم التالي... عاد الشحات محملاً بالأخبار مع غداء السوكاندو... وضع منشفة المائدة على كتفه وأسر لدياب بما يشاع منذ الصباح عن عزم الخواجة داوود على الرحيل.

ترك دياب الطعام وقام من فوره إلى غرفة كبير الخدم... طرق بابه وانتظر حتى أطل الخواجة بوجه مختلف... وجه تائه كدَهَه الفكر... لم يكن دياب بحاجة إلى أن يتأكد من صحة الشائعة، لكنه كان بحاجة إلى أن يؤكد على الخواجة أن يبر بوعده... أن يأخذ صِبا معه

ـ وانت يا دياب!

قالها الخواجة بعد أن أكد أنه سيصطحب صِبا لجدتها

ـ أنا حاخد فاروق وامشي بعد ما اتطمن عليكم

جاءها دياب تلك الليلة، أخبرها أن الخواجة قد قرر أخيرا السفر ليلحق بابنه، وقد اتفق معه أن ترحل في صحبته... ظل يشجعها على الرحيل، وظلت هي صامتة حتى عجزت عن التماسك... بكت صِبا... بكت كما لم تبك من قبل... للقهر طعم خبيث، لم يفارق حلقها بعد فعلة البك... يزداد مرارًا كلما تراكمت الدموع في مقلتيها دون أن تغادر جفنيها المتورمين. كلما كوى الأنين حلقها دون أن يُسمع... ظلت صبا تتمنى الرحيل طويلاً... ولما أتى لم تعد تعلم ما الذي ينبغي أن تشعر به... تمنت أن تشعر بالراحة... بالحنين إلى الحارة... بالتشفي في الأغبياء المتشبثين بالحبس... أي شيء... لكن الحقيقة أن صبا لم تجد في نفسها شيئًا تجاه الرحيل عندما حان موعده إلا الفزع!

جلست صِبا تلك الليلة على طرف فراشها صامتة... تطالعها النسوة بعد أن أعدت حاجاتها ويتهامسن بما تعتزمه.... خوفتها أم الخير من رد فعل الخدم... قالت إن عواقب كسر النظام وخيمة

ـ ماحدش يستجري يكلم الخواجة

هكذا قالت صِبا محتدة... تخشى أن تفكر في ما يحمله الغد

ـ لا يا بنتي... كسر النظام مش سهل... خصوصًا للناس دول... دول اللي رضوا بالحبسة من الأول لحد ما بقى السوكاندو حتة منهم

تصنعت صبا التماسك، إلا أن ذلك لم يمنع رعشة سرت في جسدها لدى مجيء الخواجة إلى السوكاندو في الصباح... يخبرها أن الوقت قد حان... بحثت بعينيها عن دياب لتودعه قبل أن ترحل، لكنها لم تجده... طالعت السوكاندو وهي ترتقي الدرج للمرة الأخيرة، تحمل صرة ملابسها في يدها، ولم تعقب.

اصطحبها الخواجة نحو البوابة، حيث تمترس مرعي وزمرته... أشار الخواجة إلى الخفير وقال بنفاد صبر وبقايا لهجة آمرة

ـ افتح البوابة يا غفير الغبرا

التفت الخفير إلى مرعي عسكر الذي يعتصر شومته

ـ والنظام يا خواجة؟ إنت عارف النظام... وانا مش بإيدي حاجة اعملها

هكذا قال مرعي عسكر بتحفز، فيما تجمع قطعان الخدم حولهما... يتحلقون حول الاثنين اللذين تجرآ على المعصية، يرمونهما بالنظرات الغائرة

ـ أنا استأذنت البيه...

هكذا قال الخواجة، قبل أن تختفي لهجته الآمرة ويحل محلها الترجي

ـ ضناي يا مرعي...

قاطعه مرعي بصرامة ونفاد صبر

ـ استأذنت البيه وماأذنلكش

صرخ نعيم كأن لم تكن عبارة مرعي بالصرامة الكافية

ـ اللي حيعتب البوابة حنكسر رجله

عمت لحظة من الصمت... استوعب خلالها الخدم ما قيل، قبل أن يرتفع الصياح بالتأييد... تكتمل الحلقة لتحيط بالخواجة وصِبا، على أطرافها وقفت الخادمات، ينوح بعضهن بنشيج البكاء... فتنهرهن أم زكي.

ـ الظاهر عليكم اتجننتم

هكذا قال الخواجة وأخذ حقيبته... قبض على يد صِبا ليعبرا البوابة فسد طريقه الشيخ جبريل بجسده... دفعه الخواجة، وتجنب آخر حاول سد طريقه... يسمع صوت أم زكي تصيح

ـ ده لُطف وصاب الخواجة

يسمع آخر يصيح

ـ ده سحر المطاريد

تشي نظراتهم بتعطل العقل والمنطق

ـ البيه هرب... أنا طلعت امبارح آخد الإذن... الأوضة فاضية يا غجر

هكذا أخذ يهتف الخواجة، وكلما رددها تعالت صيحات الجمع الخشنة... السعار يزداد... ينتشر... صار الخواجة وصِبا بين كومة من اللحم، تتحرك بفطرة الحيوان، تتهادى وسط الصياح واللغط كقطيع هارب... يلمح الغدر في الأعين الجاحظة والأفواه المزبدة... تلك ليست الوجوه التي قضى الخواجة بينها سنوات... تلك ليست وجوه البشر... مد الخواجة الخطى نحو البوابة... هذا يدفعه، ذاك يطيح بطربوشه... اتسعت عينا الخواجة حين هبطت أولى البصقات على وجهه... دار بنظره يبحث عن السافل الذي فعلها، فطالعه وجه فضيلة، ترمقه بنظرة تفيض بغضًا... وقبل أن يفتح فمه طالته بصقة ثانية... وثالثة... حينها تحولت نظرة البغض في وجه فضيلة إلى ابتسامة شامته.

ركله أحدهم... فشجعت الركلة الأولى العشرات على الهطول... الدفعة الأولى تتبعها المئات...

تتزايد... تتفاقم... انفصل الخواجة عن صِبا التي تركت يده قهرًا... زالت النظرة المستنكرة من عينيه وحلت محلها نظرة مذعورة... جمده الرعب... لم يعد يميز الأيدي التي تتلقفه... طارت حقيبته من يده ودهست الأقدام محتوياتها... صِبا تصرخ من مكان ما في الحلقة... الهستيريا تتحكم... يرى من بين الفيض البشري الغاضب صورًا خاطفة لعصيّ تُرفع.

قهر الرعب الخواجة فلم يعد يريد إلا أن يحمي وجهه من اللطمات... يبكي... يتضرع... يزداد الصراخ فيزداد السعار... ويستشري التوحش... الكل يفرغ توتره في جسده الضعيف... ينفسون عن خوفهم وقهر السنوات... ملابسه تتمزق... يخور... يستغيث من الألم... فتزداد النشوة الخسيسة... ويزداد أعمال الأيادي مطالبة بمزيد من الدم... تُمعن في الفتك والإيذاء... الكل يسارع لنيل قطعة من ذلك الجسد الذي تنساب منه الحياة كالرمال... يتفصد الدم من رأسه وأنفه وشفتيه، فيبالغ الخدم في الضرب... أخذت صِبا تسبهم... تدفع من تقدر أن تدفعه، تحاول أن تصل إلى الخواجة فتتلقفها الأيادي المسعورة.

خارج الحلقة هرول الشحات نحو طرف الحديقة البعيد... ظل يبحث كالمهووس حتى وجد دياب الذي تعمد أن يبتعد كي لا يضطر لوداع صِبا... لكنه أدرك على الفور من ارتعاش جسد الشحات أن أمرًا جللاً قد حدث

ـ إيه اللي صابك يا وله؟

ـ صِبا

هكذا قال الشحات وأشار إلى البوابة... بهت دياب... ركض كالمجنون صوب البوابة، حيث كان من المفترض أن تكون صِبا غادرت هذا المكان الذي نسيته السماء... أبصر حلقة من البشر يتعاركون، على أطراف تلك الحلقة تناثر بضع الخدم، يصيح بينهم عبدون

ـ حرام عليكم يا اخواننا

رأى دياب بعضهم يضربون الكفوف ويمصمصون الشفاة في أسى... يتساءلون إلى متى يصمد ذلك التعيس البائس... أم الخير تلطم وجهها وتصيح باسم صِبا... لم يكن لدى دياب ما يكفي من الوقت ليتساءل ما الذي أتى بكومة البشر تلك... أدرك أن صِبا في وسطها فألقى بجسده، يخترقها... يصيح... ينتزع أجسادًا ويدهس أخرى... صرخ عليه ظهره عندما تلقى ضربة أولى بشيء معدني... لم يلتفت دياب لمن ضربه وغاص أكثر في وسط حائط اللحم... يسمع صوتها فيمضي... متجاهلاً جسده الذي صار يصرخ عليه من الألم مع كل ضربة جديدة تهرس لحمه وتطحن عظامه... يسمع أحدهم يصيح

ـ حتى انت يا ابن الحرام؟

هو صوت نعيم... لكن دياب لم يكترث... هبطت عصا على رأسه من الخلف فزاغت رؤية دياب للحظة، لكنه تماسك... ركله نعيم في ركبته، يتعمد أن يدفعه أرضًا كي تدهسه الأقدام... سقط دياب على ركبتيه... يقاوم أقدام الخدم التي تدفعه كي يستلقي أرضًا... حينها أبصرها... ملقاة وسط الأقدام التي تتجمع لتدهسها... زحف وألقى بجسده على صِبا... تحامل وهو يتلقى الركلات والسباب ليجرها، ثم يحملها... ترتعش صبا بين يديه وتنوح كفرخ مبتل في مهب الريح... أصابه ما أصابه من اللكمات والركلات، لكنه في النهاية خرج بها من حلقة الموت... وما كاد يضعها أرضًا وينهار بجوارها حتى دوت صرخة خُيل إلى دياب أنها اخترقت صمت البراري المحيطة بالسراي... كف بعدها الصياح وابتعد الحشد عن أنقاض الخواجة العاري.

هرولت صِبا رغم جراحها وارتمت على الخواجة... تحميه بجسدها من ضرباتٍ تالية لم تأت...

تحاول أن تنزع عينيها عن ساقٍ الخواجة التي تقوست بشكل مريع أثار غثيانها... راحت تسب وتلعن الخدم الذين وقفوا يتفصدون عرقًا... ينظرون مبهوتين إلى فعل أيديهم كأنما يستوعبون ما حدث، حتى صرخ فيهم مرعي بصوت مرتعش

ـ شيلوه ودوه أوضته

(٦)

ازدحمت غرفة الخواجة بالخدم وماجت بالهمهمات المبهمة قبل أن ينفض الجمع تدريجيًا بحلول الليل... بقي دياب إلى جوار صِبا وأم الخير، يراقبون صدر الخواجة يرتفع وينخفض... يلفظ في وهن أنفاسًا متحشرجة يزيدها الصمت الذي يغلفهم وضوحًا... أحكم دياب اللاثة حول رأسه، لكنها لم تعد توقف تدفق الدم بعد أن تشبعت به... حاول جاهدًا تجاهل صراخ كدماته، والألم الذي يعتصر ذراعه وظهره، لكنه لم يعد يستطع... قام مثقلاً مع انتصاف الليل، يخفي عرجته حتى خرج إلى الحديقة، حيث أطلق الأنين الذي ظل حبيس صدره طوال اليوم.

جر دياب قدميه نحو السوكاندو... يطالع في طريقه البوابة العتيدة التي تمترس حرس مرعي عسكر حولها... يتخيل على الجهة الأخرى من أسوار هذه السراي عالمًا آخر... يكاد يسمع ضجيج المدينة البعيدة... يكاد يسمع ضحكات حرة طليقة لبشر يطاردون أحلامهم... يمارسون حياة طبيعية لا تحيطها الجدران ولا يحدها هراء كهراء مرعي وعبدون.

مع أولى درجات القبو ضربت أنف دياب رائحة البخور الذي لم يوار نتانة ساكنيه... ما زال السوكاندو ينضح برائحة الشقاء والخوف، وخراء الكنيف... طالع دياب بعض الخدم المتجمعين حول عبدون يسألونه

ـ سيدك داري باللي جرى للخواجة؟

ـ سيدكم عارف كل حاجة

ـ وراضي باللي بيجرى؟

يهز العجوز كتفيه ويصمت من جديد، فيندفع الخدم في لعن الخواجة وفعلته التي جرت الخراب إلى السراي... عندها ميز دياب رائحة جديدة أضيفت للسوكاندو النتن... صار يشم روائح الوباء تتساب بين الأسرة... تفوح من أفواه الخدم حين يقولون بقسوة، «يستاهل اللي جرى له»... هي ذات الأعين التي لم تبصر استجداء أهله... نفس الآذان التي لم تسمع صراخ الأفندي... الوباء بالباب، لا يمل الانتظار... يستشعر دياب أنفاس الوباء الباردة في هواء السوكاندو الثقيل... يترقب لحظته... ينتظر من يستدعيه ليبعث من جديد بعد أن طوى النسيان ذكره... يسمع دياب ضحكات ابن الجابي في قبره الذي وضعه فيه... يستشعر شره حاضرًا في الدود الذي يرعى في جثته بجوار السور.

تناول دياب بيده السليمة قلة ترسو في صينية معدنية بجوار فراشه، نزع اللاثة ومسح رقبته ورأسه فاصطبغت الصينية بلون الدماء القاني... تجاهل أعين الكفراوية التي ترمقه في تحفز... لم يعد يميز في تلك الوجوه غير قطيع من الضواري أصابهم السعار بعد تذوق الدم... انحدر مَن حوله عن مرتبة البشر منذ زمن لكن دياب لم يبصر ذلك إلا متأخرًا... سيهلل القطيع عندما يسود الظلام... سيطالب بمزيد من العتمة بعد أن يكافئوا من يبصر بفقء عينيه... يسمع بينهم الهمس الوجل، عن غضب الجابي بك إن هبط من غرفته ووجد الخدم ناقصين... أورثهم الخوف خسة ودناءة، فأمسوا يتآمرون على من يريدون النجاة كأنما يبغون قتلهم.

ألقى دياب بجسده على الفراش، وتوارى وهو يمسح على كدماته حتى جلس إلى جواره ظل منكمش على نفسه

ـ صِبا عاملة إيه؟

هكذا قال الشحات بعد تردد

ـ إنت خايف تروح تشوفها؟

قالها دياب بتهكم فلم يجب الشحات

ـ لازم نمشي من هنا يا فاروق

ارتعشت أنامل الشحات، وهو يراقب شيوخ الكفراوية يمرون بين الخدم، يشدون على الأيادي ويثبتون القلوب التي أفزعتها رؤية دم الخواجة، وقال بصوت خفيض

ـ نمشي نروح فين بس؟

ـ فاكر الضفدعة يا فاروق؟ إحنا بقينا مكانها... المية بتغلي واحنا مش بنفط... الخواجة مش آخر اللي حيطولهم جنان الخدامين

ـ ربك خلاف الظنون يا دياب... بكره لما الجابي بيه ينزل...

شعر دياب بالدماء تغلي في عروقه فانفجر فيه

ـ ماتفوق بقى يا أخي... ابن الجابي...

صمت قبل أن يكمل

ـ ابن الجابي مش في الأوضة... وخالك جاتله لوثة وناوي يدفنا واحد ورا التاني

همس الشحات بضعف

ـ وطي حسك... خالي بيحمي السرايا يا دياب

كزّ دياب على أسنانه وهو يقول

ـ مش ده اللي قالوه أيام الوبا؟ قالوا بيحموا الكفر... ناسي اللي جرى لأبوك...

ـ الكلام عن الوبا حرام...

ارتعشت شفته السفلى قبل أن يردف

ـ وبعدين تعرف ايه انت عن ابويا غير حكاوي الغرايبة؟

حقًّا لا يعرف دياب الكثير، لكنه يعرف ما يكفي كي يرسم للأفندي صورة كاملة في قلبه... صورة تنافس في بهائها صورة أبي زيد الهلالي... أتت قبل هذه اللحظة مئات المرات التي أراد فيها دياب أن يخبر الشحات أن هنالك ما يجمعه به أكثر من كونهما منبوذين... أراد أن يخبره أن ذات الدم يجري في عروقهما... فرقتهما الألوان والأديان والجبهات المتناحرة... لكنهما يحملان ذات الدم... دم الأفندي.

تنهد دياب في النهاية واكتفى بقوله

ـ أعرف انه كان راجل

حرن الشحات كالبغال وقال

ـ ماورتتش منه غير النكد

شبع الشحات من تشدق الغرايبة بما فعله الأفندي، بينما لم يجن هو إلا البؤس... كاد الشحات يقول شيئًا آخر لكنه أطبق فمه عندما اقترب ظل جديد منهما... زفر عندما تبين زميل دياب، سلامة الجنايني، وأفسح له بجواره.

أخرج سلامة آخر سجائره التوسكاني الرخيصة... أشعلها فأضاء طرفها المشتعل بنور باهت وجوهًا أخرى تحلقت حولهم

ـ والعمل يا دياب

هكذا همس سلامة، فتلفت الشحات حوله... يتقد قلبه كجمرة كلما عصفت به الأفكار السوداء إن سمعهم الخدم

ـ ربنا على المفتري

قال آخر

ـ لو اتجمعنا كلنا مش حيعرفوا يعملوا حاجة معانا... لازم نقف لهم

تعرق الشحات رعبًا وعض على لسانه فيما همس سلامة

ـ تقف لمين يا مغفل؟ إنت مش شايف عملوا إيه في الخواجة؟ خلاص كل اللي نحوك بقوا ديابة مسعورة... إحنا نهرب

طالع الشحات دياب، الذي لم يدخن في حياته من قبل، ينزع السيجارة من يد سلامة ويدسها في فمه... يشهق قبل أن يسقط في نوبة سعال لم تمنعه عن نزع نفس أخير من السيجارة قبل أن يعيدها إلى صاحبها... لم يبق الشحات ليسمع المزيد من الهرطقة، زحف إلى فراشه وسد أذنيه حتى بزغ النهار.

كان كل شيء في السراي مثقلاً عندما صعد الشحات إليها ذلك الصِباح... بقي جالسًا على مقعده خارج المطبخ، يطالع صورة الخدم المتعانقين... يشبع عينيه بوجوههم المبتسمة، ثم يغمض داعيًا الله أن يزيح الغمة... يدعو الشحات أن تظهر براءة الجابي بك سريعًا ويهبط من غرفته قبل أن يقتل الخدم أنفسهم... كان لا يزال يدعو عندما عادت أم الخير، التي هُيئ إليه أن ظهرها قد ازداد انحناءً... تسلل الشحات بخفة إلى باب المطبخ، يسترق النظرات إلى العجوز التي قاربت جبهتها أن تلامس حوض الغسيل... مسكينة هي الأخرى... خطا الشحات داخل المطبخ للمرة الأولى منذ أن نهرته أم الخير عن الدخول... اقترب منها وهمس بصوت مرتجف

ـ أساعدك يا امه؟

انتفضت أم الخير وكفت للحظة عن تنظيف الصحون... لم يكن يرى إلا مؤخرة رأسها، لكنه شعر بترددها، قبل أن تشير إلى صحن بعيد ليجلبه... قفز من مكانه والتقط الصحن وأتى به هرولة...

لم يبرح الشحات مكانه بجوار أم الخير... ظل ينتظر إشارتها التالية... لم يستعجل أن تحدثه... كان يكفيه أنها لم تعترض على بقائه... يكفيه أنها لم تطرده.

(٧)

لا تدري صِبا كيف مرت عليها تلك الليلة... ظلت تتظف جراح الخواجة بعد أن نزعت عنه بقايا الثياب المخضبة بالدماء، لكنه لم يكف عن النزيف طوال الليل... تتأكد بين الفينة والأخرى أنه لا يزال حيًا من أنينه الذي لم ينقطع... ذهبت أم الخير إلى المطبخ مع انحسار الليل وبزوغ الفجر، وبقيت صبا وحيدة حتى أتاها الشحات، وناولها فطورها مع ما تبقى من صُرَّة الملابس التي تركتها لدى البوابة.

أزاحت صِبا الطعام والتقطت صرتها بيد أخفقت في أن تخفي ارتعاشها... أشارت إلى الخواجة الغارق في غيبوبته وقالت بصوت لا يزال جريحًا من صراخ الأمس

- لازم حكيم يشوفه... الراجل حيضيع مننا

- روحي انتي ارتاحي يا صِبا... إنتي مانمتيش من امبارح

هكذا قال الشحات ثم أخرج قنينة صغيرة

- أنا حادي له من الشربة دي... دي فيها الشفا

تأملت الشربة في يده، وتساءلت بمَ تفيد مع حطام جسد وساق مهشمة... لكن التساؤل لم يعبر شفتيها... كانت منهكة... فأومأت وغادرت.

بحثت صبا بعينيها عن دياب في الحديقة لكنها لم تجده... لم يكن هناك سوى بعض الخدم المبعثرين، يتوانسون حول شاي العصاري... كلما مرت بمجموعة منهم سمعت حوارات لا تنتهى عن الواقعة، سرعان ما يقطعها الصمت عندما تمر بجوارهم... فتمد الخطى صوب السوكاندو.

اختفى ضوء النهار فور أن هبطت صبا درجات القبو... بهتت الوجوه فلم تعد تميز غير أعين غائرة في وجوه كالحة رمادية كجدران السوكاندو الكئيبة... سارت صِبا في عتمة قابضة بين قطيع النسوة... تسمعهن يتاهمسن

- شوفي البت ام عين بجحة

- ماعادش فيه خشا

تمر بينهن كوتر مشدود فيتجنبها بعضهن كالطاعون، حتى أدركت فراشها... ألقت صرَّة الملابس وانكمشت على نفسها في ركنها المعتم

- ما كنا نسيبهم يغوروا في خرارة يا اختي... اللي زي دول مالهمش عيش ما بينا

هكذا قالت إحداهن باشمئزاز... ينمو الهمس ليصبح صوتًا جريئًا يخترق سمع صبا... تتحول النظرات المسروقة إلى حملقة ثابتة وقحة... تسمع أم زكي تحتد

- لو سيبنا واحدة تمشي النهارده بكرة عشرة يحصلوها... ولو عددنا قَلّ السرايا تبقى لقمة سايغة للمطاريد

فتعود الأولى لتسلم برأي القطيع قائلة

- عايزين يموتونا ولاد الهرمة

كان ذلك آخر ما سمعته صبا... تماهت بعدها الأصوات فلم تعد تميز ما يقال ومن القائل... جثم عبق الفراش، الذي ظنت بالأمس أنها فارقته إلى الأبد، جثم على أنفها برائحة القهر... كانت تود لو ردت الصاع صاعين... ما كان يشغلها أن تكون بمفردها ضد العقبان... لكن قواها خارت فلم يعد بها جهد... أغمضت عينيها وحاولت أن تسبح في مكان بعيد، تبحث عن غفوة تأخذها من هذا المكان... لكن تلك السكينة أبت أن تحل عليها... تسمع صرخات الخواجة، لا تدري إن كانت تصلها من غرفته

أم أن أصداءها لا تزال تتردد في عقلها.

ما هي إلا سويعات وأتت أم الخير بالطعام إلى فراش صبا، لكنها أبت أن تقربه وتكورت في ركنها

ـ حتنّك صايمة عن الزاد كده لحد إمتى يا نضري؟

أجابتها بالصمت، فعقصت أم الخير شعرها الأبيض خلف رأسها واحتضنتها... غابت صِبا في حضنها الدافئ، وللحظة ظنت أنها ستجهش بالبكاء، لكن الدموع لم تأت... سمعت صبا نفسها تقول

ـ كلنا حنموت هنا زي الكلاب ولا حد حيحس بينا

لم تجب أم الخير لكن صِبا شعرت باضطراب قلبها الذي تسارعت ضرباته تحت أذنها... غاصت صِبا أكثر في حضن أم الخير، ولوهلة شعرت بهموم الكَفر وأسرار الوباء المسكوت عنها عندما اقترب من قلبها العجوز.

أراحت أم الخير رأس صِبا على فخذها، جددت وعدها وهي تمسد شعرها، بأنها ستخرجها من هذا المكان البائس

ـ وحاخدك الكفر كمان

هكذا قالت أم الخير وراحت تحدثها عن حفيف الهواء بين أشجار الفاكهة في غيطان الكفر... عن فرحة الدجاجات بالحبوب كل صباح... عن رائحة الخبيز الطازج التي تغشى الكفر في الأعياد... عن خرير الماء في الترعة في أثناء شاي العصاري وحكاوي الأيام الخوالي حين كان الخير حاضرًا لا ينقطع... وفي النهاية، عندما جفت الكلمات، انهمرت دموع أم الخير فيما بقيت صِبا شاخصة

ـ يوه... بليتك يا بنتي

هكذا استدركت أم الخير وهي تناولها منشفة لتزيل آثار الماء الذي أصابها، لم تدر صِبا إن كان البلل من أثر دموع أم الخير أم من أكمامها التي لا تزال تحمل آثار ماء الغسيل.

اقتنصت صبا غفوة عميقة في الليل... انتبهت منها على وقع من يتهامس باسمها... يزداد الهمس قوة... اشرأبت باحثة بين أسرة السوكاندو التي فرغت من أصحابها، حتى تراءت لصبا أمها وجدتها... تجلسان على فراش أم زكي في ركن السوكاندو كما كانتا تجلسان على فراش جدتها في الموسكي... كانتا تطالعانها بذات النظرة اللائمة... كادت صبا تصيح بهما، تريد أن تقول انظرا ما فعلتما بي... لكنها لم تجد بفمها لسانًا... كان مجرد فراغ خاو... هالها ذلك... قامت تتخبط في السوكاندو الذي سُد بابه فصار قبرًا حقيقيًا... أرادت أن تصرخ لكنها لم تتمكن حتى من الصراخ... قُدّر لها أن تدفن معهما إلى الأبد... نظرت لجدتها تستصرخها بعينيها، أن أنقذيني... فما كان من جدتها إلا أن نظرت لها بامتعاض وقالت لأمها

ـ بنتك الخايبة دي عمرها ما حتفلح في الخدمة

أفاقت صبا من غفوتها غارقة في عرقها، تصرخ... يداخلها يقين لا ينازعه شك أنها ستموت في هذا السوكاندو القذر... راحت تتحقق من وجود لسانها وأن باب السوكاندو لا يزال مفتوحًا وهي لا تزال تنتفض... استغرقتها وهلة حتى تحققت أنها كانت تحلم... شعرت أن حملاً ثقيلاً يطبق على صدرها... فهربت من توها خارج السوكاندو بينما تلعنها النسوة اللاتي أيقظتهن بصراخها

إوعى تقول للندل ياعم

ولو كان على السرج راكب

ولا حد خالي من الهم

حتى قلوع المراكب

اهتدت صبا بصوته حتى وجدته في موقعه على السلاملك... اقتربت منه، وبلا جلبة جلست إلى جواره... لا تدري ما الذي أصابها تلك اللحظة، فجأة شعرت أنها لم تعد تحتمل، فبكت للمرة الأولى منذ الأمس التعيس... تبتلعها شهقات البكاء وأنين الوجع وكآبة الذكريات... تبكي، فتطهرها دموعها... تغسل قلبها فيتحرر من بعض همومه... احتضنها دياب فلم تعترض... أرخت مقاومتها في حضنه، وتركت نفسها... تشم فيه عبق الرجولة الراسخ، تتوه في صدره العريض... تغرقه بدموعها.

تركها دياب حتى تمالكت نفسها... ثم قادها بنفسه هذه المرة إلى باب السراي... عبر بها الردهة، تسلقا معا الدرج ببطء، يتعكز كلٌ منهما على يد الآخر حتى أدركا الشرفة... ومنها وقفا يطالعان القاهرة البعيدة... حيث تبدو الحياة سهلة رخية... بعيدًا عن الخدم... أخبرها دياب كم أتعبته هذه المأساة التي ولد فوجد نفسه مصفدًا في حبائلها... أخبرها كم يود أن يرحل... أن يهرب، بعيدًا عن السراي... بعيدًا عن الكفر... بعيدًا عن الخدم... تنهدت صِبا وطالعت المدينة الغافية بدورها

ـ لو شفت القاهرة حتحبها

هكذا قالت ثم أخبرته أن أكثر ما تفتقده في هذه السراي هي الحمائم... اعتادت أن ترى الحمائم حولها... في باحات القاهرة، في أبراج الكنائس وساحات المساجد بالحسين... في كل مكان آمن... في كل مكان ينضح بالخير... لكن هنا لا حمام ولا خير ولا سكينة... أغمض دياب عينيه فوجد نفسه يسمع هديل الحمام في الكفر

ـ غمضي عينيكي

هكذا قال وصمت برهة قبل أن يستطرد

ـ في الكفر عندنا سجرة، بيتلم تحتها حمام الكفر كله... ساعة العصاري لو وقفتي جنبها مش حتسمعي حاجة غير صوت الحمام... حنخرج من هنا يا صِبا وحاوريكي السجرة... وحتأكّلي الحمام بإيديك

وعدها دياب أنه سيريها يومًا صف الصبية والصِبايا يحملون الخبيز الطازج حد الترعة صوب الجبانة... تسبقهم ريح الخبيز الشهية

ـ أم الخير قالت لي نفس الكلام النهارده

تنهدت صِبا قبل أن تستطرد

ـ كفركم ده غريب يا دياب، ماحدش شاف فيه حاجة عدله ومع ذلك كلكم بتحنوا له... حد يحن للسجن؟

أطرق دياب وقال بصوت هامس إن أمثالها ممن يكرهون الأسوار لا مكان لهم بين من تجرعوا الذل عقودًا حتى استعذبوه... لا يدري إن كان يشير لنفسه أم للخدم... لا يدري دياب لِمَ قص بعد ذلك المسكوت عنه... لكنه بدأ يقص من تلقاء نفسه حكاية الوباء، دون أن تلتقي الأعين... راح يجتر ما قصته جدته عليه آلاف المرات... كأنما كانت تحفره في ذاكرته كي لا ينساه... كي لا تنجح محاولات آل الجابي والقس في محو التاريخ، بتحريم الحديث عن الجريمة وتحريف اسمها... حتى أسموا المذبحة وباءً.

الوباء من الفترات المسكوت عنها في الكفر المتشح بالصمت... حرموا ذكر اسمه على الألسنة، وجعلوا للصمت قوانين وللسكوت أعراف وطقوس قدسوها... إلا أن ذلك لم يمنع دياب من الحديث عنه تلك الليلة... تربى كباقي الغرايبة على سماع ما فعله الجرابتية بأهله... سمع منذ صغره أن المقبرة الجماعية التي يقولون إنها تحوي رفات من أتى عليهم الوباء خاوية... قالت جدته ذات ليلة وهي تلوك شفتها السفلى في حسرة إن الجرابتية ألقوا الجثث في الترعة، كما الحيوانات النافقة، ومنعوهم من دفنها... حتى سُمع طنين الذباب الذي تجمع على الجثث المتراكمة من خارج الكفر... قال البعض إن الجثث أُحرقت... كما سمع أن بعضهم دُفنوا في دار فتحي عسكر الخربة... لا يدري دياب أين الحقيقة من ذلك، لكنه يدرك أن ما تم كان أبشع من أن تحتويه رواية واحدة.

جرف الجرابتية معظم غيطانهم بحثًا عن عِرقهم المزعوم... وعنّت الزرعة الباقية أن تجود عليهم بثمارها، فغرقوا في الفقر... لم يتدخل الغرايبة في أمور الجرابتية على مدار عقود طويلة بعد أن حطوا رحالهم في الكفر... لم يتنافسوا على سلطة الكفر رغم أنهم أحق بها... والأهم أنهم لم يكونوا يومًا عالة عليه لوفرة إنتاجهم من الزراعة وتربية المواشي... ورغم ذلك لم يسلموا من ألسنة الجرابتية وأعينهم الحاقدة... وهكذا دارت السنين... أطراف متحفزة تضمر الكره ولا تبديه إلا نادرًا... ينشب عراكٌ هنا، خصومة هناك... لكنها سرعان ما تُحتوى... إلى أن داهم الكفر بلاءٌ جديد...

الجفاف...

جفت الترع ونفقت البهائم وضج البشر... قبض الجوع على عنق الكفر، يخنقه ويستنزف بقايا الحياة منه... شهد الجرابتية أسوأ نوبات الفاقة والعوز في تاريخهم... يقال إن أعمال الشغب والسرقة انتشرت في الكفر تلك الأيام، حتى صارت تحدث في وضح النهار... ومع دخول الشتاء وحلول الصقيع، صارت القبور تنبش وتجرد الجثث من أكفانها من أجل قطعة قماش عز أن توجد فوق الأرض، فبحثوا عنها تحت التراب.

ولما فاق الأمر الاحتمال، خرج مولانا الجابي بعرجته المميزة على الجموع الجائعة... استوى على مصطبته وبشر من جديد بقرب ظهور العِرق... كل ما عليهم هو الصبر والدعاء... تعالت الاحتجاجات تشكو ضروع البهائم التي جفت والدور الخاوية... رفعت النسوة العيال الهزيلة فوق رؤوسهن وهن ينعين الصبر مع موت الخلفة... قالوا إنه عليه أن يجد العرق اليوم... لا مجال للصبر... أشار مولانا الجابي بيدٍ مرتبكة حتى هدأ الحشد، قال إنه لم يعد في الكفر موضع لم ينبشوا فيه عن العِرق غير مكان واحد، وقد آن الأوان للبحث فيه.

زحفت الجموع الجائعة نحو غيطان الغرايبة، السوداء كسواد أصحابها... أرض ولود تطرح بلا عناء... حتى في الجفاف، وحدها غيطانهم لا تزال تتشبث ببعض خضرتها... تجمع الكفر برجاله ونسائه وأطفاله الجوعى، يتصايح الأطفال مع أقرانهم من الغرايبة

ـ حنسحب الأرض من الغربان السود

تتصايح النساء

ـ عايزين العِرق يا ظلمة

وقفت الجموع المتحفزة على رؤوس الغيطان حتى جاء مولانا الجابي... عاونه المقدس عبد ربه على الهبوط من على بغلته... يتصايح الجمع حوله كلما تقدم أن العِرق يقبع تحت أراضيهم... أن خصوبتها ترجع لوجود الذهب أسفل منها... يتزايد وطيس الشجار والاستنكار... حتى وقف مولانا الجابي امام رجال الغرايبة المبهوتين قائلًا إنه لا يستطيع منع الناس من أخذ حقهم في العِرق.

حدث بعدها ما يحدث دومًا... نفوس مشحونة على مدى سنوات، تجد متنفسًا للكراهية المكبوتة...

قالوا إن الوباء يسكن أجساد الغرايبة السوداء العفنة... كذبة صغيرة صدقها دهماء الكفر... ومن لم يصدقها منهم تجرعها كدواء مر لا بد منه كي يبرأ الكفر من الغرايبة... هتف الكفر بموتهم حين قال كبراؤه إنه شر لا بد منه... صار كل من يقاوم البحث عن العرق موبوءًا، يريد خراب الكفر... لا مجال للتنظير والمهادنة بعد أن يهوي جلمود الكراهية... إما أن تنضم إلى من يدفعونه وإما تسحق تحته... ولي وقت العقل... تكتل الأهالي وتكالبوا على الغرايبة... انضمت أسرة القص إلى باقي الكفر كي لا تُسحق، وأخفى كل متعاطف تعاطفه... وسرعان ما تكونت عُصبة من الرجال لمقاومة الوباء، وعزل الموبوئين في دار فتحي عسكر التي خصصت للحجْر... يزداد توحش تلك العصبة وتتسرب منها الآدمية كلما ازداد عدد أعضائها... حتى صاروا قطعانًا من الحيوانات، ينهشون في لحم ذبيحة سقطت أرضًا.

أعملت الفؤوس في الغيطان وقُلّع الزرع الوليد بحثًا عن العِرق... يتكالب الرجال وعصبة العزل على كل من يتجرأ ويخرج من داره من الغرايبة ليقاوم نبش أرضه... يسحبونهم كما الأنعام إلى دار الحجر بعد أن تُحرق داره... حتى صار اصطحاب أحدهم إلى دار الحجر مناسبة ينتظرها الأطفال... يلقمونه الحجارة في طريقه للحجر عليه مع باقي الموبوئين... ثم يعاود الرجال حفر أرضه وسط نواح نسائه على الدار المحترقة والأرض المنهوبة والمعيل الضائع... لم يعد نواح نساء الغرايبة يتوقف... يقبلن قدم المقدس عبد ربه كلما رأينه في الطرقات كي ينصفهن... كي يقف بجانب رجالهن... بلا جدوى.

صم الكفر الآذان عن الصراخ والعويل. وتحصن بالصمت... جالت نسوة الغرايبة السود بالبيوت، يستصرخن همة الرجال وتعاطف النساء، فسُكرت في وجوههن الأبواب والأبصار، إلى أن كفوا... حينها هدأ الكفر الذي يقدس الصمت... ولم تعد اللقيمات القليلة بذات السوء بعد أن لاح الأمل باقترب ظهور العِرق.

وسط ذلك الصمت خرق صوته الآذان... كان الوحيد الذي قرر الحديث حينما حُرِّم الكلام... دومًا ما كان الأفندي يتكلم بغير لسان أهل الكفر... كلام الأفندية والجرائد كما كانت تقول النسوة والعجائز... لكن كلامه ذاك كان يستهوي الشباب، ينبهرون بأحاديثه عن سعد باشا زغلول وعن التحرر من الاستعمار... لم تكن أحوال الكفر ترضي الأفندي... كان يقول إن الكفر يستعمره الجهل والخوف... لم يكن أحد من كُبارات الكفر يعبأ بما يعتقده الأفندي أو يقوله، إلى أن تكلم في ذلك اليوم المشؤوم.

قالها الأفندي فرددتها أرجاء الكفر... ورددتها القلة التي جمعها حوله ممن لم يدينوا بالكراهية... حاول الأهالي منع أبنائهم من الانضمام إليه... حاول مولانا الجابي إخراس ابنه سليمان فلم يفلح... حاولت أم الخير إخراس ولدها سيد فلم تفلح... ترجته وعنفته وصفعته حتى أدمته... فلم يزده ذلك إلا إصرارًا... مضى مع الأفندي وتركها تضع تراب الدار على رأسها... يرددها

ـ مافيش عِرق دهب يا بلد بتتنهب

دار الأفندي بالدور ومصاطب الرجال، تحاصره نظرات عصبة الوباء المتأهبين لمن يريد نزع الأمل الأخير عنهم... لم يردعه الصراخ والجنون... ظل يقول إن رياح التنوير هبت على المحروسة، لكن الكفر يتشبث بظلامه كطفل يتعلق بطرف ثوب أمه... يأبى أن يتركه... يعيش على أساطير العِرق... يقول إن الجابي والمقدس يتغذيان على أحلامهم... يبيعانهم الشربة والبركة والدعوة... يرهبانهم من كل ما هو خارج إطار الكفر، كي لا تتوقف الجبايات عن التدفق.

ربما ما استمع أحد للأفندي كالعادة... ربما كانت ستمر كلماته لو لم يسعرهم الجوع... لو لم يعم قلوبهم الغل... لو لم يتعلق به الغرايبة، الذين كانوا كغريق يتعلق بقشة فجعلوا منه قديسًا... ربما تجاهل مولانا الجابي الأمر لو لم يهدد الأفندي بالذهاب إلى المركز ليبلغ عن المجزرة التي ينوي أهل

الكفر أن يتموها في الحجر... حينها جن جنون مولانا الجابي... وقال إن الغرايبة سحروا الأفندي وابنه وكل من قال بقولهم... سحروهم لتفكيك الأهالي وزرع الفرقة... سحروهم ليهزوا إيمانهم بالعِرق... صاح بكل ما يملك من جبروت إنهم يتآمرون عليهم كي لا يجدوا العِرق، فيموتوا جوعًا... وأعلن من فوق بغلته أن كل من تكلم بلسان الأفندي موبوء وجب عزله.

طافت عصبة الحجر بالدور ليلاً، يقتلعون الموبوئين والمسحورين فرادى من فروشهم... حاول البعض المقاومة... البعض حاول الفرار... فتكاثر عليهم الأهالي مع عصبة الحجر وأعملت فيهم المناجل والفؤوس... فرارهم يعني انتشار الوباء... يعني ضياع العِرق وضياع الكفر... جمعوا الكفر أمام دار الحجر، قالوا إن من بالداخل مرضى إن خرجوا نشروا الوباء وأضاعوا العِرق... أضاعوا الأمل... جمعهوهم وقالوا صيحوا بموتهم ليحيا الكفر... صيحوا بموتهم لتحيوا... صيحوا بموتهم لتصحوا... فصاح الجمع ولم يملك من أراد الصمت إلا أن يلزم داره.

قال مولانا الجابي إنه يسقي الموبوئين في الحجر من شربته، ويباركهم المقدس كل ليلة علهم يبرؤون من وبائهم... وعندما حُملت الجثث من الحجر إلى الترعة... قال الغرايبة إنهم تركوهم حتى نفقوا جوعًا... فيما قال البعض همسًا إن الجابي سممهم بالشربة.

ـ والافندي مات!

أومأ دياب برأسه إيجابا، وأشار عبر باب الشرفة إلى غرفة ابن الجابي

ـ ماحدش خرج سليم من دار الحجر الا ابن الجابي

كانت ملامح الأسى بادية على وجه صِبا وهي تقول

ـ إزاي الناس تعمل كده؟ عقلهم كان فين ساعتها

ـ مافيش عقل ساعة الجوع والغل

غلفهما صمت طويل قطعته صِبا همسًا، كأنما لم تعد بها قوة للحديث

ـ والحال انصلح دلوقتي في الكفر؟

ـ حال الكفر عمره ما حينصلح

ـ ليه؟

ـ علشان رضعونا الكره، ولما كبرنا علمونا ان الرجولة انك تسقي أرضك من دم جارك... علشان الناس اللي عايشة في متر في متر ليهم ألف اسم... دول غرايبة ودول جرابتية... دول مسلمين ودول مسيحيين... دول أقباط بيض ودول أقباط سود... وكل واحد له مع التاني تار من جِد جِد الجِد، لِسَّاه بيدور عليه... كتير منا مايعرفش أصل الحكاية، لكن يعرف الكره عز المعرفة... والأرض مش حترتاح من الخراب ده الا لما تبلعنا كلنا

صمت قليلاً قبل أن يستطرد

ـ مش عايز اللي يحركني نفس الكره القديم... لكن لما باشوف وشوش الكفراوية واللي عملوه في الخواجة مابفتكرش غير حكاية ستي عن اللي حصل في دار الحجر... نفسي ابقى زي الافندي، الوحيد اللي كان عنده ضمير صاحي في وسط الهوجة... هو الوحيد اللي كان عايش وسط أموات

قال دياب إنه يتخيل الأفندي في العزل... جائعًا، ضعيفًا... لكنه يستميت ليتشبث بإنسانيته، التي لم يفهمها أهل الكفر وعاقبوه عليها... خلق منه الجرابتية شيطانًا خائنًا لأنه لم يقف مع ظلمهم... قالوا إنه قتل أولادهم لأنه لم يصمت... ورفعه الغرايبة إلى مصاف القديسين والشهداء، لأنه تكلم... أما هو

فيراه برؤية خاصة... يشعر بروحه داخله... لم يبغض الأفندي إلا الفرقة والظلم... ولو أن الغرايبة ظلموا الجرابتية لوقف الأفندي ضد ظلمهم... وحينها كان سيلعنه الغرايبة ويخلقون منه شيطانًا مريدًا... الطرفان لا يسعيان إلا لمزيد من التحزب... كل طرف يبحث عما يقوي موقفه وقضيته... وحده الأفندي كان يحيا للحق... كم يمقت دياب الكَفر... يمقت من يتعوذون ليل نهار من تربص البندر بكَفرهم وعِرقهم... كثيرًا ما يود أن يصفعهم على وجوههم، علهم يفيقوا... علهم يدركوا أن الدنيا لا تعلم بوجود كفرهم المأفون من الأصل... إنهم أتفه من أن يهتم بهم أحد بما يكفي ليتآمر على عِرقهم المزعوم... علهم يعلموا أنهم جماعة من المخابيل اصطنعوا وهمًا وصدقوه ودفنوا أجيالاً بجواره.

أخذت صبا تطالع جراح دياب التي بدا أنها تبصرها للمرة الأولى... دارت بأناملها على بشرته، تتحسسه... فأصابه التنميل لملامستها... تلاقت الأعين، تتحدث للحظة بالمسكوت عنه... ثم تلاقت الشفاه لتكمل باقي الحديث الذي تعجز عن حمل معانيه الكلمات الفقيرة... ذابت صِبا... تاهت عن نفسها وعن محيطها... غرق دياب... توارت النجوم واختفت الأصوات ولم يبق سواهما... تبتلعهما نشوة عميقة... يغرقان بلا مقاومة... توارت الجراح وابتلع النسيان السوكاندو والخدم القابعين به... لم يبق في هذا الكون سواهما... ضمها إليه أكثر حتى التحما... يريد أن تختفي فيه وأن يختفي فيها... كان ذلك قبل أن ترتد عنه صبا كالملسوعة بلا مقدمات

ـ ماينفعش يا دياب

هكذا قالت وأخذت تستر جسدًا لم يتعرَّ... كانت أنفاسه لا تزال متهدجة، لكن نفرتها عنه كانت أشد عليه من جراحه التي تحملها من أجلها... أهو الدين؟ ألا يعبدون نفس الرب؟ أليس الرب محبة؟ هل يصنع فارقًا أن يخبرها أن أباه كان على دينها؟ هل يجعل منه ذلك نصف مسلم؟ نصف إنسان؟ أم يجعله مسخًا؟ أم هو الخوف من العار؟ تذكر دياب الجدة الكبيرة التي لم تغفر لابنتها ذات الفعلة، زفر فخرج النفس يحمل حممًا من صدره... جال بخاطره أنه ربما في مكان آخر... أو ربما في زمان آخر، لم يكن يحول شيء بين اثنين قررا أن يتحابا... فقط ربما... غلفهما صمت مهيب، قبل أن تقطعه صِبا وهي تشد ثوبها عليها

ـ أنا حاروح اشوف الخواجة

(٩)

تمكنت الحمى من الخواجة بعد أن تقرحت جروحه، وصار يهذي بكلام لا يُفسر منه إلا اسم ابنه... بنيامين... هجر الخدم زيارته وكادوا ينسون أمره، حتى فوجئوا ذات صباح بمرعي وعصبته يلقون بجسده المتورم على فراش خالٍ في قلب السوكاندو... راحت صبا تولول وتدعو بلا توقف

ـ إلاهي ينتقم منكم يا ظلمة

قبض مرعي على ذراعها وقال

ـ مامنوش فايدة اللي بتعمليه ده... اتداري خلي الخلق ينسوا عملتكم المطينة انتي والخواجة

أصابها الغثيان من رائحته التي يختلط فيها الزيت بالتبغ برائحة الهرم... أفلتت ذراعها وأخذت بيده لتضعها على جبهة الخواجة المحترق بالحمى... طالعته بنظرة تفيض كراهية وهي تقول

ـ الراجل بيموت يا مرعي... لو عايز الصالح هات له حكيم، قبل ما تروحوا كلكم في داهية

ـ الشيخ جبريل موجود

صاحت صبا بشيء، لكن صوتها ضاع وسط لغط وزعيق الخدم الذين تحلقوا حول مرعي... يرمون الخواجة بنظرات تفيض تقززًا كأنه مرض زرع بينهم... يعلو تذمرهم من منظر جروحه وقدمه الملتوية... عدل مرعي جلبابه الذي أصابه بعض الدماء وهو يقول

ـ هو غِلط آه بس لازم نمشي بالأصول... ويصح يبقى قريب من الشيخ جبريل... يطل عليه ويراعيه... الأصول كده، أومال

طالعته وجوه الخدم البليدة... فنكز القصبي بعصاه الأرض وقال

ـ نبعت له الشيخ جبريل يراعيه في مطرحه يا مرعي... جرى إيه؟ السوكاندو قد الحُق... واحنا مش ناقصين

نفض نعيم كفيه بعد أن ألقى حقيبة الخواجة الممزقة بجواره وقال

ـ يا اخواننا راعونا احنا شوية... إحنا بنبات كل ليلة في الطل لما البرد نشر عضمنا... ويصح نبات في أوضة الخواجة، ما هي أقرب للبوابة

تملك الغضب من القصبي وعاود نكز الأرض بعصاه وهو يصيح

ـ قولوا كده... وعلشان تباتم انتم في الأوضة، تبلونا البلوة دي

ارتفع سباب صِبا ودعاؤها على الخدم من جديد عندما تأوه الخواجة... فتصنع مرعي الانشغال في وضع حاجيات الرجل بجوار الفراش، وظل يهمهم إلى أن تسلل خارجًا مع عصبته.

مرت الأيام ثقيلة على قاطني السوكاندو، بعد أن استقر الخواجة دواود بين ظهرانيهم... لكن وطأتها كانت أقسى ما يكون على عبدون...

لم تكن حياة عبدون إلا ركامًا من الأكاذيب والحكاوي تعينه على صلف المعيشة... تخلق له واقعًا يتوهم لنفسه فيه القليل من البطولات... كثيرًا ما ينسى أنها حكاوي ويصدقها... لتواجهه الحقيقة في أيامه السيئة فيعشش الظلام في روحه كما يحدث معه الآن... الكذبة الأخيرة على وجه التحديد تخنقه... تحدق فيه نتائجها ليل نهار... يحرمه أنين الخواجة النوم وتطارده لعنات توحيدة في منامه حين يغفو... يهرب إلى غرفة البك الخالية، يحدث نفسه أنه لم يتعد على الخواجة... الخدم مسؤولون عما أصابه... هم من تلبستهم الشياطين وأصابهم السعار... لكن مأدبة الطعام أمامه تضحد تلك الكذبة على الفور... فتعاوده الكآبة.

يهبط عبدون إلى السوكاندو في المساء... يسمع الخدم يجادلون مرعي عسكر كلما جاء مع زمرته ليتراصوا على طاولة الطعام

ـ هو مش واجب برضو اننا نبعد عن الخواجة؟ بعدين حد منا يلقط منه المرض

هكذا قال القصبي تلك الليلة وهو يشير باشمئزاز لصِبا التي تبلل جبهة الخواجة لخفض حرارته... لم يجب مرعي فيما تصنع عبدون الانشغال في انتظار الطعام، حتى جاء الشحات بأولى القصاع... خبط القصبي بيده على الطاولة وأشار للشحات كي يزيد خاله من الطعام عن القدر المعلوم

ـ مالك ماسك إيديك كده ليه يا وله؟ الراجل سهران طول الليل مع الرجالة على حراسة السرايا... ماتبقاش نتن

زاد الشحات في صحن مرعي قدر غرفتين... فيما راح عبدون يراقب بطرف عينه أم الخير وهي تحاول أن تضع بعض الطعام اللين في فم الخواجة... استطرد القصبي بعد أن ابتعد الشحات

ـ لازم تنقله من هنا يا مرعي... أنا باقول لك آهو... ماحدش عارف ينام طول ما البلا ده في

وسطينا... الهلاوس مابقتش تسيبه

ـ أنقله اوديه فين بس؟

هكذا قال مرعي عسكر أخيرا وهو يلوك لقمة السبانخ، فيما ثارت جلبة من ناحية فراش الخواجة حين أبت معدته أن تستبقي الطعام... شرعت أم الخير وصِبا في تغيير ملابسه بعد أن لوثها القيء للمرة الثانية منذ الصباح... فاحتدت أم زكي على مرعي

ـ ارميه في أي خرارة... آهو ده اللي احنا قاعدين فيه ليل نهار... دي مابقتش عيشة

ـ لا مايصحش كده يا اخواننا

هكذا قال عبدون حين لم يعد الصمت محتملاً... هز القصبي رأسه إيجابا وقال بصوت كالفحيح

ـ عبدون عنده حق... مايصحش نرمي الخواجة في أي حته والسلام... دي العشرة ماتهونش الا على ولاد الحرام

نظر القصبي إلى مرعي مليًا قبل أن يستطرد

ـ إنت قلت ان المفروض الشيخ جبريل ياخد باله من الخواجة...

أومأ مرعي، فربت عليه العجوز في رضا وعاد بظهره إلى الخلف قبل أن يستطرد

ـ والشيخ جبريل أغلب وقته في الاسطبل يا مرعي... شغله هناك يا أخي... يبقى نفضي للخواجة الركابخانة اللي في الاسطبل

لم تعد تمضي ليلة دون أن يشكو الخدم أنين الخواجة الذي يكاد يصيبهم بالجنون... حتى بعد أن انقطع مرعي عن الأكل في السوكاندو، صاروا يأتونه جماعات وأفرادا، يسوقهم القصبي... يتوسلون إليه أن ينقله... حتى اضطر في النهاية لإفراغ الركابخانة من السروج والمخالي والكنابيش... ونقل إليها فراشًا سارع الخدم بإلقاء الخواجة فوقه... ثارت ثائرة دياب وبعض الجناينية... تعالت اعتراضات صبا وبعض النسوة... ورغم ما يعتمل في نفسه أطبق عبدون فمه وصمت.

قادته قدماه الثقيلتان إلى الركابخانة... لم يتأفف عبدون من رائحة الغرفة الخانقة، أو لعله لم يلحظها... كانت صِبا تنظف الفراش بعد أن تقيأ الخواجة ما ألقمته، تخالط القيء دماء سوداء أتت من جوفه... تقول بصوت متهدج كأنما تعتذر إن الحمى قد ساءت... ربت عليها عبدون وبنظرة واحدة إلى جسد الخواجة الذي برزت عظامه، أيقن أن لا سبيل له إلى الشفاء، فأخذ يدعو له بالرحمة من طول العذاب.

صارت جلسات عبدون عند الخواجة تطول وتمتد... يقضي جُل وقته يطالع صِبا التي تبقى متكورة بجواره بلا حركة، تزحف على جسدها الظلال وتنحسر... تنتفض عندما تتملك الخواجة الهلاوس... تبلل جبهته، فيما تزوغ عيناه ويظل يردد بصوت خفيض...

«الدنيا حجر طاحون»

ألمت بعبدون رعشة عندما تكشفت أغطية الخواجة عن ساقٍ تقشت بها الغرغرينا... أعاد عبدون الغطاء إلى موضوعه، ومسح عرق الخواجة الذي غطى جبينه وهمس كالمعتذر

ـ مش انت اللي عملت فينا كده يا خواجة؟ إنت اللي لجمت الخدامين في سُوَر السرايا

لم يتوقع عبدون منه ردًا، لذا جفل عندما قال الخواجة بوهن

ـ عبد... المأمور...

كانت أم الخير لا تزال تحيك بعض الأردية الممزقة تحت نور المصِباح عندما زحف عبدون تلك الليلة عائدًا نحو فراشه... غفا سريعًا من الإرهاق، وما هي إلا سويعات بعد أن وضع رأسه حتى ارتفع عويل صِبا التي جاءت تستغيث بالسوكاندو، تصرخ

ـ الخواجة بيطلع في الروح

اندفع عبدون وسط جموع النساء المهرولات نحو الإسطبل... اقترب من باب الركابخانة بخطوات بطيئة ثم تخشب قبل أن يدخل... انقشع عنه النعاس واقشعر جلده حين تبين صوت الحشرجة البشعة... عم صمت لا يتخلله غير همهمات مرتعبة، وصوت النساء يضربن على صدورهن... يرددن بلا انقطاع «يا ساتر استر»... بقي عبدون ساكنًا في موقعه، مسلسلاً بالعجز... يصطدم به الخدم المندفعون لرؤية الخواجة... تتراقص حوله الأشباح التي يلقي بها قنديل زيت يخرج الكثير من الظلال والقليل من الضوء... تاه في أفكاره حتى سمع صوت دياب فانتبه

ـ أنا حاخده اوديه الهوزبتاليا... الراجل حيروح مننا يا عالم

تعالى همس ولغط لم يميز منه عبدون غير صوت نعيم يصيح

ـ تاخده وتروح فين؟ هي سايبة يا بن الغرايبة؟

ـ ملعون أبوك يا نعيم... مش مكفيك اللي حصله من تحت راسكم؟

التوت معدة عبدون عندما أحس بتوتر الحشد في الداخل والعراك الذي يكاد يستعر من جديد، لولا أن صاحت بهم أم الخير

ـ ماعادش ينفع... السر الإلهي طلع

لوهلة خيم صمت مهيب على الركابخانة، حتى ظن عبدون أن قلبه قد توقف عن النبض... صمت لم يقطعه إلا صهيل الخيل المضطربة حوله، كأنما تشعر بحجم المصيبة... ضعفت ركبتاه عن حمله فألصق عبدون ظهره بالحائط وانزلق بجسده أرضًا، راح يهتز كطفل صغير بحثًا عن السكينة... يضرب على فخذيه ويقول

ـ مش انا اللي عملت كده

ظل عبدون يرددها بصوت مرتعش... فيما أخذت صِبا تنوح، تضمها أم الخير فيخرج صوتها مكتومًا بين اللغط

ـ قتلوه الكفرة

(١٠)

ظل مرعي عسكر نزقًا ذاك الأحد، حتى إنه لم يتناول فطوره مع عصبته... جلس يسمع الحرس حوله يتناقلون أخبار السوكاندو، يقول أحدهم

ـ أنا سألت عبدون البيه ماقالش حاجة عن الخواجة، هزلي راسه ومشي

لاك الشيخ جبريل لقمته وقال

ـ والبيه حيقول ايه؟ ماهو الخواجة عارف النظام، إيه بقى اللي خلاه يتهف في نفوخه ويعتب البوابة؟

أخذ مرعي يطالع الأفق من فرجة البوابة حتى تبين أشباحًا تزحف في طريقها إلى السراي، وسمع صرير عجلات الكارو من بعيد، فأمر الخفير بفتح البوابة.

أنزل الخدم أجولة التبن والدريس وتعاونوا على حملها إلى الإسطبل، في حين بقي مرعي يراقب التركي يترجل من العربة الكارو مع كهل ممصوص الجسد بارز العظام كأنما خرج من مجاعة لتوه، يرتدي معطفًا طبيًا مهترئًا وطربوشًا منحولاً

ـ الحكيم اللي طلبته يا سي مرعي

هكذا قال التركي بفخر فعبس مرعي واختلى به

ـ ده منظر حكيم يا بن الهرمة

ـ شوف يا سي مرعي... أنا كل اللي باعمله معاك لاجل العشرة... إنت طالب حد يقول كلمتين ويكتب تقرير... عايز حكيم من الهوزبتاليا اجيب لك، من العين دي قبل العين دي... بس ده بالمفتشي مش حيرضى يعمل اللي انت عايزه... وكله على قد فلوسك

عاود مرعي النظر إلى الحكيم كأنما يزنه... قدر أنه أفضل من حلاق الصحة الذي أتى به مولانا الجابي قديمًا ليعلن الوباء على باب الحجر... على الأقل هذا الأحمق يرتدي معطفًا يكسبه شيئًا من الاحترام.

أنقد مرعي التركي ما اتفقا عليه ثم أشار إلى الحكيم بالاقتراب ليأكل... عملاً بالحكمة الخالدة، أطعم الفم تستحِ العين... وبعد أن انتهى الحكيم من إفطاره نظر مرعي إلى التركي ليؤكد عليه

ـ فهمته المطلوب؟

مسح الحكيم فمه بطرف كمه وقال وهو يتناول قلة الماء

ـ من إيدك دي لإيدك دي يا سي مرعي

ابتسم مرعي فيما عبث الحكيم قليلاً بجيب المعطف، متظاهرًا بالبحث عن سجائره حتى أخرج التركي واحدة وناولها له، فهش وجهه ووضعها في جيبه

ـ نخليها بعد ما نشوف الجتة بقى

تجمع الخدم أمام الإسطبل، يراقبون مرعي وهو يصطحب الحكيم والعربجي إلى الركابخانة... اختفى ثلاثتهم ما بدا للخدم دهرًا، وما أن خرجوا حتى راحت الأعين تتفحص الحكيم، تبحث عما يطمئنها... مسح الحكيم عرقًا باردًا تراكم على جبهته بمنديل قذر، أعاده إلى جيبه قبل أن يبتلع ريقه ويقول بصوت أراد له أن يكون ثابتًا

ـ واضح ان المرحوم كان تعبان من فترة طويلة، والحادثة اللي حصلت له زادت الطين بله...

تزايد عدد الخدم حول الحكيم، يومئ بعضهم تأمينا... يتعالى اللغط والهمس

«مش قلت لك لونه كان مخطوف»

«كان حابس نفسه في الأوضة قبل الحادثة بمدة»

توقف الهمس عندما انضمت صِبا للحلقة، فاستطرد الحكيم

ـ أنا شاكك في فريرة كوليرا طايحة في البلد اليومين دول، والصحة بتحذر منها...

قاطعته صِبا بحدة

- فريرة كوليرا إيه يا حكيم الغبرا؟

ثم التفتت للخدم

- إنتم لقنتم حكيم العربجية يقول ايه... صحيح اللي اختشوا ماتوا

رفع الحكيم الطربوش ومسح بمنديله على صلعته، فيما تكتل الكفراوية يصيحون بها

- إنتي حتعرفي احسن من الحكيم!

- ماتخرسي يا بت

راحت صِبا تسبهم... تصرخ... فيتحلق حولها الخدم... تشي هيئتهم بغدرٍ جديد... دفع دياب أحدهم فأسقطه قبل أن يلمس صبا، ثم سحبها من يدها برفق ليبتعد بها عن حلقة الخدم... تتردد صيحتها في أرجاء الحديقة

- آه يا كفرة

راقبهما مرعي حتى اختفيا ثم أشار للحكيم كي يكمل

- هي مش فاهمة ان فيه فترة ما بين إن المريض يلقط العدوى وظهور أعراض المرض... عمومًا انا كلفت الشيخ جبريل انه يتابع الأمور الفترة الجاية علشان لو فيه حد اتعدى... ولو ظهر حاجة انا حاجي بنفسي تاني... وخلوا بالكم... الكوليرا مافيهاش هزار

ترك مرعي الخدم بين الذهول والغبطة، يطالعون الشيخ جبريل الذي انتشى بمهمته ومكانته الجديدة.

ظلت جثة الخواجة حبيسة الإسطبل حتى عاد التركي بتصريح الدفن الذي استُخرج بتقرير من الحكيم... طالع الكونستبلات التصريح بلا اكتراث عندما عرضه مرعي عليهم... ومع انكسار شمس الظهيرة، تراص عبدون بين الخدم أمام الإسطبل، يراقب السواس يحملون الجثة المغطاة خارج البوابة، يتبعهم اثنان من الجناينية بالفؤوس والمعاول وقد خلعا جلبابيهما استعدادًا للحفر... لم يخرج عبدون خارج الأسوار لكنه ظل يراقب البوابة المغلقة... يسمع صدى المعاول، حتى قطع الصمت وهو يطالع الشمس الغاربة

- هو مش يصح يندفن وسط أهله؟

أشاح الشيخ جبريل بنظره وقال

- الخواجة مقطوع من شجرة من بعد ابنه

تردد القصبي قبل أن يقول

- بيقول لك العربجية مارضيوش يشيلوا الجثة... علشان كده حيدفنوها جنب الخيل اللي بره

لمح عبدون أم الخير تختلس أحد قمصان الخواجة من أغراضه التي تكومت خارج الإسطبل، قبل أن تمد الخطى وتعود نحو السراي

- طب مش كان واجب نصلي عليه ونغسله؟

قالها الشيخ جبريل فخبطه القصبي على رأسه

- نغسله إيه! بيقول لك جته معشش فيها المرض، تقول نغسلها؟ وبعدين هو الهباب اللي بتقربعه ده لحس لك دماغك... ده يهودي... نغسله ونصلي عليه ازاي يا أبو مخ تخين؟

ابتسم الشيخ جبريل وقال

ـ والله عندك حق... الله يرحمه كان راجل ابن مرة

انزوى عبدون في فراشه بعد أن دُفن الخواجة، يلقي عليه مصِباح السوكاندو بظلاله الراجفة... يطالع بلا انتباه سلامة، الجنايني الهزيل، يعيد قصته كالملبوس للمرة العاشرة منذ أن عاد بعد حفر القبر... يقول إن مرعي أمره بحفر قبر كبير خارج السراي... قبر يتسع لعشر جثث... قال إنه رأى بعينيه الحرس يلقون بجثة الخواجة في الجير الحي الذي جلبه التركي...

قرعت الأيام كالحة السواد أجراساها...

تحسس عبدون شراشف فراشه الخضراء ذات الأطراف المهترئة، ووسادته التي تحول لونها إلى لون التراب بفعل العرق فأصابه الغثيان... كان يرى فيما مضى أحاديث دياب، عن جنون الخدم، رعونة نتجت عن قلة خبرة بنواميس الحياة... لكن البقاء بينهم الآن أصبح ضربًا من الخبل... يتخيل عبدون القبر الذي يتسع لعشرة رجال، ويعيد التحديق في الخدم من حوله... يكاد يراهم يلقون بجثته إن أخبرهم بأمر الغرفة الخالية.

(١١)

أطفئت أنوار السوكاندو إلا من ضوء مصِباح زيت كئيب، جلست بجواره أم الخير تحيك قميصًا قديمًا، ضمن كومة قمصان الخواجة التي قررت أن ترتقها بعد وفاته... طالعها الشحات في شفقة، إلى أن دفعه أحدهم إلى قلب الكنيف حين جاء دوره... ركل الشحات أحد الفئران وجلس القرفصاء خلف ستار الظلام يقضي حاجته متحصنًا بعود ثقاب وحيد، سيشعله إن شك أن ما يعبث بمؤخرته أكبر من أبو شبت.

«ربنا حينتقم منا»

هكذا أتاه صوت سلامة الجنايني... يردد عبارته تلك برتابة قاتلة، فراح الخدم ينهرونه ليصمت حتى انقطع صوته... عندما خرج الشحات كان الصمت قد خيم على السوكاندو إلا من أزيز ارتجاج فراش سلامة، الذي ظل يرتعش طوال الليل كأنما أصابته الحمى... يراه الشحات على ضوء مصباح أم الخير المحتضر، يحتضن ركبتيه... يهتز كطفل يبحث عن السكينة، ثم لا يلبث أن يردد من جديد...

«ربنا حينتقم منا»

يحدث بها سلامة نفسه...

لم ينعم الشحات بالنوم من أنين سلامة الذي لم يعد يتوقف... أنين أبقى الراقدين في السوكاندو مستيقظين طوال الليل ينهرون الملعون وينعتونه بالمجنون ابن المجانين، فيزداد أنين سلامة ويعلو نحيبه... انكمش الشحات على نفسه في فراشه، يتحسس أوراق الدومينو تحت وسادته... يتلمس أن تبعث في نفسه بواقي ذكريات جيدة وسط الصياح والأنين.

أتى النهار مع صراخ مرعي عسكر اليومي لإيقاظ النائمين، ومعه الشيخ جبريل... عدل حكيم الخيل من وضع بالطو أبيض ملطخ ببقايا روث عالقة، واقترب من فراش سلامة الجنايني، الذي هب هاربًا كأنما يعلم ما يحاك له... طالعه الشيخ جبريل بفضول لا يخلو من المتعة، فيما قيده اثنان من الخدم وعادا به... أخذ جسد الشحات يرتعد بينما يتفحص الشيخ جبريل الجنايني... يفتح فمه، ينظر في عينيه، يتفحص أطرافه وجبهته كحيوان سقيم... إلى أن نطق الرجل بما ظل الشحات يخشاه طوال حياته

ـ فيه اشتباه في كوليرا...

التصقت عينا الشحات بموطئ قدميه وراح يردد مع كل نفس أن ذكر الوباء حرام... حرام... يسمع الشحات ما يقال متقطعًا بين همسه المحموم

«أخطر حاجة في الكوليرا انها ممكن...»

أنفاس الشحات تذهب عنه... تهجره، فيشهق بحثًا عن الهواء

«حكيم الصحة كلفني افتش...»

اللعنة تلاحقه... يكاد يختنق... يشعر بالتنميل يغزو جبهته

«مافيش اعتبارات لأخوة وزمالة دلوقتي...»

حرام... حرام... يرددها الشحات كي لا يسمع المزيد

«الخطر شديد... حتموتو كُلكم...»

دياب يصيح... لا يدري الشحات ماذا يقول... فقط يرى فمه يتحرك...

«تخاريف... حمى... كلام غريب... لازم يتعزل... اا...»

يرى الشحات وجه صِبا يحتقن... يرى الخدم يدفعون دياب فيقع الجميع... لا... لم يقع أحد... هو من سقط... سقط كجوال مُلئ طوبًا فضرب برأسه أرضية السوكاندو الإسمنتية وعم الظلام.

عندما أفاق الشحات كان الشيخ جبريل قد رحل، ورحل معه سلامة الجناييني... هكذا يقولون... رحل... كأنما اختار الرحيل طواعية... كأنما لم يُحمل المسكين يخور كثور مذبوح بينما هم مطرقون أرضًا... قالوا إن الركابخانة تحولت إلى حجر صحي، كي لا تنتشر الكوليرا بينهم ويصيبهم الخبل الذي أصابه... سيعزل سلامة هناك ريثما يبت أمره الشيخ جبريل...

متى أسموا الركابخانة بالعزل... كم بقي الشحات غائبًا عن الوعي!

مرت الأيام على الشحات كطيف باهت... يحاول ألا يرى وألا يسمع... يحاول ألا يشعر... يراقب أم الخير التي جلست في ركنها بعيدًا عن الأعين، ترتق ثقوب قميص سلامة القابع في العزل... لا يدري لمَ أحس الشحات أنها تملك حكمة عظيمة في التعامل مع الجنون المستشري... حكمة الصمت حين يصير الاعتراض على الجنون في حد ذاته، جنونًا.

لاذ الشحات بالصمت وهو يشاهد ذكرى سلامة تلطخ... وهو يرى دياب يظهر كل يوم بجروح طازجة من أثر شجار جديد مع الخدم... لم يعترض الشحات عندما أمروه أن يقف في طابور الفرز على الشيخ جبريل... لم يفكر كيف أصبح كل من ينكر وجود البك في غرفته أو يفكر في الرحيل عليلاً بالكوليرا وجب عزله... يقشعر جسده كلما خمشت أصابع أحد الموبوئين أرض السوكاندو وهو يُجر إلى الظلام تشيعه لعنات الكفراوية... يضطرب قلب الشحات كلما أدرك أنهم يبدأون بالضعفاء من أمثاله... فيزادد انكماشه على نفسه.

ظل الشحات في تلك الحالة من الخدر، يأتيه دياب كل ليلة كعادته بعد فرز الشيخ جبريل... يشكك في كل شيء... يشكك في البشارة والوباء وحكاوي عبدون ووجود الجابي في غرفته... يذكره بالقبر الذي يتسع لعشر جثث... يحدثه عن الشجاعة والرجولة والتضحية، فيطالعه الشحات بعينين خاويتين وينتظر حتى يمل دياب ويرحل... يتساءل الشحات في سكون الليل، كيف لا يكترث دياب الأعمى بتضحيته هو... لا يدرك المغرور ما يتطلبه الأمر كي يبقي عينيه ملتصقتين بذلك الخط اللعين مع كل تفتيش... ألا ينطق... ألا يرى... ويحدثه عن الشجاعة... متى أصبح الصياح شجاعة... قد لا يقدر

دياب ما اضطر الشحات لتحمله طوال حياته من جراء فعلة أبيه الذي قرر أن يتكلم... لكنه لا بد أن يكون أحمق كي يعتقد أنه سيقدم على تكرارها... فليذهب جميع ساكني هذا السوكاندو إلى العزل، لن يحرك ذلك في الشحات شعرة... فليذهبوا إلى الجحيم ذاته، لن يأبه... لن يدفعه استجداء أيهم ليلقي بنفسه في التهلكة... أحمق من يعتقد أنه يمكنه أن يغير قواعد الكون بتلك البساطة... لكن دياب يأبى فهم أسلوب الحياة هنا.

سمعه الشحات هذه الليلة بنصف انتباه يقول

ـ الخوف عامي البصاير... لازمًا نتكلم لحد ما الخدم يفوقوا... لازم نوريهم اللي هم رافضين يشوفوه... الأوضة فاضية يا فاروق

اكتفى الشحات بمطالعة وجه دياب الذي ازدان بالمزيد من الكدمات

ـ إنت اتعاركت تاني يا دياب؟

هكذا قال بصوت هادئ... بصوت غائب... فتلبست الشياطين دياب... طفق يلعنه ويلعن صمته... يقول إنه مثل الخدم، يشعر بالراحة لكونه مجبرًا على البقاء ويفضل أن يبقى مسلوب الاختيار... ثم صاح به

ـ جرى لك ايه يا شحات؟ ما تفوق يا أخي

أوجعته الكلمة... كانت تلك أول مرة يدعوه فيها دياب بالشحات... ورغم أنه لم يُدْع من أهالي الكفر إلا بالشحات فإن وقعها من دياب كان مسيئًا

ـ أنا ماسميش شحات يا بن الحرام

هكذا صاح قبل أن تخترق الكلمة أذنه

ابن الحرام!

خرجت من فمه لكنه... لا، لم يقلها... لم يكن يعيها... لم يعنِها.

تراجع الشحات خطوة إلى الخلف عندما رأى وجه دياب يحتقن وعروقه تنفر، لكنه لم يستطع تجنب اللطمة التي هوت على وجهه وأرسلته أرضًا... كانت أذن الشحات تطن من أثر اللطمة حين سمع خاله مرعي يصيح

ـ عايز منه إيه يا بن الغرايبة؟

ـ خليك في حالك يا كلب الجابي

هكذا هدر صوت دياب الأجش، يطل الجنون من عينيه... جحظت عينا مرعي فلم يهتز دياب وحملق فيه بعينين لا ترمشان... اقترب منه ليشعره بفارق الحجم الهائل بينهما وعلى محياه ابتسامه ساخرة تجاهلها مرعي بعد أن أخذ خطوة إلى الوراء، ليستأنس بعزوته من السواس والخدم

ـ شكل قعدتك كتير جنب سلامة الجنايني خلتك لقطت منه اللطف يا بن الحرام

أدرك الشحات ما يرمي إليه خاله فانقبض صدره... تمنى من أعماق قلبه أن يدرك دياب ما ينتظره إن لم يلن... تمنى أن يخرس ولو مرة في حياته... لكنه لم يصمت... تداخل سباب دياب مع هياج الخدم الذين بدؤوا في التصايح

ـ بيتشطر على الغلبان

ـ أما ابن حرام صحيح

ـ الفريرة صابت ابن الغرايبة

يصرخون... فيتداخل الكلام وترتفع الأصوات ويزداد ارتعاش الشحات... بدأ التدافع وتكاتف الرجال واتقد العراك ... يكرر دياب مأساة أبيه الأفندي... لم يتعلم من الدرس القديم... الصمت نجاة... حتى إن كان عن الجنون والقتل والعبث... لكن الأحمق لم يصمت!

ابتعد الشحات عن الدائرة التي ابتلعت دياب... انضم إلى كومة البشر المنكمشين في جلودهم بعيدًا عن حلقة الصراع... تكالب خمسة من الحرس على دياب الذي راح يقاتل ويضرب ويركل... سمع الشحات أم الخير بجواره تقول

ـ ده حرام يا عالم

يسمع دوى شهقات ارتياع صِبا التي تحاول النسوة تكبيلها... اغرورقت عينا الشحات وسقطتا أرضًا، تبحثان بين الدموع عن خط الخدم... يهتف دياب بلا توقف، فيجاهد كي لا يسمع ما يقول... يجاهد كي لا يميز صياحه

ـ أنا مسامح يا خال... سيبه اللـه لا يسيئك

هكذا همس الشحات بصوت مرتعش، فدفعه مرعي ليفترش الأرض من جديد قبل أن يصيح به

ـ مالكش صالح انت... غور انده نعيم

(١٢)

بينما العراك على أشده في السوكاندو، استتر سفرجي قصير في ظل صديقه السايس البدين، وانسلا معًا إلى الإسطبل، حيث ما زال همس سلامة الجنايني يتسرب من العزل

«ربنا حينتقم منا كلنا»

تعاونا سريعًا على نقل سلم خشبي أخفياه خلف معلف الخيل منذ أيام... حملاه دون عناء وتسللا في الحديقة يحتميان بستر الليل... وباستثناء واحد من حراس مرعي جلس يدخن وحيدًا بجوار البوابة، خلت باحة السراي من البشر... لن يجدا أفضل من هذه الليلة لتنفيذ ما اتفقا عليه، الخدم مشغولون بالعراك، البدر سيضيء الطريق خارج السراي، وعندما يدركون اختفائهما سيكونان على مشارف القاهرة.

رغم طول السلم، تمكن السفرجي بصعوبة من اعتلاء السور... لبد على قمته وأشار لصاحبه السمين كي يسرع... همس السايس وهو يحاول ارتقاء السلم بشق الأنفس أنه يسمع صوت مواء... أرهف السفرجي السمع فلم يسمع إلا عواء ذئب بعيد، فنهره قائلاً

ـ هو فيه قطط في السرايا يا بغل!

توقف السايس في منتصف السلم... يعدل من نظارته الطبية ويرنو إلى الأرض التي بدت بعيدة... رأى السفرجي التردد في عيني زميله فصاح به

ـ لو خايف تقزح من على السور خليك متعلق كده ع السلم... لا طايل سما ولا أرض

هكذا قال والتقم طرف جلبابه في فمه، وهم بالقفز إلى الحرية... وما كاد يفعل حتى التقطت أذناه

الصوت الذي حدثه عنه السايس لتوه... أرهف السمع... لم يكن ما التقطته أذنا الأحمق مواء قطط، بل آهات نشوة وجنون شبق... بالكاد تبين على ضوء القمر شبحين متلاحمين عند نهاية السور قرب الإسطبل... أحد ملاعين السوكاندو يضاجع امرأة رفعت رداءها واستندت إلى سور السراي، لتوليه مؤخرتها.

ـ آه يا بن الكلب

هكذا همس السفرجي وندت عنه ابتسامة عندما ميز نعيم، لكنه لم يتبين المرأة التي ارتفعت آهاتها فيما تسارعت وتيرة أداء نعيم.

انتبه السفرجي عندما سمع جلبة صاحبه فوق السلم، يصارع سمنته كي يعدل من وضعه قبل أن يقفز عائدًا إلى الحديقة

ـ استنى!

هكذا همس، وراح يشير إليه ألا يقفز

ـ استنى اللـه يلعنك

لكن السايس كان قد ألقى بنفسه وسقط، يصرخ كأنما يهوي من السماء بجلبة أيقظت الموتى.

جثا الجنايني على السور، تنبض كل عروق جسده بالخوف، وأشار لزميله القابع بين نباتات الحديقة أن يكتم نفسه... تبحث عيناه في لوعه عن الشبحين اللذين هجرا مكانهما... أبصر بعد وهلة المرأة ترفل في ردائها الذي أسدلته، تهرول نحو السوكاندو... فيما أخذ شبح نعيم يعدل من ملابسه... يسترشد طريقه بضوء القمر... يتقدم نعيم بحذر من موقع زميله الجاثي بين نباتات الحديقة

ـ اطلع... نعيم جاي لك

هكذا قال فازداد أنين السايس

ـ بقول لك جاي لك... فِزّ

هم السايس بالطلوع ليلحق بصاحبه لكن نعيم انقض عليه وأمسك بتلابيب جلبابه وأسقطه

ـ على فين يا بن الصرمة

هكذا قال نعيم فأخذ السايس يعول

ـ الحقني يا محمد

لكن السفرجي كان قد ألقى بنفسه من فوق السور إلى خارج السراي، ثم أطلق ساقيه للريح... لم يجب السايس غير وقع خطوات صديقه تبتعد... تبتلعها الصحراء.

على الجهة الأخرى كانت فضيلة تركض بدورها، تسعى لتعود إلى السوكاندو قبل أن ينفضح أمرها... تخشبت عندما ارتفع صياح نعيم على زميله لدى البوابة ليعاونه... كانت لا تزال تلهث حين خرج بعض الخدم يهرولون على صوت الجلبة، فاختلطت بهم... لم ينتبه أحد لها، لكنها ظلت تعدل من ردائها وهي تسير بينهم نحو نعيم وزميله اللذين اقتادا السايس إلى الإسطبل... ينهالان عليه صفعًا فينتفض جسده السمين بين الصفعة والأخرى... يتحسس حوله باحثًا عن نظارته الطبية التي طاحت، بلا جدوى... يصرخ بصوت متهدج يوشك أن يتحول بكاءً وهو يشير إلى غرفة الجابي بك

ـ الحقني يا سعادة البيه

راحت أرجل الخدم تركله وتدفعه الأيادي نحو مكان لا بد أنه لم يكن يراه بوضوح، لكنه يعلمه... يسمع أنين من به... اقتربت فضيلة مع الخدم من الإسطبل، حيث صوت سلامة الجنايني الضعيف الذي لا يتوقف

«ربنا حينتقم منا كلنا»

يصرخ السايس

«يا سعادة البيه»

تراه فضيلة يحاول أن يقاوم تارة ويتشبث بأشجار الحديقة تارة أخرى... فيبصق على وجهه نعيم الذي لا تزال آثاره على أردافها... فتكرهه... وتكره نفسها...

تعاون الخدم على سحب السايس كالنعاج إلى العزل... اختلجت شفتا فضيلة وتملكتها ارتعاشة سرت من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، عندما صرخ السايس قبل أن يلقوا به في غيابة العزل، بأن نعيم كان يضاجع امرأة عند السور... تمنت أن يكون ما سمعته من وحي خيالاتها... أن يكون ذلك الصوت الذي لا يغادر رأسها يعبث بها مجددًا... لكن فضيلة رأت القصبي يحملق بها فراح جسدها يرتعش... لم يحول القصبي نظره عنها إلا عندما ألقم نعيم السايس لطمة أخرسته قبل أن يغلق الباب، لينضم صراخه إلى من سبقوه في العزل... طالع زوجها نعيم بعين متفحصة، فابتسم وربت على كتفه واكتفى بقوله

ـ الكوليرا لحست نفوخه

حاولت فضيلة أن تسيطر على خطواتها لتبدو ثابتة وهي تتقدم مع الخدم نحو جلبة أكبر في السوكاندو... وما أن دلفت حتى احتواها الصياح وصرير الأسرة التي يحاول دياب التشبث بها كي يبقى في السوكاندو... فيما يتكالب حرس مرعي والخدم على سحبه إلى العزل... هوى نعيم الذي انضم سريعًا إلى القطيع على دياب بعصًا غليظة مرتين، فأطلق خوارًا كعجل جاموس يذبح وأفلت يده... ناوله نعيم ضربه ثالثة، سمعت معها فضيلة تهشم عظامه وهو يهتف

ـ يلا يا نجس

انزوت فضيلة بعيدًا عن طريقهم... ترتعش بلا تحكم كغر مبتل وصوت دياب يخبو شيئًا فشيئًا كلما نجحوا في جره إلى الخارج... حتى اختفى تمامًا.

بقيت فضيلة ساكنة للحظة... تستوعب أن العزل قد ابتلع اثنين من الخدم في ليلة واحدة... ثم انسلت مع النسوة إلى الخدر في صمت، فيما راحت مجموعة من الخدم تسطو على ملاليم كانت في وسادة دياب... سمعت فضيلة النسوة على فراش أم زكي يلُكن سيرة صِبا التي ذهبت وراء ابن الغرايبة إلى العزل، تقول إحداهن

ـ أقطع دراعي من هناهو لو ماكانش بين البت دي والواد القبطي حاجة

ـ أنجاس

كان ذلك آخر ما سمعته فضيلة... أصابها الوهن فألقت بجسدها على الفراش... تحاول أن تستجمع شتات نفسها... تخفي اضطرابها بعد أن عاد ذلك الصوت اللعين، يصرخ في رأسها شامتًا

«بكره الكلام يطولك يا زانية»

يرددها بلا توقف... بلا رحمة... تعاودها نظرة القصبي الغائرة... تدفعها إلى الجنون... أخرجت فضيلة الموسي، وفي غفلة من النسوة حولها جرحت ساعدها... لم يعد لها ما يهون عليها حياتها إلا

هذا الجرح الغائر الذي يترك ندبة تؤلمها كلما لامستها... ضغطت حتى صرخ الألم فعّم الصمت.

وزع الخدم حاجيات السفرجي الهارب والسايس ودياب على السوكاندو... نال فضيلة منها وسادة قديمة كانت أفضل حالاً من وسادتها المهترئة

ـ مال لونك مخطوف كده ليه يا بت؟

هكذا قالت امرأة مكتنزة وهي تناولها الوسادة، فأشاحت فضيلة بوجهها وأسلمت رأسها للوسادة التي تفوح منها رائحة عرق خادم يسكن العزل الآن، وغابت عن الدنيا.

(١٣)

كان مرعي في طابور الفرز مع الشيخ جبريل، يتفحصان الخدم، حين وقعت الواقعة... كان أول ما سمعه مرعي هو زعيق الخفير... كان أول ما رآه حين خرج بين فوج الخدم المهرولين هو الغبار... غبار كثيف انقشع عن سيارتين للشرطة اندفعتا إلى جوف السراي... ساد اللغط وهرول حوله الخدم نحو رتل العساكر الذين أشار لهم كبيرهم باقتحام حرم السراي... ارتقى مرعي خلفهم السلاملك بلا وعي... يتبعه جمع الخدم من الجناينية والعاملين بالإسطبل وحتى الخفير... دخل مرعي السراي التي لم تطأها قدمه من قبل... عقود طويلة يسمع عنها... يسمع عن التماثيل التي تملؤها وعن قبتها المنيرة... لكن مرعي لم يكن يبصر أيًا من ذلك الآن... كان وجهه شاحبًا كوجوه الموتى... يتابع العساكر الذين انتشروا في أرجائها كالنمل... فتشوا الطابق الأرضي وعاثوا فسادًا في غرفة مكتب البك، قبل أن يرتقوا الدرج إلى الطابق العلوي... سقط قلبه من بين ضلوعه حين أخذوا يقتحمون الغرف... الواحدة تلو الأخرى... تبعهم مرعي بلا تروٍ... لم يعد يخشى العواقب... كان عليه أن يكون بجانب سيده الآن.

سار مرعي بين العساكر، ومن خلفه طابور الخدم الوجل... يرى أبواب الغرف تفتح وتغلق... يسمع بعدها

«ماحدش هنا يا فندم»...

ليفتح باب جديد وغرفة جديدة... يتعالى لغط العساكر... تخذله قدماه عندما يمد الخطى نحو غرفة النوم الرئيسية عند نهاية الردهة... شيء ما ينبئه بما سيراه... ربما كان وجه عبدون الذي انسحب منه الدم... لكن مرعي رفض أن يصدق... راح يتصبب عرقًا ويزداد جسده ارتجافًا كلما تبين تلك الكلمة التي راحت تتردد بين العساكر

هرب...

هرب...

هرب...

يصرخ اليوزباشي في الخدم

ـ فين سيدكم؟

يشير الخدم إلى الغرفة الخالية فيزداد انفعاله.

وقف مرعي يطالع الغرفة... يحاول أن يخفي ارتعاش أطرافه... فيما اقترب الشيخ جبريل بحذر من أكبر الضباط رتبة

ـ خير يا سعادة اليوزباشي

طالع الضابط معطف الشيخ جبريل القذر بازدراء قبل أن يقول

ـ سليمان الجابي مطلوب للنيابة

لم يبق العساكر في السراي طويلاً... رحلوا تاركين الخدم كعرائس انقطعت حبالها فبقيت ملقاه بلا معنى على باب الغرفة... تجمعوا حول مرعي... كلٌ يريد أن يفهم ما الذي جرى... ما الذي تعنيه هذه الغرفة الخالية... ولا أحد يجرؤ على الكلام... حتى قطع القصبي الصمت الثقيل بقوله

ـ هو الجابي بيه فين يا مرعي؟

تجمع حوله بعض الخدم، يحاولون استنطاقه، الحمقى يفترضون أنه يعلم ما لا يعلمون... يودون سماع رواية تشفي حيرتهم عن اختفاء سيدهم... لكن مرعي لم يكن يملك ما يقوله

ـ ماعرفش

هكذا تمتم مرعي... انطفأ النور في أغلب الأعين التي تطالعه... أعين غائرة تجوب أرجاء الغرفة الفارغة ثم تحدق في عبدون الذي انكمش في الزاوية وحيدًا... تسأله الأعين قبل الألسن

ـ فين البيه يا عبدون؟

لم يسمع مرعي عسكر الجدل والصراخ الذي احتدم... جلس أرضًا، يطالع جدران الغرفة... يطالع بدلة سيده العسكرية... يسمع اللغط من حوله مكتومًا... يشعر بيد نعيم تقيمه... يرى شفتي نعيم تتحركان... يهيأ له أنه يقول

«قوم يا ابا مرعي... قوم اتصرف... اعمل حاجة»

لكن مرعي لا يدري ما العمل... يسمع صوت عبدون بعيدًا بعد أن ارتد إليه لسانه... يحاول دفع غضب الخدم بقوله

«اللـه أكبر... كرامات مولانا الجابي... شفتوا... بيحمي ابنه...»

عادت قوة مرعي للحظة ثم ذهبت عندما سمع تلك الكلمة الملعونة تتكرر

هرب...

هرب...

يقولها الخدم هذه المرة... لم يعد مرعي يقوى على القيام... ركبتاه أضعف من أن تحملاه... عيناه تخونانه فلا يتبين الوجوه... فقط ظلال تروح وتأتي... لم يعد يرى إلا تقاسيم وجه نعيم التي تشنجت وهو يضغط حروف كلماته في شراسة

ـ النوبة الجاية اللي حيقول على سيده هرب حاحش أجله... وبعدين أرميه بره السرايا للمطاريد ينهشوا لحمه... يا شوية غجر

قال أحد الخدم

ـ واحنا يا نعيم... إحنا... حنعمل ايه؟

ـ كل واحد عارف مطرحه... ومن بكرة كل واحد حيشوف شغله كأن الجابي بيه موجود واكتر... لحد ما نعرف هو فين أو يرجع بالسلامة

لم يصغ الخفير طويلاً لصراخ نعيم... لم يسمع من زعيقه من بعد كلمة «المطاريد» حرفًا...

تعرق وراح يرتج في سمنته وهو يهرول خارج السراي... كان عليه أن يلحق بالكونستبلات الذين انحشروا بين العساكر في السيارتين... حاول استجداءهم ليبقوا... ليحموا السراي من المطاريد... لكن اليوزباشي قال إنه لا معنى لبقائهم بعد هروب البك... حاول الخفير أن يؤكد لهم أنه لم يهرب... وأنه سوف يعود... فلم ينل من اليوزباشي إلا ضحكة ساخرة ظلت تجلجل في عقل الخفير بعد انصرافه.

غابت الشمس وغامت الألوان فأسلم خفير السراي الهزيل نفسه للظلام... يتساءل كيف هرب الجابي بك وهو بالبوابة مع الكونستبلات لا يبرحها... لم يجرؤ الخفير على التساؤل عما يجب عمله... قرر أن يتبع الجمع... يبقى إن بقوا ويرحل إن هموا بالرحيل...

ابتسم الخفير فور أن هداه تفكيره إلى ذلك... لكن الابتسامة انمحت عندما سمع عواء بعيدًا... جفل وركبته العفاريت حين سمع حركة قريبة منه، حتى تبين أن الرياح تعبث بالرمال...

أخذ يتمتم طوال الليل أمام بوابة السراي الضخمة بكل ما يحفظه من القرآن، الذي لم يكن غير سورتي الفاتحة والناس... يحاول أن يصرف ذهنه عن التفكير في أنه صار وحيدًا في مواجهة المطاريد.

سمع الخفير من قبل عبدون يقول إنهم يمارسون السحر الأسود ويسخرون العفاريت لخدمتهم... سمع من قبل أن المطاريد لهم أعين كأعين الجن... أو لعله حلم بذلك... لا يدري... لكن ما لا شك فيه أنهم علموا الآن برحيل الكونستبلات... لا بد أنهم يعدون العدة للهجوم بعد أن أمست السراي لقمة سائغة لهم...

ارتعدت فرائص الغفير عند تلك الخاطرة، فاستعاذ باللـه وأقسم بأغلظ الإيمان في قرارة نفسه أنه لن يبيت ليلة أخرى وحده، إن كتب اللـه له العمر ورأى نور الصباح... يزيده ارتعاش الشومة في يده يقينًا أنه لا يملك مقاومة المطاريد إلا بتلويث أقدامهم ببولته، بعد أن يعبروا على جثته التي ستظل على ارتعاشها بعد أن ينفق من الرعب... كان مجرد التفكير يقتل الغفير، فاسترسل في تلاوة القرآن... وبقي على تلك الحال حتى أشرقت شمس يوم جديد فتنسم الهواء وهنأ نفسه على شجاعته... وقرر ألا يبدد عمره هباءً فجر مقعده الخشبي إلى داخل السراي... وأوصد البوابة من الداخل.

الجزء الثالث

«إنا لفي زمن لفرط شذوذه..

من لا يجن به فليس بعاقل»

أحمد الصافي النجفي

(١)

قام الخدم في الصباح دون أن يصيح بهم أحد كي يستيقظوا... رفعوا رؤوسًا لم يراودها النوم بعد أن أثقلها الفكر... اصطفوا في طابورٍ لم يعد به تدافع... فقد الجميع الرغبة في الحديث، وعم صمت مهيب بعد ليلة عاصفة من جدل لم يفضِ إلا إلى مزيد من الكراهية بين أطراف تتهم بعضها إما بالخبل وإما بالخيانة... ينكز الواحد منهم التائه أمامه في طابور الكنيف كي ينبهه أن دوره قد حان... ليتوه هو بدوره حتى ينكزه من خلفه... يضربون الوجوه بالماء فلا تذهب آثار الكآبة.

في المساء عادوا إلى السوكاندو الذي صار هواؤه ثقيلاً، مكبلاً بالهموم التي تنساب من الصدور مع الأنفاس... تراصوا على المائدة ليلوكوا طعامًا لم يتذوقوا له طعمًا... استحالت الحياة إلى لا شيء... الجميع يفكر في شيء واحد ولا أحد يجرؤ على النطق به كي لا يستعر العراك من جديد... حتى سمعوا فتى ضئيل البنية يرتعش بينما يهمس

ـ وبعدين؟

لم يجبه إلا صوت المضغ

ـ حنفضل كده لحد إمتى؟

قالها باستفسار معتذر... فهوى نعيم على صدغه بكفه... تحلق الخدم حولهما ليكبلوا نعيم الذي كاد يفتك بالفتى الضئيل

ـ ماتخرس بقى... اخرس بقى... ماحدش بيمشي من السرايا من غير إذن الجابي بيه

قالها نعيم بتوحش، كأنما يحدث نفسه... كأنما يريد أن يقتل في داخله ذاك النازع بالمعصية... تردد المصفوع قبل أن يقول من جديد كالمعتذر

ـ أنا ماقلتش نمشي... أنا باسأل بس علشان الجابي بيه...

ابتلع الفتى لسانه حين جاء الشيخ جبريل على عجل، يقول

ـ حلمك باللـه يا نعيم... عايز تقول ايه يا ابني؟

حمى الفتى وجهه من هجوم جديد، وتردد كيف يصيغها كي لا يلقي به الخدم في العزل

ـ أقصد ان الجابي بيه مش هنا

انفجر فيه القصبي بكل ما يعتمل في نفسه من توتر وغضب

ـ النظام موجود

نظرت صبا إلى رؤوس البهائم على أكتاف الكفراوية، تتمايل في استحسان للجنون الذي يتردد، فصرخت

ـ آه يا مخابيل... موتّونا بالحيا علشان البيه... حبستونا وسبتوا توحيدة تموت... قتلتوا الخواجة ورميتوا كل اللي فتح بقه في العزل... كله لازمًا وضروري علشان نظام البيه... نظام حطه حرامي خسيس محبوس بين اربع حيطان

حاولت أم الخير أن تحملها على الصمت، لكن الغضب كان قد بلغ من صبا مبلغه... أشارت حولها وهي تستطرد

ـ وادي اللي نابنا في الآخر... قاعدين بنخدم أوضة فاضية... وحتى لما عرفتوا انها فاضية لسه عايزين تقعدوا وتحبسونا معاكم... مش مكفيكم الدم اللي على إديكم... عايزين تكملوا علينا كلنا... اللي في العزل دول محبوسين فطيس، وجه الوقت اللي لازم يطلعوا فيه

اشتعل السوكاندو بالجدل من جديد... لم يحتمل نعيم كل تلك الهرطقة، فجاء صوته هادرًا وهو يقول

ـ البت دي عايزة فريرة الكوليرا تضرب فيكم

صرخت صِبا

ـ كوليرا إيه يا معاتيه...

ـ نبقى معاتيه احسن ما نبقى كلاب نعض الإيد اللي اتمدت لنا

عاجلتها أم زكي بقولها

ـ ماتختشي على دمك بقى... كل ده علشان ابن الغرايبة يا ناقصة

عدل الشيخ جبريل من معطفه وقال

ـ فين مرعي يا نعيم؟ يشوف لنا صرفة في الهم ده

ـ ملعون أبو مرعي... ملعون أبوكم كلكم... إحنا من بكره نهج من هنا... واللي عايز يبقى يبقى بطوله

هكذا قالت صبا فانضمت إليها خادمة... وثانية... وثالثة... البعض لم يعد يطيق أن يتجرع المزيد من أكاذيب مرعي وعبدون... تجرأ بعضهم على الخوض في المحظور... تحدثوا عن ظلم ابن الجابي وأفعاله الشاذة... عن أنين السراي الذي لم يكن غير أنينه... تحدثت بعض عاملات النظافة عن السوط الذي رأين صِبا تركض به... عاد الهمس بأنه كان عاريًا وهو يضربها في الردهة... رفعت صِبا عينيها إلى الشحات، تستحثه للانضمام لهم، لكنه اكتفى بدفن عينيه في الأرض وأمسك عليه لسانه.

صرخ نعيم ليعلو صوته على الهمس المستشري في السوكاندو

ـ اللي حاعرف انه نطق بكلمة عفشة عن سيده حتبقى 'خرته على إيدي... وبكرة لما الجابي بيه يرجع حيقطع خبر كل اللي فتح بقه

جاوبه صمت مطبق فتمادى نعيم في الصياح حتى بدت سنته المكسورة... ألجم احتمال عودة البك الكثير من الألسنة... وظهر الفزع جليًا على من انفلتت ألسنتهم بالحديث

ـ إحنا نستنا كام يوم... وان ماجدّش جديد نفكر نعمل ايه ساعتها

هكذا قال الشيخ جبريل فهز عبدون رأسه

ـ عين العقل... وبعدين احنا لو خرجنا في الطل ممكن المطاريد يخلصوا علينا... بيقول لك المطاريد دول...

لم تعد صبا تستمع لهراء عبدون... راحت تعض على شفتها السفلى في غيظ... الغضب يتأجج حممًا في أحشائها بلا متنفس، ولسانها يعجز عن مواكبة الجنون... أرادت أن تصرخ فيهم، لكن الأعين التي بدا عليها الرضا لما يقال أخرستها... أرادت أن تدعو اللـه... لكن صبا لم تدر ما الدعوة التي تفلح مع هؤلاء... فراحت تردد

ـ ربنا ياخدكم... ربنا ياخدكم

تكررها بلا انقطاع... ضربت أم زكي على صدرها

ـ يا كبدي... البت جالها لطف

هكذا قالت وهي تطالع صبا باستمتاع من يشاهد قردًا يؤدي رقصة لطيفة... ضحكت بعض النسوة عندما أدركن ما ترمي إليه أم زكي... يزداد هياج صبا، فيزداد ضحك النسوة اللاتي كوّنّ حلقة حولها... تُحرك إحداهن حواجبها لتتلاعب بها، فيما تقول أخرى

- يا حول اللـه يا رب

على مستوى ما من وعي صبا كانت تدرك أنهن يستفززنها لتتفعل... لتبدو كمجنونة حقيقية... سيقلن إن فريرة الكوليرا أصابتها... سيقلن إن سحر المطاريد أصابها... سيقلن أي شيء يسوغ لهن عزلها... لكن صبا لم تعد تستطيع كبح جماح غضبها... ترى فضيلة تضغط على ساعدها وتقول

- كل ده علشان حبيب القلب...

- القبطي!

- وشها مكشوف...

طالعتها عيون النسوة قبل أن تقول فضيلة

- ولا اللي عملته مع البيه!

ما الذي أصاب صبا تلك اللحظة وهي تسمع همسهن... شيء ما انفلت في عقلها وتراءى لها عمرها المغتصب... بدا أن الفرَج الذي منت به نفسها وحدثتها عنه أم الخير لن يأتي... بدا أن القاع الذي ارتضت به يزداد عمقًا، والأوضاع التي حدثت نفسها بأنها لا يمكن أن تسوء عما هي عليه، تزداد سوءًا بأعجوبة

«قادرة»

كان ذلك آخر ما قالته فضيلة قبل أن تهجم صبا وتنشب أظفارها في وجهها.

سمعت صبا أن الغضب يذهب العقل... أنه يغيب الإدراك... لكنها كانت واعية لكل ما تفعله... كانت واعية للصمت الذي عم السوكاندو بعد أن هوت على صدغ فضيلة بلطمة أولى... كانت واعية وهي تضربها كما ضربها البك من قبل... كانت واعية لوقع خطواتها الثابتة وهي تجر فضيلة من شعرها الخشن على أرض السوكاندو القاسية نحو الكنيف...

هذا قبو بلا عقل...

هذا قبو بلا أمل...

هذه حفرة تتسيد فيها الحيوانات على من لا يملك أن يدرأ عن نفسه الأذى... تنتاب صبا نشوة حيوانية وهي تمرغ وجه فضيلة في فتحة الكنيف... وهي تسمعها تشهق من أجل النفس... نشوة جعلتها تتذكر للحظة كلمات دياب عن تحول البشر إلى حيوانات عندما حدثها عن الوباء، لكنها سرعان ما مضت.

تكاتفت النسوة لاقتلاع صِبا التي ترسو فوق فضيلة كطود راسخ... يحاولن خلخلة عزيمتها على أن تبقي وجهها في فتحة الكنيف أبد الدهر... شعرت صبا براحة غريبة وهن يلقين بها بعيدًا لتشهق فضيلة وتنطلق في نوبة من النواح والولولة... شعرت أن بجسدها تعبًا وأنها بحاجة إلى غفوة كأنها لم تذق للنوم طعمًا من قبل... لم يزعج السباب واللعنات والاتهامات بإصابتها بالفريرة نوم صبا... كان نومًا هانئًا، أتاها فيه الهلالي يمتطي حلمها... هلالي أسود ككحل العين... ضخم ذو بأس وشدة لا ترد... انتشلها من بؤس السوكاندو وعبر بها السور العالي بقفزة واحدة من جواده الذي هبط على رقاب الخدم... تاهت صبا وهو يحكي لها سيرته حتى وصلا مشارف القاهرة... حيث كان لهما لقاء... لم تنفر منه هذه المرة... لم يعد هناك ما تخشاه... وهبته نفسها... تركته ينهل منها وراحت تنهل منه... دون أن يرتويا.

(٢)

مرت الأيام التالية على نعيم كدهر... ينتظر أن يظهر عمه مرعي على الخدم كي يشكمهم... لكن عمه بقى مُلْقًى كجوال بصل فاسد بلا نفع... يراه نعيم كل صباح يجر قدميه الرفيعتين إلى الإسطبل، يقبع في عتمته بعيدًا عن الأعين... يدس بعض الأفيون في فمه حتى يغط في النوم طوال النهار... يذهب إليه نعيم ويوقظه بغلظة تزداد بمضي الأيام... يحدثه عن ثرثرة الخدم... عن العقد الذي ينفرط والفوضى التي تستشري... يخبره أن الصمت لن يدوم طويلاً مع انعدام ظهوره... أوباش السوكاندو صاروا يتحدثون بفحش القول عن سيده بعد أن تبدد الخوف... فيهمهم عمه ويزوم ثم لا يلبث أن يلتزم الصمت... يدرك نعيم كم صارت يد عمه مرعي رخوة كلما ارتعشت أطرافه عندما يتصاعد صياح ملاعين العزل بأن الغرفة خالية.

لم يصدق نعيم هراء عبدون عن كرامات الجابي... الحقيقة أنه لا يدري أين ذهب الجابي بك ولا كيف خرج... لكن ما يعلمه نعيم جيدًا هو أن سيده عائد... وإلى حين عودته، كان عليهم أن يحفظوا السراي والنظام... لكن نظرة إلى عمه التائه كانت كافية ليتأكد أن السراي قد خوت على عروشها من الرجال سواه... حِمل كبير سقط على كاهل نعيم... مئات الأشياء كان عليه أن يدبرها في نفس الوقت... كان عليه أن يمنع رعاع الخدم من التمرد على النظام... أن يحمي السراي من الخارج بعد رحيل الكونستبلات... أن يوفر أعلاف الخيل التي بدأت في التناقص... وأن يرشد استهلاك الغلال والطعام الذي سيأتي عليه قطيع الخدم الجائع قريبًا... والأهم، أن يحتفظ بإيمانه أن سيده سيعود، مهما شكك الخونة وضعاف النفوس... كان نعيم يعلم ما يجب فعله، سيستخدم مع الخدم طريقته الوحيدة التي يجيدها... الطريقة التي كان يجب أن تفلح مع فحل الخيل لولا أن أفسدها القصبي اللعين... لكنه تعلم شيئًا مهمًا من تلك الواقعة... أدرك نعيم قيمة الوقت... أدرك أن عليه ألا يتعجل التدخل... سيصبر إلى أن يأتيه الخدم يرجونه كي ينقذهم بعد أن يضجوا من كثرة الجدل والعراك، فلا يعترضون حينها على سوطه وعصاه.

أتته فضيلة تلك الليلة لدى السور... طالع نعيم كدمات وجهها بلا مشاعر قبل أن يديرها ويرفع رداءها... لم تزره النشوة... كان الفعل حيوانيًا بلا روح أو إحساس... سئمها نعيم وصار يشتهي التغيير... سمع صوتها بعيدًا كأنما هو في بطن بئر وهي تنقل له ما فاته من أحاديث السوكاندو... تذكره للمرة الألف بما فعلته بها صبا... تحدثه عن شجار صبا اليومي مع الحرس على باب العزل... والعراك الذي صار يتكرر في السوكاندو كل بضعة أيام كلما ألبت الخدم على العصيان... تغلي الدماء في عروقه فيخرج الغل الذي يعتمل بصدره في جسدها.

جلس نعيم يلهث بجوار الإسطبل... ينفث دخان سيجارته في وجه النجوم، فيما راحت فضيلة تستر نفسها... ترميه بعبارتها التي لا تتغير

ـ دي خلاص عيارها فلت يا نعيم

كان يدرك ذلك جيدًا، لكنه يتشبث بحبال الصبر.

مر فجر مظلم جديد وليلتان بلا نوم على نعيم، قبل أن تأتي ثلاث من خادمات السراي يتشحن بالسواد إلى غرفة الخواجة، حيث يرقد مع عمه... ظل عمه مرعي ممددًا في لباسه الداخلي يطالع جرس الاستدعاء الذي لم يعد يرن، حتى أبصر العجوز النزقة بين الخادمات، تعصب رأسها بتربيعة خشنة كالحة... طالعت أم زكي عمه بازدراء كأنما تنظر إلى برص أجرب وجب سحقه، قبل أن تشير بصمت إلى ركن الحجرة فقام من فوره وضرب وجهه بالماء

ـ يا مُري... مالك كفى اللـه الشر يا سي مرعي؟

هكذا قالت إحداهن ومصت شفتيها بذاك الصوت المميز الذي يقول، يا للخيبة، قبل أن تنزع المنشفه من يد مرعي عسكر وتجمع الملابس الملوثة من أرجاء الغرفة... تزيح عنها الصراصير التي ترتع بينها، فيما شرعت الأخرى في كنس المكان... وحدها أم زكي بقيت منتصبة... يرى نعيم في عينيها عند بغل عقد العزم على رفس عمه.

دفع مرعي عسكر قدميه دفعًا حتى وقف أمام أم زكي، فأشارت إليه ليجلس وهي تقول

- زمام الخدم بيفلت وانت ساكك على نفسك الباب زي المرة المتطلقة... بيقولوا علينا أغبيا، وبيتكلموا عن سيدك الجابي من غير حيا... كلها كام يوم وتلاقي الخدم صروا هدومهم وداسوا عليك وعلى رجّالتك وهم بيخطوا البوابة

ألقى مرعي بجسده على السرير فأنّ خشبه المتهالك... استطردت أم زكي

- زمن الوبا ولاد عسكر وقفوا وقفة رجالة مع مولانا الجابي والمقدس عبد ربه... حاكم هم لو سابوا الأمور الأوباش حيركبوا ويدلدلوا... وقت الجد الكبار لازم يتصرفوا، بس انت خرع... مش هامك غير الملاليم اللي مابقيتش عارف تحصلها

قالتها أم زكي كأنما تبصق عليه، قبل أن تضيف

- خلفة منيلة

رغم عمرها الذي لا بد أنه تخطى المئة لا تزال أم زكي مهيبة الجانب... كلما عمرت ازدادت رهبتها، كأنما قدت من صخر قاس.

ظل نعيم على صمته... تصنع انشغالاً في خلع ملابسه كي تأخذها النسوة ووقف بكلسونه في ركن الغرفة... حتى حدث ما كان ينتظره... أتته أم زكي مع النسوة... قالت إن عليه أن يتدخل... قالت إنه كلما ارتفع صوت بالاعتراض على البقاء نادى رجال الكفر ونساؤه باسمه... جميعهم في ظهره، هم عزوته وهم الأغلبية... لكن المهمة تزداد صعوبة كلما تجرأ الرعاع على الكلام

- والبت اللي مسايرة ابن الغرايبة دايرة تبخ السم في ودان الخدامين، لازم تشوف لك معاها صرفة يا نعيم... عمك إيدك منه والأرض

هكذا قالت فتروّى نعيم قبل أن يقول بدوره

- عايزاني اعمل ايه يعني يا امه؟

- إنت عارف المفروض تعمل ايه... اعمل زي ما جدك عمل زمن الوبا

سرت في جسده قشعريرة لمجرد ذكر الوباء... تتزايد نبرة أم زكي عنفًا وهي تملي على نعيم عدة أسماء ممن قالوا بهروب الجابي، أو ممن ألمحوا إلى مغادرة السراي... أنهت كلامها وصفقت باب الغرفة خلفها فأنّ دماغ نعيم... كان بحاجة إلى كوب من الشاي الثقيل... تلفت حوله بحثًا عما يستره، فلم يجد من ملابسه شيئًا... كأنما تعمدت النسوة أن يتركنه بالكلسون... لم يكن هناك إلا بدلة الخواجة المعلقة بعناية في طرف الغرفة.

تدثر نعيم تلك الليلة ببدلة الخواجة، وخرج ليجلس بين الحرس... التمعت ألسنة اللهب على جبهته وجاءه الشاي، فأخذ يرشف على مهل بينما الحرس يتناولون بقلق ظاهر كثرة الجدل في السوكاندو... طفق نعيم يفكر في ما قالته العجوز... يعبث بشاربه أمام نار الكانون ويفكر في خطوته التالية... كان عليه أن يضرب المربوط كي يخاف السائب... تمامًا كما فعل أجداده إبان الوباء... مجرد أنين الموبوئين سيكون كافيًا لدرع الرعاع.

بحلول الأحد وقف نعيم وسط العربجية ببدلة الخواجة التي تعمد ألا يخلعها... أدرك من همس العربجية أن خبر اختفاء البك قد تسرب اليهم... كما أدرك من نظرات العربجية له أنهم فطنوا إلى أنه الأمر الجديد عليهم... وقفوا يقبض كل منهم على لجام فرسه في صمت... حتى هتف نعيم

ـ كل واحد يروح يشوف حال سبيله... مافيش شرا النهارده

اعتلت الوجوه غمامة من الإحباط واستدار العربجية ليعودوا من حيث أتوا... أشار نعيم للتركي أن يبقى، فتأبط طرف جلبابه وناوله قطعة من الحشيش

ـ صبر نفسك بدي يا سي نعيم... أنا عارف المخزون بيشطب

قلبها نعيم في يده

ـ مالها قليلة كده ليه؟

هز التركي كتفيه وتنهد قائلاً

ـ الحال واقف من ساعة ما البيه مشي

وضعها نعيم في جيبه واختلى به

ـ عايزك تروح وترجع لي بشوية طلبات

أوصى نعيم ببعض الغلال والأعلاف وسم للفئران التي تفشت في السوكاندو... وأكد على التركي أن يأتيه بحداد لتركيب عدد من القضبان وأن يستبدل بباب الركابخانة آخر حديديًا. أنهى نعيم طلباته واستدار عائدًا صوب البوابة، فاستوقفه التركي وحملق فيه

ـ فين فلوس الطلبات يا سي نعيم... لهو انا حاصرف على السرايا ولا إيه؟

حملق فيه نعيم باستنكار

ـ الجابي بيه راجع قريب... الراديون قال كده

طالعه العربجي بشك... لكنه اكتفى بقوله

ـ العين بصيرة والإيد قصيرة... وانت عارف البير وغطاه

ـ استلف يا جدع... جرى إيه... باقول لك البيه راجع... وبكرة الطاق يترد لك طاقين

ظهر التردد على وجه التركي

ـ ده ماكانش نظامي مع سي مرعي

ابتسم نعيم وقبض على كتفي التركي

ـ انسى سي مرعي ده خالص... دلوقتي فيه نظام جديد

(٣)

استيقظ نعيم في الصباح التالي على طرق محموم كاد يقتلع باب غرفة الخواجة... استوقف نعيم أحد الحرس وقام بنفسه ليفتح... ينبّئه قلبه بالطارق... غزت ابتسامة واسعة ملامحه عندما وجدها في وجهه

ـ خطوة عزيزة

لم تلتفت صِبا لسخريته وقالت بلا مقدمات

ـ طلع دياب يا نعيم

نظر نعيم خلفه

ـ تؤ تؤ تؤ...

أوصد الباب وهمس كأنما يخشى إفشاء سرها

ـ هدي أخلاقك اومال... لو حد من الرجالة شافك متعصّبة كده يصدق اللي بيقولوه عليكي النسوان... العزل مرمي فيه كتير، اشمعنى هو اللي جاية تسألي عليه... والكلام بصريح العبارة كتر عليكم... بيقولوا انك كنت ماشية معاه في الحرام... قبطي يا صِبا... يصح!

استمتع باحتقان وجهها الغاضب، والدم الذي يكاد ينبثق من عينيها

ـ إنت غرضك تخلص عليه زي ما خلصت على الخواجة... لكن ده بعدك

ـ مامنوش فايدة الكلام ده

تلجلج لسانها قبل أن يختنق صوتها بين الرجاء والغضب

ـ طلعه يا نعيم

ـ أول ما الشيخ جبريل يقول انه سليم حيطلع طوالي

اكتست ملامح صبا بشراسة مفاجئة، وخمشت وجهه بأظفارها وكادت تقفز فوقه لو لم يحل بينهما اثنان من الحرس، ثبتوها من عنقها إلى جدار الغرفة

ـ آه يا بنت الرافضي

هكذا صرخ نعيم وهو يتحسس وجهه... لم يدر بنفسه إلا وهو يلطمها صائحًا

ـ إنتي لولا مرة كنت دفنتك هنا... لكن وحياة أمك لابكيكي عليه... وافتكري ان مابقاش يطلع غير حسك، والسوكاندو مش حيصبر عليكي كتير... أنا لو منك اتدارى

كان نعيم ينوي أن ينتظر مجيء التركي لتركيب قضبان الحديد قبل أن يبدأ علاجه مع الموبوئين... لكن مجيء صبا نال منه... خوفها على ابن الغرايبة النجس أثار حنقه... اصطحب نعيم عصبته تلك الظهيرة وزحف بهم نحو الإسطبل... تزكم ريح المفسدين النجسة أنفه كلما اقترب من العزل... ملعونون هم في كل دين وكل ملة... يتذكر نعيم جيدًا قول مولانا الجابي إن جزاء من يسعى في إفساد الأرض هو الصلب بعد أن تقطع أيديهم وأرجلهم... وهل هناك إفساد أكبر من إفساد العقول ببذر الفرقة والفتنة... بالأمس أنكروا وجود العِرق واليوم ينكرون عودة الجابي ليقوضوا النظام وتعم الفوضى.

فُتح باب العزل فأخفى القابعون داخله أعينهم اتقاء نور الصباح... كان العزل ساكنًا إلا من همس سلامة الجنايني الذي لا يتوقف... يحدث نفسه كالمجذوب بوسع القبر الذي حفره بيده، ثم يردد

«ربنا حينتقم منا... ربنا حينتقم منا»

كأنما يتعبد بها.

خطا نعيم بتؤدة ليؤكد سطوته، اقترب من ابن الغرايبة، حبيب القلب... طالعه بابتسامة هادئة

ـ منور العزل يا بن الحرام

سكن دياب كعملاق معطوب... مجرد جسد مسجى غطته جراح وسحجات الأمس القريب... اتسعت ابتسامته عندما لم ينطق

ـ مش ترد على اللي بيكلمك... ولا هم الغرايبة كلهم كده ولاد كلب ماعندهمش ذوق ولا أخلاق؟

أطبق على دياب اثنان من الحرس حينما حاول أن يقوم، ضغطوا على جراحه فأنّ واستكان... لم تعد نظرات الاحتقار تكفي نعيم... يتوق لأن يطهر السراي من نجسه... لكن وقته لم يحن بعد، سيستمتع بكسره أولا... سيتركه يموت هذه الليلة في جلده بين المعزولين وهو يسمع أضعفهم ينهار... دارت عينا نعيم في العزل... تحوم على أجساد الكلاب، تزنهم... حتى هدر صوته

ـ هاتولي سلامة الجنايني

هجم ثلاثة من الظلال فتضاءل كُلٌ في ركنه... كُلٌ علِم دوره وأتقنه... الذئاب نبتت لها أنياب، ونما للخراف فرو سميك من الخوف... حاول سلامة أن يلتصق بزملائه... أخذ يضرب بقدميه الهواء وهم يحملونه... يصيح بأنه قد تاب... بأنه لن ينطق من جديد ما حيي... لكن كلماته وقعت على آذان لم تسمع فيها غير الفكاهة... أخذوا يتندرون عليه وينعتونه بالملبوس... جردوه من ملابسه حتى لم يعد يستره إلا لباسه الداخلي، ثم ألقوه في ساحة الإسطبل وأغلقوا باب العزل... حبا على ركبتيه ويديه نحو نعيم

ـ أحب على رجلك يا نعيم... وجلالة اللـه تبت... اقطع لساني لو فتحت بُقي نوبة تانية

دفعه نعيم بقدمه تقززًا... لا يدري لمَ تذكر في تلك اللحظة سيده وهو يخلص الخيل السقيمة من عذابها... لا خير فيمن أصابه الفكر... لم يعد يملك غير حماية باقي القطيع من بلائهم... أشار نعيم للحرس بالبدء، فراح سلامة يشير نحو العزل كالمجنون... يرجو الحرس الذين تحلقوا حوله أن يبدؤوا بتطهير زملائه... فليأخذوا دياب... فليأخذوهم كلهم وليتركوه... سيقول ويفعل ما يريدون فقط لو أنهم تركوه.

هوت اللكمات الأولى مفعمة بالغل والمقت، فتحول استجداء سلامة إلى بكاء وعويل... يصرخ بأن الشيطان الذي يقولون إنه تلبسه قد رحل عنه... يتحول صراخه مع توالي الضرب إلى عواء غير آدمي... يمسك نعيم بمهماز الخيل فيتحامى سلامة ويتكور بانصياع دون مقاومة... يرتفع المهماز ليهوي من جديدة... يغوص في لحمه... يشمئز نعيم من الدماء المتفجرة من جسد سلامة... يعلو حوله صهيل الخيل وتتقافز هائجة في مضاربها... يكبر الحرس قائلين إن الشياطين تنفر من جسده... يستعيذ بعضهم باللـه من الشيطان ويتناوبون عليه... تبحث عينا سلامة المذعورتان عمن تستجير به... يصرخ بنعيم كي يرحمه... لكن نعيم كان ثابتًا... يدرك أن رحمة هذه الساعة ما هي إلا تفريط وتهاون... سيموت هؤلاء وهم يلعنونه... لكنه يسدي خدمة جليلة للأحياء ممن كانوا يقودونهم نحو الهاوية... لا بد للرحمة اليوم أن تكتسي بثوب القسوة...

لا بد للعدالة أن تتشح بثوب الظلم ليتحقق غرضها الأسمى.

ـ حيجي يوم وتموت موتة الكلاب يا نعيم... ربنا حينتقم منك

هكذا اتاه صوت دياب عبر باب العزل، فاقترب نعيم من الباب حتى استند عليه... يسمع أنفاسه على الجهة الأخرى، يتخيل وجهه باهتا من أثر ضرب الأمس ورعب الساعة... كانت عينا نعيم تفيض بكره خالص، كره خام وهو يقول

ـ وإيه كمان؟ إيه كمان يا ابن الحرام؟

يعلم نعيم عسكر أن ابن الغرايبة يمني نفسه الآن بالانتقام...

لا بأس... سيدعه يتسلى بأمانيه... هي مرحلة وقتية، لكن بالغد القريب ستتحول كل أمانيه إلى نيل الخلاص... سيأتي اليوم الذي يرجوه فيه أن يرحمه من الألم والمهانة... والجوع... سمع نعيم أن الأمر لم يستغرق من سلساله النجس أكثر من أسبوعين في عزل الكفر، حتى رجوا مولانا الجابي والمقدس أن يرحماهم... ونعيم يستطيع أن ينتظر أسبوعين.

كان نعيم منتشيًا تلك الليلة، حتى إنه وزع ما تبقى من أفيون عمه على الحرس... مضغ هو قطعته وأشعل النار في الكانون علها تخفف عنهم لسعة البرد... تحلق الرجال حول النار ووضعت الكنكة... استوى المزاج فتندر نعيم على ساق عمه مرعي التي انحسر عنها الجلباب في أثناء نومه، فظهرت رفيعة كالفتلة... ثم تنافس الرجال في إلقاء النكات القبيحة حول كأس من الشاي المعسل... ضحكوا حتى أنهكهم الضحك... شعر نعيم أن الأفيون كبس على قلبه فاضطجع على السور... يملأ صدره الفخر... في ظلمة الليل، عاود نعيم النظر إلى شرفة السراي الرئيسية... تتلاعب بعقله خيالات الأفيون، فيهيأ له أنه يرى سيده هناك، يطالعه بابتسامة راضية... اعتدل نعيم من فوره، لكنه سريعًا ما عاد للواقع المر، بشرفته الفارغة... تخيل وجه سيده عندما يعود ويخبره بما فعل من أجله... سيكون اللقاء حميميًا... سيجالسه وسيقص نعيم عليه كل الحكاوي والمغامرات التي مر بها... كيف آمن بعودته حين عم الشك... وكيف حفظ السراي في غيبته حين تفشت الخيانة... قطعًا سيعينه رئيسًا للخدم... لن يجد من هو أفضل وأحق منه... على تلك الخاطرة المبهجة نام نعيم عسكر تلك الليلة... نام ملء جفنيه وراح يعزف شخيرًا جهوريًا طوال الليل.

(٤)

مرت غيوم هشة فوق السراي، تنظر بمهل إلى أول جثة تخرج من العزل في وضح النهار، قبل أن تمتطي الريح وتذهب دونما اكتراث... تعمد نعيم أن يرى الخدم بأعينهم المصير المحتوم للمعزولين... يجب أن يتعلم الرعاع أن هناك أمورًا لا يجب أن يتكلموا فيها... هي أمور الخاصة... وما كلام العامة بها إلا فتنة أن تركت على غاربها أكلت الأخضر واليابس.

مر الخدم، أفرادا في البداية ثم جماعات، أمام الإسطبل... الجثة موبوءة بحق... عظام بارزة... زرقة تغطي معظم أجزائها... بثور هنا وبثور هناك... بالكاد يتعرفون على سلامة الجنايني الذي سكن معهم السوكاندو لسنوات، بعد أن أسلم الروح في إحدى جلسات التطهير... أخيرا همدت أنفاس من كان يذكرهم بانتقام اللـه... ترك نعيم الجثة يومًا كاملاً أمامهم حتى تأفف الخدم من المنظر والرائحة وطالبوا بإخفائها.

حل الليل فجلس الحرس يتناولون عشاءهم... أشار القصبي إلى الجثة وهو يلوك طعامه وقال

ـ ندفنه بره السراي جنب الخواجة أحسن... بدل مصاريف العربجية

نظر إليه الشيخ جبريل مذهولا

ـ إنت اتجنيت في نفوخك؟ دي جتة راعي فيها المرض... لازم نبعدها عن السرايا قد ما نقدر

تجادل الحرس على مكان دفن سلامة، وعن استخدام بواقي الجير الحي مع جثته حتى رسا نعيم بينهم، فقال أحدهم ليحسم الجدل

ـ حندفنه فين يا سي نعيم؟

ـ في أي خرارة

هكذا قال فعم الصمت والوجوم.

طالع نعيم عسكر القمر الذي بدا له عليلاً بلونه الأصفر القميء... أخذ نفسها عميقًا وأطلقه مكبلاً بالهموم وهو يستطرد

ـ فيه حاجة أهم عايز اكلمكم فيها

ألقى أمامهم بشحيح ما تبقى من النقود التي استولى عليها من غرفة الخواجة... قال إن مصاريف الغلال ونفقات العربجية وتكاليف تعزيز العزل بالحديد قد أكلت جُلها... ثم أخبرهم بكلمات ثقيلة بقرب نفاد المؤن والغلال... لم يبق منها إلا بضع أرادب ذرة لن تصمد طويلاً أمام كل تلك الأفواه الجوعى التي تملأ السوكاندو.

اقترح أحدهم بيع الخيل، لتوفير نفقاتها من جهة والاستفادة من ريع بيعها في جلب الغلال للخدم الذين سيجوعون قريبًا

ـ واقول ايه لسيدك لما يرجع يلاقي الخيل ناقصة؟

صمت الرجل قليلاً ثم أشرق وجهه وهو يقول

ـ قل له انها ماتت واندفنت... ما هي خيل هرمة

أطرق نعيم مليًا، تتلاعب ظلال اللهب بوجهه... ضيق الحال لم يعد يسمح بالتمنع... قال أحدهم على استحياء

ـ ممكن نجمع سلفة لحد ما الجابي بيه يرجع... وهو يردها لنا... ويمكن بالفايظ كمان

بدت ملامح الاستنكار على الحرس، خاصة القصبي، فاستدرك

ـ مش مننا احنا... أقصد من السوكاندو

لانت الملامح ولاك القصبي لقمة وهو يقول

ـ تفتكر يرضوا؟

صاح الشيخ جبريل مستنكرًا

ـ إحنا في وقت عوزة والسرايا محتاجة... داحنا بنقدم روحنا يا جدع بقعدتنا في الطل علشان نحميهم من المطاريد... يقوموا هم يبخلوا بكام مليم!

ثمّن آخر قولَه وأضاف

ـ غيرهم بيشتغلوا بلقمتهم... أيام العز الجابي بيه كان بيدي مهية ولا في الأحلام، وجه الوقت اللي يردوا فيه الجميل

لم يشاركهم نعيم أحاديثهم... كان يدرك خطورة تلك الفكرة، أن يطالب الجوعى بالتخلي عن مدخراتهم لهو أمر جد خطير... فأجل تنفيذها إلى حين.

بعد العشاء اصطحب نعيم الشيخ جبريل إلى السوكاندو في طابور الفرز، همس له

ـ مش عايزين حد يروح العزل النوبة دي... اللي فيهم مكفيهم

أومأ الشيخ جبريل برأسه متفهمًا...

اصطف الخدم في الطابور بمجرد دخولهما السوكاندو... دار نعيم بينهم... يردد دعاءه اليومي

فيؤمن الخدم خلفه... دعا اللـه أن يطهرهم من الكوليرا وأن يرفع عنهم الفكر والحزن... دعا اللـه أن يحفظ السراي والسوكاندو، وأن يرد إليهم سيدهم سالمًا غانمًا... فأمّن الخدم.

أنهى الشيخ جبريل فحصه سريعًا، وكاد ينصرف عندما جاءه أحد الخدم مهرولاً ليبلغ عن زميله الذي يرقد بجواره... قال إنه يشك أن فريرة الكوليرا قد أصابته لأنه سمعه يخرف البارحة... اصطنع الشيخ جبريل إعادة الكشف على الخادم الذي وقف بين يديه يرتعش

ـ مش باين عليك حاجة... بس خلي بالك من اللي بتقوله يا نطع

هكذا قال الشيخ جبريل وصفعه على قفاه، أراد أن يغادر لكن الواشي كان سمجًا كذبابة

ـ دي مش أول مرة يخرف

هكذا قال هامسًا كأنما يبوح بسر... لم يبد أن الشيخ جبريل سيغير رأيه فقال لنعيم مستجديًا

ـ أنا سمعته بوداني دول بيقول كلنا حنموت من الجوع يا سي نعيم

صرفه نعيم بصعوبة، واقتاد الشيخ جبريل خارج السوكاندو من يده، قبل أن يتطوع أحدهم بتقديم خادم جديد للعزل

ـ واللـه انا مابقيتش فاهم العالم دول... هم اللي بيخبصوا على بعض

ـ خايفين على السرايا يا حكيم البهايم

هكذا قال نعيم بصرامة فصمت الشيخ جبريل.

أخذ مقدار الوجبات يتضاءل على مدار الأيام التالية... يأتي نعيم على رأس كل وجبة يذكر الخدم بترشيد الأكل ويوصيهم بالصبر... الفرج قريب... وبحلول الأحد كادت مائدة الإفطار تفرغ إلا من بضع لقيمات لا تغني من جوع... جاء العربجية بحلول العصر بعدد أقل، فصرفهم نعيم واستبقى التركي... انتحى به جانبًا وربت عليه... رسم ابتسامة على وجهه قبل أن يعرض عليه شراء الخيل مقابل جلب الغلال من أجل طعام الخدم

ـ نشتري إيه يا سي نعيم؟ ماتصلي ع النبي كده

هكذا قال التركي بسخرية لم ينجح في إخفائها، أو لعله لم يسع لذلك، فسارع نعيم بقوله

ـ مش بنفس السعر اللي بعتوا بيه

قاطعه التركي بنفاد صبر

ـ ولا بقرش صاغ

ارتقى الرجل العربة الكارو، وقال قبل أن ينطلق

ـ إحنا ممكن ناخد الخيل منك ونريحك من علفها... وكده يبقى عدانا العيب

تركه التركي واقفًا في العراء بعد أن انقلبت الآية... لم تعد السراي تملك ما تقدمه للعربجية، وصاروا هم يملكون كل ما تحتاجه بعد أن أدركوا أنهم ملاذ الخدم الوحيد... جلس نعيم يرمق الأفق في صمت، بينما الحرس يوسعون الحفرة التي ستلقى بها جثة جديدة خرجت لتوها من العزل... لا أحد يقدر الثمن الذي يدفعه نعيم من صحته وعافيته كي يبقى على النظام في السراي... كي يحميها من الفوضى... لا يسمع نعيم من الخدم إلا الشكوى من الكنيف وشح الطعام والتلميحات بالرغبة في الرحيل...

ـ خدم الغبرا

قالها نعيم وهو يبْصق على الجثة المشوهة.

(٥)

أخذ مقعد الشحات يزحف متسللاً داخل المطبخ، بلا اعتراض ظاهر من أم الخير، حتى لاصق طاولة إعداد الطعام... صار يجلس يوميًا إلى جوار النسوة، يعصر ما تبقى من الطماطم ويقشر البصل، فيما توليه أم الخير ظهرها، وتنشغل في غسل صحون السوكاندو التي لا تنتهي... وفي المرات القليلة التي التقت فيها الأعين، كان يرى آثار تلك النظرة اللائمة تندثر، فيبتهج قلبه.

بحلول الظهيرة مر الشحات على الركابخانة التي تسلحت بقضبان الحديد في طاقتها الوحيدة، فمد الخطى بحمله من قصاع الطعام... ذهب بها إلى الحرس خلف أسوار السراي، فأجلسه نعيم ليأكل... دار حديث الحرس عن المطاريد، وعن مملكتهم القائمة على تجارة السلاح والمخدرات... قال عبدون الذي جلس يأكل إنه صادف واحدًا منهم في طريق عودته قبل أن يفرض الجابي بك نظام السراي... اتكأ على ذراعه اليمنى وهو يلوك لقمة تقطر منها المورتة المتخلفة من إذابة الزبدة التي لم تعد تظهر إلا في طعام الحرس، وقال بفخر

ـ عيل عمره تلاتين سنة... طول بعرض تقولش شمشون... شايل سلاح بس قلبه خفيف... وقفني وكان عايز يلطش القرشين اللي كنت مروح بهم... رقعت له صداغه لحد ما بقى يصوت ويقول جاي، ولما صعب عليا سيبته يجري زي العِرسة

اكفهر وجه عبدون عندما قال الشيخ جبريل ساخرًا

ـ ده نضورجي يا عبدون... المطاريد مابينزلوش النواحي دي غير في عزوة، فكرك ده لو من المطاريد كان سابك تعدي من غير ما يقلعك لباسك؟

ماج الحرس بالضحك، وعندما هدأت موجة السخرية مسح أحدهم فمه بظهر يده وقال بجدية وهو يوزع السجائر إن هذه الأيام هي موسم المطاريد

ـ ماهو ماحدش فاضي لهم اليومين دول، الحكومة مشغولة بالحرب... ربنا يستر علينا

أرسل ذلك برعشة في جسد الشحات الذي طالع بطرف عينه الحفرة الكبيرة... وقدر أن المطاريد لن يتعبوا في حفر قبور لهم بعد أن حفروها هم بأنفسهم.

ـ ما نمشي من هنا يا نعيم

هكذا همس الشحات دون وعي، فغلظ نعيم من صوته

ـ ونسيب السرايا؟ ماتسترجل يا خرع

رغم استنكار نعيم، لم يجد الشحات بدًا من الاسترسال

ـ أنا باقول لحد ما الجابي بيه يرجع بالسلامة يعني... قعدتنا هنا مالهاش عازة في سرايا فاضية

تغير وجه نعيم فتضاءل الشحات فيما ابتسم الحرس ابتسامة متشفية

ـ إحنا عندنا استعداد نجوع ونموت علشان السرايا تفضل عمرانة... لكن انت من نفس صنف ابوك العِفش... همتك ضعيفة ومانتاش عارف الصالح فين...

غلفهما الصمت فيما أخذ الحرس يحتسون الشاي بصوت مسموع... راح نعيم يتفرَّس وجه الشحات ليمتحن أثر كلامه فيه، لكن عينيه التصقتا بالأرض... يحمل نعيم في قلبه مشاعر متضاربة تجاه الشحات... تربى على أن يكرهه لكونه ابن النجس الذي أقام الفتنة في الكفر... لكن ضعفه يبعث فيه شعورًا بالذنب... هو في النهاية ابن عمته، التي ألقاها أبوه بيده في غيابات العزل حتى رحلت، فيما كان الشحات لا يزال قطعة لحم حمراء... مسح نعيم يديه في طرف جلبابه وربت على الشحات المنكمش

ـ ماتزعلش... عارف يا وله... إن شاء المولى لما البيه يرجع بالسلامة، حاستأذن لك منه تنزل الكفر تتجوز

ـ أتجوز!

ـ أومال... لازم تتجوز...

ـ ومين ترضى بيا في الكفر

قالها الشحات بصوت خفيض

ـ ماعلش... بكرة الأمور حتتغير... بص حواليك يا شحات... كل الناس اللي صبرت دي لما الجابي بيه يرجع حتنول الرضا... بكرة تترقى يا شحات ويبقى ليك شنة ورنة في الكفر وماحدش يقدر يرفع عينه ف عينك... وساعتها تاخد واحدة من بنات عمتك... خُد واحدة من دمك، تصون عرضك وتريح بالك

تراءى للشحات وجه سعدية ابنة عمته فجفل... لم يدر عن أيه راحة بال يتحدث نعيم

ـ كله إلا سعدية

ـ يا عبيط... إن حبتك حيه اتطوق بيها

ربت نعيم عليه وابتسم

ـ مش عايزك تزعل مني علشان باشد عليك يا وله... إنت عزوتي ف وسط الحَوَش اللي هنا

لم يدرِ الشحات لرضا نعيم عليه سببًا، لكنه كان منتشيًا به... كانت مجرد جلسته إلى جواره وسط الرجال وحديثه معه حلمًا لم يراوده كثيرًا حتى في منامه... حمل الشحات باقي أحلام الترقي وعاد بها إلى السراي مع القصاع الفارغة... دلف إلى البهو، حيث شرعت بعض الخادمات في تغطية جميع النوافذ بالستائر والملايات اتقاءً لقصف الطائرات، كما أوصى خاله مرعي الذي صار يظهر على استحياء... فيما قبعت بقية الخادمات في عمل محموم... يسابقن الزمن تحت قيادة أم زكي العابسة أبدًا، لرفع السجاجيد وجميع أثاث السراي قبل البدء في مسح الأرض... ملأ الشحات صدره من شذا الأباريق العامرة بالماء المعطر بالماورد في أطراف البهو وطالع السلم المفضي إلى غرفة الجابي

بك... حيث يربض المسخ الحجري... يتخيل سيده يهبط من الطابق الأعلى، فيهرول ليحضر له طعام الإفطار مع قهوته المضبوطة في مكتبه... يجلس بعدها البك يطالع الصحف التي تعلن براءته وعودته إلى سدة عمله في الجهادية... يتخيل الشحات الأمور تعود إلى طبيعتها، وتعود معها الحفلات الصاخبة التي طالمًا سمع عنها لتملأ أرجاء السراي بالسعادة والضحكات.

صارت تلك الأحلام هي ملاذ الشحات الوحيد في الأيام الأخيرة، بعد أن اشتد عصف المحنة بالسوكاندو... يلجأ إليها عندما يتصاعد حوله التذمر من نقص الزاد... يتحصن بها كي لا يسمع الهمس الذي يسري بين الخدم عما يجري في العزل وعن الأنين الذي لم يعد يتوقف... ومع تصاعد الهمس تزداد وتيرة طوابير الفرز، حتى ملأ نعيم العزل عن آخره بأكوام البشر... ويزداد حديث نعيم عن نضورجية المطاريد الذين يراقبون السراي، وعن استعداده مع الحرس لهم

ـ إحنا ف خطر يا اخواننا... وماينفعش ف وقت زي ده نتفرق... الصبر

ثم ظهرت عادة جمع الملاليم من الخدم لدفعها للعربجية من أجل الطعام، حتى أصبحت طقسًا يوميًا... يجعل المتخلفين عنه تحت مراقبة الشيخ جبريل الشخصية.

بدأ الأمر حين تبرعت فضيلة بحلقها الذهبي ذات ليلة... تقدمت خطوة خارج طابور الفرز، وخلعت الحلق أمام الخدم... قالت إنها ستتبرع بأغلى ما تملك من حطام الدنيا من أجل السراي... فتجمع في يد نعيم ذلك المساء بعض الحلي وبضعة ملاليم ممن حذوا حذوها... تحملت بعدها فضيلة «علقة» ساخنة من القصبي، الذي كاد يفقد عقله وهو يرى حلق زوجته يضيع منه.

نقل نعيم بعدها فضيلة إلى المطبخ، رغم أنه لم يكن بحاجة إلى عاملة إضافية... لكن نعيم أراد مكافأتها على إخلاصها للسراي فأبعدها عن عذاب أم زكي... استقبلها الشحات والنسوة بالترحاب بعد أن أصبحت رمزًا للتفاني من أجل السراي... لكن الشحات كان يعلم أن النسوة يضمرن لها شرًا... يسمع همسهن كلما قامت فضيلة لتتقيأ عن بطنها الآخذ في الارتفاع...

ـ وماشوفتيش مش طايقة ريحة الأكل ازاي؟ حاجة تعر

تقول أم الخير

ـ ماهي متجوزة يا ولية منك لها

تصدر إحداهن طرقعة من أسفل لسانها تذكره بتوحيدة قبل أن تقول

ـ يا اختى القصبي ده إيدك منه والأرض... راجل في البطاقة بس... البت دايرة على حل شعرها... اسمعي مني

لم يكن همس النسوة يصل فضيلة، لكنها كانت تشعر بفضيحتها تزداد ظهورًا بمرور الأيام... وما هي إلا بضعة أسابيع حتى لا تعود ملابسها الفضفاضة كافية لستْرها... كانت تدرك أن القصبي سيقتلها إن علم... لذا حسمت أمرها وذهبت إلى نعيم... انتحت به جانبًا وأخبرته بالمصيبة... جعلت تولول وتلطم وجهها لكن وجهه بقي خاليًا من التعبيرات... أدركت أنه تحت تأثير الأفيون فعاودت الكرة عدة مرات حتى بهت وذهب عن وجهه اللون... عندها عرفت أن المسطول قد أدرك أخيرا

ـ والعمل يا بنت الرافضي؟ هو انا ناقصك؟

قالها نعيم وأطبق على ساعد فضيلة يجرها إلى ركن مظلم بعيد عن أعين وآذان الحرس... ورغم ما يعصف بكيانها اصطنعت غنجًا وقالت بصوت مرتعش

ـ نهرب سوا من هنا... ويحلها حلال بعد كده

شخر شخرة أقامت شعر جسدها قبل أن يقول

ـ إنتي انطخيتي في نافوخك؟ نخرج من غير إذن ازاي؟ وبعدين ما انتي متجوزة القصبي الاهطل... وعادي تحبلي يعني

تجاهلت وقاحته وقاومت عبرات تريد أن تتحرر من مقلتيها... قالت بصوت متهدج

ـ والنعمة ما لمسني... ماهو كله على يدّك... القصبي حيدبحني لو عرف يا نعيم

ـ خليه يقرب لك وانا ارميه في العزل

ـ والناس يا نعيم... النسوان ماعادلهمش سيرة غيري... حاعمل ايه في الفضيحة؟

ـ بقول لك ايه... شوفي لك حد غيري تلقحي بلاكي عليه

شعرت فضيلة بالغثيان وتزاحمت الدموع في عينيها عندما قال لها إنه ليس بالسذاجة التي تظنها، وما يدريه أنها لا تسرح على جميع رجال السوكاندو... دفعها عنه فتمسكت به... وعندما التقت الأعين، رأت المقت في عينيه الجامدتين... ودت لو أنها صرخت... ودت لو أنها ماتت... ودت لو أنها لم تولد من الأصل... لكنها اكتفت بالرحيل في صمت... تغزو فمها مرارة كالعلقم.

للقهر مرارة لا تزول... تبقى عالقة في الحلق، تزداد مع كل دمعة محتبسه في مقلتي فضيلة كي لا تشمت بها النسوة... كم كانت غبية... كيف لم تَر من قبل أنها كانت تعاشر خنزيرًا لا يحمل في قلبه إلا الكراهية... تركته ينهل من جسدها ولم تخرج منه إلا بالكثير من حكاوي الكَفر وأماني الانتقام من ابن الغرايبة والترقي في السراي... أخرجت الموسي وشمرت عن ساعدها... أعملتها في جسدها فصرخ الألم... ومع الألم راحت تعد نفسها أنها لن تبقى حبيسة هذه السراي حتى ينكشف أمرها... مهما كلفها ذلك.

(٦)

لم يتوقف المطر عن ضرب السراي المستكينة منذ الفجر... أخذت تئن بضعف تحت قرع القطرات المتوالي فيما هرول الشحات بحمله من غداء الحرس... لم يكن يحتمي من المطر بقدر ما كان يهرب من أصوات العواء التي تخرج من العزل... يزلزل كيانه صدى مكتوم لضربات تهبط على لحم آدمي، يتبعها خوار حيوان مطعون... تسارعت خطاه حتى كاد ينكفئ على وجهه... وضع الشحات الطعام وهو يلهث أمام من احتمى في غرفة الخفير من الحرس، وكاد يعود أدراجه عندما جذبه نعيم من ملابسه

ـ خد يا وله هنا

اقترب منه حتى لفحت أنفاسه وجهه، يلمح الشحات في عينيه تلذذًا بإذلاله

ـ الأكل مبلول كده ليه؟

قالها نعيم وصفعه... لم تكن حرارة الصفعة على وجه الشحات أكثر ما آلمه... تلك الأشياء تعتادها بعد عدة مرات، حتى تصبح بالكاد تنتبه لها... أكثر ما آلم الشحات في تلك اللحظة هو انقلاب نعيم من جديد عليه... أوجعه عودة الأمور إلى نصابها الأول قبل أن يشبع من تقبله وسط الرجال... تلجلج الشحات وهو يقول

ـ أصل المطر...

قاطعه نعيم وأمسك بتلابيبه

ـ وبعدين الرجالة يلزمها زيادة ف حصة الأكل يا بقف... دول بيعزقوا طول النهار في حبيبك

هكذا قال نعيم وهو يشير برأسه إلى العزل، ثم أطلق ضحكة مجلجلة وأفلت الشحات... فاكتفى الشحات بأن سحب الصينية، وهرول عائدًا في صمت.

نفض الشحات ثيابه لدى مدخل السراي لكن الحنق ظل عالقًا بروحه... ظل شاردًا حتى أبصر صِبا تتوسط طاولة المطبخ، تقطع البطاطس بين النسوة... لم يحدثها، ولم تحاول أي من النسوة أن يحدثنها... الكل يتحاشى مزاجها النزق مؤخرًا... لكن الشحات سارع بأخذ موقعه على الطاولة وظل يسترق النظرات إليها طوال اليوم... يطالع خصلات شعرها الهائمة حول عينيها المحاطة بحلقات السهر الداكنة... كانت غائبة حتى إنها لم تهتم بوجود فضيلة في المطبخ ولم يندلع بينهما شجار أو تلاسن... حاولت أم الخير إثناءها عن المضي في التقطيع بعد أن كادت تجرح يدها عدة مرات، لكنها أبت أن تترك السكين... يستشعر الشحات الموت البطيء الذي أصابها... لكنها عادت إلى المطبخ... وهذه بداية كافية... ستتعافى صبا... قطعًا ستتعافى.

انشغل الشحات في ترتيب الصحون والتأكد من نظافة الشراشف ولمعان الملاعق الفضية... وبحلول الظلام حمل العشاء مع النسوة واستعد للهبوط إلى السوكاندو... كان ذلك حين رأى صبا تخفي السكين في ثنايا ثيابها... هرب الدم من أطراف الشحات واختلت يده فأسقط عدة أطباق كان يحملها... زعقت فيه النسوة فانتبه وانحنى يجمع ما أسقطه دون أن يرفع عينيه عن صِبا التي انسلت من فورها إلى السوكاندو.

في المساء ظل الشحات يراقب صِبا التي استكانت خلف الخدر، تطالع طاولة الطعام حيث يقبع نعيم الذي جاء للعشاء بينهم مع حرسه اتقاء المطر... راح الشحات يوزع الطعام فيما أطلق خاله مرعي ريحًا اهتزت لها أركان الكنيف، قبل أن يخرج يرفع سرواله ويرخي جلبابه ليتخذ موقعه على الطاولة... لم يبعد الشحات عينيه من على صبا حتى انتهى من توزيع الطعام... يسمع بلا انتباه بعض الخدم يشكون تفشي أبوشبت والفئران في السوكاندو، فوعد نعيم من جديد بأنه سيوصي العربجية بجلب المزيد من سم للفئران.

تسللت أصوات المستغيثين من العزل إلى السوكاندو، فتباطأت اللقيمات في حلوق الخدم المتسلحين بالصمم... يزيد الصمت من ظهور الاستغاثات المختلطة بالأنين... تحاشى الشحات التقاء الأعين، وانشغل بتقطيع الخبز في صحنه حين قال نعيم إن أصوات العواء التي يسمعونها ما هي إلا أصوات الشياطين... تقاوم الخروج من أجساد الممسوسين... قال إن الشيخ جبريل أوصى بتطيهرهم حتى تنجلي عنهم الأرواح الخبيثة التي سكنتهم... لم يسأل أحد عن ماهيّة التطهير، فاستطرد نعيم قائلاً

ـ كله من المطاريد... ماهم عايشين على السحر والعياذ بالل-ه... مش كده ولا إيه يا عم عبدون؟

تردد عبدون ولم يجب فهمهم الخدم

«الل-ه يعينكم على ما بلاكم»

قال نعيم

ـ بيهدوا حيلنا ولاد الرفضي

حشر الشحات لقمة في فمه وصمت، فيما راح الشيخ جبريل يقص عن آثار الدماء السوداء التي رآها

ـ دم شياطين، ربنا يحفظنا

حمد الشحات اللـه حين عمّ الظلام مع انقطاع الكهرباء الذي صار يتكرر مؤخرًا... زحف إلى سريره عندما سكنت الحياة وسرى دبيب أقدام الخدم، وحاول التدثر تحت غطاء الضمور ليحتمي من الأنين المتصاعد من العزل... حاول ألا يسمع إلا صوت من حوله ممن يتدارسون ما سينالهم من الخير فور عبور المحنة وعودة الجابي بك... كيف ستعود سراي الجابي أفضل مكان للخدمة في بر المحروسة... سيصبح للخدم الصابرين مكانة كبيرة، سيترقون وسيصبح للواحد منهم من الأعوان ما يغنيه عن العمل بيده... ستغدو العاملات على النظافة مشرفات وسيصبح الجناينية كنظار العزب... سترتفع الأجور وسيأكلون سمك البكلاه حتى يَملّوه... كل ما عليهم هو الصبر والإيمان، والدعاء بسلامة عودة سيدهم.

انشغل الشحات بدوره في أحلام اليقظة... يرى نفسه يرتدي ملابس السفرجي القيمة... يخطو بها مزهوًا في دروب الكفر الضيقة... يتجاهل عن عمد نظرات الغبن التي تملأ أعين الرجال والنساء المتناثرين على مداخل الدور... تلك النظرات التي طالما اشتاق لها... وسوف...

انقطعت أحلامه وجفل عندما سمع صوتًا بجواره... تبين بصعوبة صِبا تستقر على طرف الفراش... حاول أن يتفقد يديها في عتمة السوكاندو، لكنه لم ير شيئًا... طال الصمت فقطعه متحرجًا

ـ نورتي المطبخ النهارده يا صِبا

ـ شششش... سامع؟

هكذا قالت، فاختلج قلبه عندما هُيئ إليه أن يدًا تحمل سكينًا أشارت للخارج... إلى حيث يأتي الأنين

ـ ربنا حينتقم منا

قالتها بعد طول صمت فازداد تعرقه... قال بهدوء من يخاطب مخبولاً

ـ واحنا عملنا إيه بس يا صِبا... هدي أخلاقك اومال

ـ إحنا اللي عملنا فيه كده... أنا وانت وكل فيران السوكاندو... إحنا اللي قتلنا الخواجة وحنقتل كل اللي في العزل بسكاتنا... مافيش أندل من القاتل إلا اللي شافه بيقتل وسكت

ـ قتل ايه يا صبا لا سمح اللـه... إنتي مكبرة الموضوع... الدنيا مش سواد كده

ـ تصدق عندك حق... حابسين نفسنا تحت الأرض، وعايشين في وسط ناس قتلوا بإديهم واحد ورا التاني، وصدقوا بعد ما دفنوهم انهم ماتوا بالفريرة، وبكرة يخلصوا علينا كلنا، ده إذا ماموتناش من الجوع... فين السواد في كده؟ دي حتى حاجة تشرح القلب

اختلجت شفتا الشحات لكنه أمسك لسانه، فقالت هي بحدة

ـ بنغرق في الخرا ولسه مش عايز تفوق

كان وقع كلامها ثقيلاً عليه... يشعر بالحنق يتصاعد بداخله... يغزو حلقه... يدرك أن كل ما تفعله وتقوله هو من أجل حبيب القلب... هل كانت ستستميت على إخراجه هكذا إن كان هو القابع في العزل؟ لم يعد الشحات يحتمل فقال من بين أسنانه

ـ قولي لي بإيدي إيه اعمله وانا اعمله؟ انا صابر لحد ما ربنا يرفع البلا والجابي بيه يرجع... فكرك السكينة اللي انتي عملالي فالحة ومخبياها دي حتعمل حاجة؟ تبقي هبلة... حيموتوكي وتروحي فطيس

ـ تصدق باللـه انك نطع!

هكذا بصقت الكلمات في وجهه وانسلت خارجة من السوكاندو... تركته وحده في الظلام... يرتعش جسده من فرط الانفعال... يتصاعد حقده على دياب... يزداد مقته لصبا... ظل الشحات على حاله حتى هدأ قليلاً، وعندها ميز طنين بعوضة تحوم حول رأسه... تحجر في موضعه حتى اقتربت من أذنه فأطبق عليها، لكنه لم يضغط عليها بالقدر الكافي لسحقها... تلذذ بتعذيبها لوهلة قبل أن يلقي بجثتها إلى جوار القائم الأيسر، حيث تتناثر بقايا الكثير من البعوض.

(٧)

خرجت صبا من السوكاندو في ستر الليل، مصفدة بالعجز وقلة الحيلة... تتبين كلما اقتربت من العزل صوتًا ضعيفًا من بين الأنين، يستحلف الخدم بكل أولياء الل-ه ألا يتركوهم يموتون بلا طعام... ألصقت ظهرها إلى الجدار البارد، تحت الطاقة الوحيدة المدججة بالقضبان، وهمست

ـ دياب

لم يجبها إلا الأنين والاستغاثات المتكررة، فانهارت بجوار الجدار... للمشاعر في قلب صِبا ألوان، أسوؤها على الإطلاق الرمادي الكالح... بلون الإسمنت العاري الذي يبطن السوكاندو بالبرودة والرطوبة والمرض... بلون الوجوه التي استمرأت الخسة فلم تعد تتزعج من القتل والتعذيب... بلون غيوم البؤس المخيمة على السراي... عاودت النداء عليه من بين نشيجها، حتى سمعت خطوات حذرة تقترب من الطاقة

ـ معاكي حاجة تتاكل؟

هكذا قال أحدهم فأجابت بلهفة

ـ فين دياب

كرر كأن لم يسمعها

ـ معاكي حاجة تتاكل؟

عادت ببقايا طعام شح أن يتوافر، تلقفته أيدٍ متلهفة عبر قضبان الطاقة الصغيرة، وسرعان ما سمعت شجارًا ينشب على اللقيمات... عاودت النداء على دياب حتى سمعت همسًا باسمها...

همسه هو...

ارتدت لها الروح، أو بعضٌ منها... استندت على الجدار، تريد أن تقول ألف شيء لكن الكلمات تنتحر على شفتيها وتغرق في الدموع

ـ حقك عليا يا دياب

لم تكن تدري عما تعتذر... عن رفضها له... عن عجزها... تعتذر عن قماءة الواقع وخسة الزمان... صمت دياب وهلة قبل أن يقول

ـ أنا ابن الافندي...

لم تدر صبا بما تجيب... طعنها الانهزام في صوت دياب، ثم أجهز عليها وقع خطواته التي ابتعدت عنها حتى ابتلعها العزل... ظلت تنادي عليه لكنه لم يعُد... تتوسل إليه أن يجيبها بلا جدوى.

جن الليل فلبدت صِبا في الظلام، تقبض على السكين، تنخر به الأرض... في انتظار عودة نعيم

من خلف البوابة لتغرس السكين في قلبه... ظلت قابعة بجوار الجدار حتى أضاءت السماء بكرات لهب بعيدة... تسقط من الطائرات على المدينة المتشحة بالظلام بحثًا عن هدف جديد لتدمره... تتبعها أصداء انفجارات ثم خيوط ضوء سميكة من الكشافات العملاقة في مكان ما في القاهرة... تبحث عن الطائرات المغيرة لإسقاطها.

نظرت صبا إلى قبة السراي الكبيرة، وراودتها للحظة فكرة مجنونة... أن تذهب لتضيئها، علها تجذب إحدى الجوارح المعدنية على وليمة الجثث القابعة في السراي، فتخلصها من العذاب... القبة هي المكان الوحيد الذي لم تطله ملاءات الخدم... استعذبت صبا الفكرة رغم جنونها... استعذبتها لأن التمسك ببعض بقايا العقل في مستنقع الجنون يصير ضربًا من الحماقة... كما يصبح التعلق بفتيل من أمل يخبو مع مرور الأيام هو الخبل بعينه... لم تعد الأيام تأتي للسراي إلا بمزيد من الاستكانة لواقع مر، يستحيل علقمًا... فلم يعد الموت يبدو بذاك السوء... لكن صبا لم تجد بنفسها العزيمة الكافية للقيام من مكانها... فقررت أن تدخر ما تبقى بها من قوة لإغماد هذا السكين في قلب نعيم عسكر.

لم يظهر نعيم اللعين طوال الليل... ولم تشعر صبا بمضي الوقت إلا مع اندحار العتمة واقتراب الشروق... انتبهت حينها على جلبة الحرس يهرعون بالدخول إلى السراي ويوصدون البوابة خلفهم... زحفت من مكمنها حتى رأتهم... تبحث عيناها بينهم عن نعيم... لم تنتبه صبا لارتعاشهم الوجل... لم تدرك أن هنالك خطبًا ما حتى ميزت بصعوبة أحد الحرس يهتف

ـ اقفل البوابة قبل ما يدخلوا...

يهرول الخفير بدوره ليغلق البوابة فيما يتعالى الصياح حوله

ـ المطاريد...

ـ المطاريد...

عادت صبا إلى وضعها الأول... تحتضن السكين وتحمد اللـه... يطربها القرع الآتي من البوابة... تشرح صدرها أصوات التجمهر الغفير الذي يطوق السراي... الأمل الأرعن يعابث قلبها... لم يعد قتل نعيم مبتغاها... ربضت في مكمنها حتى خرج مرعي عسكر من الإسطبل، يترنح بحزام الجابي بك الذي يحوي مسدسه... يتخبط في طريقه إلى البوابة لينضم إلى نعيم وعصبته، فأفلتت صِبا السكين وركضت... يجتاحها الدوار ويدق قلبها بعنف كقرع الطبول... لم ينتبه أحد إليها وهي تتسلل إلى الإسطبل، حتى الخيل كتمت صهيلها وهي تعبر بجوارها صوب العزل.

دارت صبا بعينيها حتى وجدت فأسًا... رفعته... تشعر بالقوة تجري في عروقها... ضربتين أطاحتا بالقفل الصدئ وانفتح الباب كأنما سئم الغلق... كانت الرائحة أول الفارين من العزل... رائحة غاشية لعرق وفضلات البشر... تقدمت صبا بخطوات مهزوزة، فانكمشت الأجساد التي اعتادت الظلام وسوء التغذية...

سمعت أحدهم يقول بوهن «حرام»...

لم تتبين دياب بين الأجساد المتراكمة... هتفت

ـ المطاريد بيهجموا

ارتفعت الهمهمات وتحركت عدة ظلال... تقدمت صبا بضع خطوات، تتعثر في العتمة... إلى أن قبض ظل أحدهم على رسغها

ـ نعيم فين

كان صوته كحسيس النار... خافتًا كأنما يأتي من أعماق بئر رغم أنها تشعر بأنفاسه تلفح

وجهها... أدركت صبا، ربما من نبرة مُحدثها الثابتة، ربما من قامته المنصوبة، أن السؤال لم يكن يحمل خوفًا، بل مقتًا خالصًا

ـ كلهم عند البوابة

هكذا همست قبل أن يقبض ظل آخر على يدها ويحرر رسغها من قبضة الأول... ظل طويل تعرف هيئته... خفق قلبها بعنف عندما قال

ـ يلا من هنا يا مجنونة

كم اشتاقت أن تسمع هذا الصوت... قادها ظل دياب إلى خارج العزل، فيما أخذ رفاقه يخرجون كأهل الكهف... لم تر صبا ساكني العزل من قبل... ولم تكن رؤيتهم، خاصة في تلك اللحظة، تسر... وجوه شاحبه كوجوه الموتى يغطيها شعر مشعث ولحى مرسلة... عشرات الأعين الشاخصة تطالعها بتوجس... تتسل من حولها أجساد هزيلة نفرت ضلوعها وبرزت عظامها، تظهر عليها آثار التعذيب... لكن لا شيء من ذلك كان يهمها الآن... يكفيها تلك القبضة التي تحتوي يدها... تقودها إلى باب العزل... إلى أن تخشب صاحب القبضة عند مفرق النور والظلام... شعرت بتردد دياب عندما ارتخت قبضته وكادت تطلق يدها، فأمسكت صبا يده... قادته برفق نحو الإسطبل فسكن دياب لحظة، قبل أن يخطو إلى حلقة النور.

سالت دموع صبا بلا تحكم عندما تبينته أخيرا... وعندها أدركت لِم تردد... رأت كدمات متفرقة وعينين غائرتين في محجريهما... رأت أسمالاً قذرة تتعلق بهيكله الضخم الذي فقد صحته واجتاحه الهزال... أفلتت من صبا آهة تحمل كل الحرقة التي كتمتها في صدرها... تعلقت به... تضمه إليها... تحاول أن تدلل على أنها لا تأبه لمنظره أو رائحته... أدركت من اضطراب قلبه أن العزل قد كسر فيه أكثر من جسده... ظلا على صمتهما وهلة امتدت دهرًا... تركض الظلال من حولهما، يفرون من العزل على غير هدى... فيما بقي البعض ساكنًا في موضعه، يكتفي بالارتجاف... رأت صبا بعضهم يستل العصي وقضبان الحديد، نفس القضبان التي استعملت على أجسادهم... إلى أن انتبها على وقع أصوات متداخلة مع طرق البوابة وصراخ الخدم وصهيل الخيل

ـ يلا بينا يا دياب

في الخارج، كان نعيم عسكر وحرسه يتقهقرون تحت طرق المطاريد للبوابة التي بدا جليًا أنها لن تصمد طويلاً... يصيح مرعي متضرعًا

ـ يا جماعة احنا اللي شغالين جوه... إحنا غلابة زيكم... واللـه العظيم البيه هرب

فيأتيه الرد هادرًا من وراء البوابة

ـ افتحوا البوابة

رأت صبا أم زكي تنظم صفوف النسوة في الشرفة الرئيسية... يقبضن على قصاع كبيرة، تلهب سخونتها أيديهم وتلفح الأبخرة الوجوه... ينتظرن اللحظة التي يقترب فيها المطاريد من مدخل السراي كي يكوينهم بالماء المغلي... الخدم يعدون هنا وهناك بغير هدى... النسوة يولولن ويبكين... البعض يحتمي بالسوكاندو والبعض يفر منه نحو السراي... وحده نعيم لم يكن مشغولاً بما يجري... لم يكن يرى غيرهما... التقت الأعين للحظة، فشدت صبا قبضتها على يد دياب... تحتمي به.

ـ العزل اتفتح... العزل اتفتح

هكذا صرخ نعيم وهو يركض نحوهما... يلوح بحزام الجابي بك الذي انتزعه من عمه... تشي عيناه بما ينوي فعله... أفلتت صرخة صبا عندما طاشت طلقته الأولى في أثناء ركضه واخترقت باب

الإسطبل في صرير مزعج... فسحبها دياب بعنف ليتقهقر الجميع إلى الإسطبل.

(٨)

رمى دياب بجسده على باب الإسطبل، فيما سارع رفاقه بإحكام غلقه... شعر بالرصاصة الثانية تخترق الباب بدوي مزعج، تمر بجوار كتفه لتستقر في عنق فرس عجوز... هاجت الخيل وارتفع صهيلها، ليمتزج مع طرق الباب المحموم، ورصاص نعيم الذي أخذ يصيح بجنون من خلف الباب

ـ مش حيطلع عليك نهار تاني يا ابن الحرام

تراجع دياب عن الباب الذي لن يصمد طويلاً تحت ضربات نعيم ومن معه من الحرس... حمى صبا بجسده حتى نفدت ذخيرة المسدس أخيرا، فدارت عيناه بحثًا عن مخرج... لم ير حوله غير جدران صماء وقضبان حديد تحمي كل النوافذ... انسل البعض من حول دياب، يهرولون إلى العزل من تلقاء أنفسهم ويغلقون عليهم الباب... يتحصنون باستكانتهم من انتقام نعيم الوشيك، فيما ظل الفرس المصاب يضرب بقوائمه الهواء حتى خمدت حركته بخوار مرعب... اعتصرت قبضته يد صبا وهو يرى المصير المحتوم في الأعين الزائغة حوله

ـ خليهم يجوا لقضاهم ولاد الهرمة

قالها أحد رفاقه بحروف مرتعشة وهو يقبض على عصًا خشبية...

«سينال نعيم مبتغاه أخيرا»

كانت تلك آخر خاطرة تعبر عقل دياب قبل أن يضيء بوسيلة للخلاص... هتف في أحد رفاقه أن يبقى إلى جوار باب الإسطبل ثم أشار للباقين كي يتبعوه... تعاون هو وصبا مع خمسة من المعزولين على تحرير الخيل الهائجة من مرابطها... ثم أشار لحاملي السياط بضربها لتفر هاربة قبل أن يصرخ برفيقه كي يفتح الباب.

اندفع سيل الخيل فور أن فتح باب الإسطبل، مكتسحًا في طريقه نعيم وبعض الحرس من حوله... ليهجم من خلفه المعزولون على الحرس... يصرخون بكل التوتر الذي يجري في عروقهم... نجح المعزولون في اقتناص اثنين من الحرس، تكتلوا عليهما بالعصي والقضبان... يخرجون بعضًا من الغل المتراكم... فيما بقي نعيم ملقى مع حارس آخر على الأرض، مخضبين بدمائهما بلا حراك... أخذ دياب بيد صبا، وخرجا إلى النور... حيث راح مرعي يولول على الخيل الهائجة في الحديقة... يصرخ ملتاعًا

ـ الخيل يا ولاد الصرمة...

عم الهرج وعويل النسوة ساحة السراي... الغبار يرتفع من خلف البوابة... يتصاعد صهيل خيل المطاريد وضربات رصاصهم في الهواء... يفر الخدم هنا وهناك على غير هدى... ينضم بعض الحرس في العراك مع الفارين من العزل... يركضون وراء أحدهم حتى يسقط على وجهه فينهالون عليه ضربًا بالعصي... بينما يركض معزول وراء حارس مصاب بجوار الإسطبل... وسط ذاك الهرج أبصر دياب الشحات يرتقي السلالم عدوًا، فهمس لصبا

ـ خليكي هنا

تحامل دياب على نفسه كي يلحق بالشحات، فتعلقت صِبا بكم جلبابه... أشارت نحو البوابة التي بدأت في التلوي تحت طرقات المغيرين الهائجة ومالت بشكل مخيف

ـ ماعادش فيه وقت

أزاح دياب يدها برفق وهو يقول

ـ الغبي دخل السرايا، وده أول مكان المطاريد حيقصدوه...

التقط نفسه واستطرد

ـ اسمعيني كويس... المطاريد مش عايزين حاجة مننا... هم عايزين اللي في السرايا... أول ما البوابة تقع، تاخدي بعضك وتخرجي من هنا... انفدي بجلدك يا صِبا، ماتبصيش وراكي... وانا حاجيب فاروق ونحصلك طوالي

تمسكت به

ـ الشحات مش حيجي معاك يا دياب... أبوس إيدك خليك جنبي، خلينا نخرج مع بعض

كان صوتها متهدجًا، فكرر دياب وعده أنه سيلحق بها، وقبّل رأسها ومضى.

صعد دياب السلاملك بصعوبة، وما أن ارتقاه حتى سمع صوت نعيم من خلفه... يستصرخ النسوة في الشرفة التي تعلوه ليسكبن الماء المغلي... اللعين لا يموت...

ترددت النسوة في دلق الماء للحظة...

لحظة نقلن فيها الأبصار بين رؤوس المطاريد التي لاحت خلف البوابة المائلة، ودياب الذي يقتحم السراي...

لحظة سبقت صياح أم زكي فيهن ليطيعن الأمر...

لحظة لم تكن كافية لينجو دياب من سيل الماء المغلي...

ارتمى دياب على الأرض يعوي عندما عض الماء المغلي ظهره... يكوي جلده... تدحرج وهو ينوح وينتفض... يحاول نزع ما يلبسه دون أن يقتلع جلده الملتهب... أخذ يلهث عندما نجح أخيرا... عندها أراد دياب أن يبكي...

يبكي من الألم...

يبكي من القهر...

يبكي قدره...

لكن نعيم لم يدع له الفرصة ليبكي أو ليلتقط أنفاسه... أخذ يعرج وهو يقترب منه... يستند إلى النبوت السميك الذي أعمله من قبل على ظهر دياب في العزل... تشي نظرة عينيه أن النبوت لن يكتفي هذه المرة بتحطيم جسده... أخذ نعيم يقترب... فيزحف دياب على يديه مبتعدًا... يسمع ضحكته المجنونة وهو يقول

ـ على فين يا ابن...

لابد أنه كان يريد أن يقول «ابن الحرام»... لكنه لم يكمل جملته... قطعها ذلك الصرير المعدني المدوي.

التفت كلاهما نحو البوابة التي انهارت أخيرا، مخلفة عاصفة من الغبار اخترقها سيل لا ينقطع من المطاريد... ترمح خيلهم هنا وهناك فيسقط تحت قوائمها الخدم والحرس على السواء... تهرس حوافرها نباتات الحديقة التي انحنى دياب على العناية بها لشهورٍ طوال... ترجل بعضهم وركض من

فوره نحو السراي، فعاود نعيم سعيه الحثيث نحو دياب... يبغي أن يجهز عليه قبل أن تضيع فرصته.

زحف دياب حتى ولج الردهة... يتأوه مع كل حركة... تئن عظامه جميعًا ويصرخ عليه ظهره... يسمع وقع خطوات نعيم خلفه... تقترب... جاهد دياب ليستقيم... أطلق صرخة شقت حنجرته، لكنه أقام ظهره... راح دياب يجر قدميه... يلهث مع كل خطوة... لكنه يتقدم... فتشت عيناه عن الشحات، حتى ألفاه لدى باب المطبخ، ينظر إلى موطئ قدميه...

- فاروق

هكذا صرخ... بين الاستغاثة والغضب... لكن الشحات ظل مطرقًا، يفرك يديه المرتعشتين... يسمع دياب خطوات نعيم تقترب خلفه، مع وقع النبوت على الأرضية الرخامية كلما توكأ عليه... يعاود الصراخ

- يا فاروق...

هذه المرة لم يكن بصرخته شيء إلا الاستغاثه... كان ذلك قبل أن يتعثر في السجادة ليسقط تحت قدمي نعيم، الذي اتسعت ابتسامته وهو يرفع النبوت

- عامل لي فيها الهلالي يا ابن الغرايبة يا نجس

رأى دياب النبوت يهوي صوب منتصف رأسه مباشرة، لكنه لم يغمض عينيه... رأى الشحات يدفع نعيم فتطيش ضربته قبل أن تشطر رأسه... تكور الشحات يرتعش بجواره فيما تعالى سباب نعيم... يسب ابن الأفندي النجس ويرفع نبوته ليعاود هجومه

- خلينا نخلص من الأنجاس مرة واحدة

هكذا قال نعيم قبل أن تنطلق رصاصة، برك على أثرها أرضًا... ضربه أحد المطاريد بكعب بندقيته، وهو يقول

- اثبت مكانك يا ابن الهرمة

تأوه نعيم وألقى بالنبوت بعيدًا وهو يشير نحو دياب والشحات

- أنا مامديتش إيدي على حد منكم... دول خدامين السرايا... واللـه العظيم خدامين

تفحّصهم وجه ملثم تبرز منه عينان متوجستان... بدا أنه يحاول جاهدًا أن يستوعب... ولما لم يفهم لمَ يتقاتل الخدم فيما بينهم، أمرهم أن يتجمعوا في ركن سرعان ما تجمع فيه كل خدم السراي... وقف عليهم اثنان من المطاريد يمسكان بالبنادق... صاحا في الرجال بالتجرد من كل ملابسهم، قبل أن يأمراهم بتغمية أعينهم بالألبسة.

(٩)

لا تدري صبا كم مر عليها وهي كامنة كالفئران في الناصية الشرقية خلف الإسطبل، تطالع الجدران الشاحبة وتكتم أنفاسها... ينقبض قلبها بالخواطر السوداء عما قد يصيب دياب... تتضاعف كراهيتها لنفسها مع كل دقيقة تمر عليها وتلعن عجزها... لكنها ظلت مختبئة هناك، في ذلك الركن الضئيل... يتناثر حولها حفنة من الرجال لم تحصهم، ولم تتبين منهم سوى عبدون، الذي يهمس كلما ارتفع الصخب من باحة السراي

- يا واقعة سودة... يا واقعة سودة

تلكأت الدقائق وامتدت الساعات حتى سكنت أخيرا أصوات السلب والهرج عندما آذنت الشمس بالمغيب... ظلوا قابعين في مكمنهم، حتى تطوع أحد الجنائنية وزحف على صدره إلى طرف الجدار ثم مد عنقه بحذر

ـ شايف إيه؟

هكذا قال عبدون، لا يعلو صوته عن الهمس

ـ المطاريد غاروا

قالها الرجل وأطلق ساقيه للريح دون أن يلتفت لهم أو ينبس بكلمة زائدة... بقيت صبا متحجرة في موقعها بين الجمع حتى قبض عبدون على رسغها، يلهث رغم أنه لم يتحرك بعد وهو يقول

«بينا يا بنتي»

كان الجنايني يقفز فوق البوابة المنهارة عندما خرجت صبا إلى الباحة الخاوية... يفر من السراي لتبتلعه الصحراء المخضبة بدماء الغروب... طالعت صبا الخراب المستشري حولها لوهلة... تاهت، حتى إنها لم تدرك أن عبدون يسحبها صوب البوابة إلا عندما سمعت أحدهم يقول من خلفها

ـ على فين يا عبدون؟

شعرت باختلاج قبضته على رسغها

ـ حتى الخيل هربت...

كان عبدون يهمس... يحدث بها نفسه... ولم يكن بصبا طاقة كي تستنكر أن يستحثها عبدون ليلحقا بالجنايني... عبدون، الذي أفنى عمره في خدمة السراي يسحبها سحبًا نحو البوابة... نحو الهروب.

تحول مشيها إلى هرولة ثم إلى ركض... تعدو نحو الخلاص... تحين منها نظرة إلى الخلف بين الخطوة والأخرى... إلى سلاملك السراي... تبحث عن وجه الهلالي الأسمر الذي وعد أنه سيلحق بها... تنتظر أن يشق جدران السراي ويطيح بمن يعترض طريقه وهو يحمل الشحات يركل الهواء كالأطفال... تنتظر أن ترى ابتسامته الهادئة تشرق من جديد فترتد لها الحياة.

اختلج قلب صبا عندما نعق غراب يحلق وحيدًا في السماء... يختلط نعيقه بولولة النساء اللاتي بدأن في الخروج من السراي يضربن على صدورهن ويلطمن الخدود

ـ همي يا صبا... همي قبل ما يحصلونا

كان الرجال يخرجون بالفعل... يتعثر بعضهم في الملابس التي يحاولون ارتداءها على عجل... ربت عليها عبدون وهو يشير إلى البوابة التي أصبحت على مرمى حجر منهم

ـ هانت آهي

يقولها بحماس من ينجو من السعير.

تلفتت صبا بحثًا عن دياب بين الرجال بينما تقطع الأمتار الباقية... لكنها لم تجده... تزيد وتيرة الركض ويعتصر قلبها الوجع... ينبئها أن الهلالي لن يبر بوعده... أنها لن تراه ثانية إن هي غادرت بدونه... تعثرت بحجر وكادت تتكفئ على وجهها، فأسندها عبدون... لم تعد تقوى على العدو وتباطأت خطواتها، فهتف عبدون جزعًا

ـ يلا يا بنتي اللـه لا يسيئك، الحراس طلعوا

رأت الحرس يركضون بوجوه سوداء كالقطران... يصرخ فيهم نعيم كي يعاودوا تعقب الهاربين من العزل... يخرجون كل الغل والغضب فيمن يقع تحت أيديهم من المساكين... بحثت عيناها عن دياب بين الرؤوس المنكسة، لكنها لم تجده... عبرت البوابة المنهارة فخارت السراي بأصوات الخدم، كوحش يعوي ليمنعها من الخروج... لكنها خطت إلى الخارج، وما أن فعلت حتى تضاءل الحجر والبشر... ما أن تحررت حتى أدركت حجم الخبل الذي خلفته وراءها للتو... ملأت صدرها بالهواء البارد خارج السراي... يستحثها عبدون على المضي قدمًا... ترن كلمة دياب في أذنها

«ماتبصيش وراكي»

...

...

لكنها نظرت...

رأت صبا بعض الخدم يحملون أحدهم ويركضون به صوب العزل... ارتعشت شفتاها وسحبت يدها من عبدون عندما تبينت ذلك الجسد الأسمر العاري... تردد عبدون للحظة، لكن جمع الحرس الذين أخذوا يركضون صوب البوابة حسم الأمر، فتركها وهرول مبتعدًا حتى ابتلعه الظلام.

التقمتها السراي من جديد... عادت صبا بقدميها إلى مستنقع الخدم المتراصين في الحديقة الخربة... يشاهدون الحرس يسوقون من تبقى من الموبوئين إلى العزل... تستجير أعين بعضهم برفاق الأمس... وأعين أخرى فقدت حتى الرغبة في الاستجارة... أعين مسبلة مستكينة، لا ترفع النظر لما حولها... منعها القصبي عندما حاولت اقتحام العزل، ودفعها نعيم متقززًا فسقطت أرضًا... تهشمت عزيمتها، ولم تقو على الوقوف من جديد... راحت صبا تأخذ من تراب الأرض وتضع على رأسها... تندب قدرها... فيما جر الخدم أرجلهم إلى السوكاندو، وانسحب الحرس ليتكوموا عند البوابة المنهارة، بعيدًا عن الأعين بعد أن أحكموا إغلاق العزل بقفلٍ جديد.

دفنت صبا وجهها في صدر أم الخير التي تعاونت مع بعض عاملات المطبخ على سحبها إلى السوكاندو الخرب... لم يعد شيء بموضعه... أخذ المطاريد كل ثمين، وما لم يستطيعوا حمله هشموه... راح الخدم يعدلون ما بقي صحيحًا بعزم خامد، وكوموا ركام متاعهم بجوار الكنيف... يعتصرهم الغضب... يرتفع الصياح والسباب وهم يحصون الخسائر... حتى مداخراتهم من الملاليم لم يذرها الملاعين... أخذ القصبي يندب حظه

ـ تحويشة عمري

يحدث بها الأعين الشاخصة حوله، فلا ينتبه إليه أحد... حتى خارت قواه فجلس مذهولاً على بقايا فراشه المقلوب، يطالع الفراغ.

لكن أيًا من الخسائر لم يكن أعظم من خيبة الخطم حين اكتشفوا الهاربين من رفاقهم... أحصوهم فكانوا سبعة نَفَر نجحوا في الفرار قبل أن يتكتل الحرس عند البوابة... على رأسهم عبدون عبد الصمد، واثنين من أوائل من آمنوا ببشارة مرعي عسكر... طالع القصبي الفُرش الخالية وقال

ـ واللـه عفارم عليهم

يتعمد أن تصل كلماته إلى نعيم عسكر، الذي ظل يدير عينيه في السوكاندو بحسرة بادية دون أن يفتح فمه... قال أحد الكفراوية وهو يجمع بعض الأثاث المتناثر

ـ أقطع دراعي من هنا إن ما كان عبدون الوسخ عين للمطاريد... تلاقيه بيقسم معاهم دلوقتي

بدت علامات الاستنكار على الجمع فابتلع لسانه... فيما تمتم نعيم عسكر وهو يشير إلى أسرة

ـ المطاريد ولاد الهرمة خطفوهم... خطفوهم

قالها بعزم محتضر وطأطأ رأسه قبل أن يغادر السوكاندو وسط همهمات الخدم.

مر وقت ثقيل بلا أحاديث، لا يقطعه إلا نحيب صبا، قبل أن يشتعل السوكاندو بالجدل فيما حدث وما سيحدث... قال كهول السوكاندو إن الموبوئين هم سبب خراب السراي... قالوا إنهم عطلوا الحرس وعاونوا المطاريد بفرارهم من العزل... نظرت صبا إلى رؤوس البهائم على أكتاف الكفراوية، تتمايل كعادتها في استحسان، فصرخت

ـ آه يا بهايم... فاضل لكم إيه تبكوا عليه هنا؟ السرايا خلاص خربت

ـ وليكي عين تتكلمي... مش انتي اللي فتحتي العزل وخرجتي كل اللي فيه؟ عايزة تموتينا بالفريرة؟

هكذا قالت أم زكي فصرخت صِبا

ـ مافيش حاجة اسمها فريرة يا ولية يا خرفانة

احتقن وجه أم زكي، تبحث عيناها عن فضيلة لتؤيدها، لكنها بقيت شاخصة كالجميع... همت أم زكي والنسوة أن يتعاركن مع صبا فاندفع الشيخ جبريل ليحول بينهن، يقول

ـ ده غرض المطاريد... إنهم يشككونا في نعيم فنهجر السرايا وتبقى لقمة سايغة ليهم...

ـ إيش تاخد الريح من البلاط... ما خلاص خربت مالطة

تجاهل الشيخ جبريل تعليق القصبي الذي لم يزل ينعى حظه، وأكمل كأن لم يسمع

ـ ده الوقت اللي لازم كلنا نقف مع بعض... لازمًا نبقى ف ضهر نعيم... أومال... نسيتوا انه هو اللي شالنا لما كونستبلات الداخلية سابونا.

عدل الشيخ جبريل فراشه بعد أن هدأ سعار النسوة... قال إن المطاريد ابتلاء جديد في سلسلة الاختبارات التي يتعرض لها الخدم... قال إن إيمانهم يُمتحن بتأخر عودة الجابي بك... تزداد وتيرة حماسه مع الصمت، وهو يقول إن كل علل السوكاندو ابتداءً من الكنيف البائس مرورًا بالجوع ونقص الغلال حتى هجوم المطاريد تنبع من ضعف الإيمان بالبشارة... ودواؤها الوحيد الصبر.

(١٠)

طلعت بشائر نهار جديد، لكن غبار الأمس تمسك بوجوه الخدم... صعدت الخادمات في الظهيرة لترتيب ما تبقى من السراي، فيما بقي الجناينية والسواس ساكنين بلا عمل بعد أن هربت الخيل وخربت الحدائق... تقدح شمس الظهيرة فوق رؤوسهم وهم يتأملون الصحراء المنبسطة على مد البصر عبر البوابة المنهارة... يتخيلون من نجحوا في الفرار وقد أدركوا مشارف القاهرة... تُرى أين عبدون الآن؟ راودهم الأمل أنه يسعى بطريقة ما لتخليصهم فقال أحدهم

ـ عبدون إيدك منه والأرض

لا بد أنه يجلس الآن على أحد مقاهي القاهرة... يحتسي الشاي ويحدث مجموعة التفت حوله يقول لهم بمقدمته الأزلية، «بيقول لك»، إن هناك مجموعة من الخدم قرروا البقاء والموت جوعًا في إحدى

السرايات بالصحراء، خشية أن يعصوا أمر سيدهم الذي تركهم وهرب... لا بد أن رواد المقهى استلقوا على ظهورهم من فرط الضحك عندما أخبرهم بحكاية الغرفة الخاوية التي جعل الجميع يأتمرون بأمرها... هكذا قال أحد الجناينية وضحك بمرارة، لكن الدعابة لم تلق إعجاب من حوله... عبست الوجوه، وسرعان ما تحول الهمس ليطال خيبة نعيم عسكر وحرسه، حتى قال أحدهم

ـ واللـه ما خايب الا انتم... أنا ناوي اقول لنعيم ياخدني مع رجالته

ـ إنت اتهفيت؟ تتيل ايه مع نعيم؟

ـ أول هام احنا مابقاش لنا شغلة ولا مشغلة... تاني هام ماحدش بقى ياكل غيرهم

طالعته وجوه ظهرت فيها أفاعيل الجوع، قبل أن يقول أحدهم بنهم حقيقي

ـ بيقول لك رجالة نعيم مابيجوعوش أبدًا

ظلوا على وضعهم ذاك حتى زار الأمل السراي قرب العصر في هيئة ساعي البريد... ألقى الرجل بخطاب ثم ولى مدبرًا عندما هاله منظر السراي الخربة... حمل الحرس الخطاب من توهم إلى الشحات في السوكاندو... تجمع حوله الخدم عن بكرة أبيهم، ينتظرون أن يبشرهم أنه مرسال الجابي بك... لكن الشحات لم يلبث أن ذبح الأمل بقوله إنها رسالة من بنيامين أتت من فرنسا تحمل ختم الألمان... رسالة ظل الخواجة الراقد تحت الرمال ينتظر أن يستلمها طويلاً.

ـ قطع وقطعت سيرته... هو سبب الخراب ده

هكذا قالت أم زكي ثم بصقت... لكن الأعين لم تتبعها... الجميع كان يحدق في نعيم، يحفهم الترقب لما سيقوله الآن بعد أن خرب كل شيء

ـ أنا راجل دغري ماحِبش الف وادور، وانتم اتعودتم مني على الصراحة... اللي حصل امبارح ده مصيبة سودة وقعت على روسنا كلنا... صحيح المطاريد كانوا أكتر مننا... صحيح كان معاهم سلاح... لكن احنا كنا حنسد...

صمت نعيم وهلة دار فيها بعينيه في الوجوه حتى استقر على صِبا

ـ لولاش فتح العزل...

اهتزت قِلة من الرؤوس إيجابا بينما أكمل نعيم

ـ اللي حصل مصيبة، لكن المصيبة الأكبر اننا نتفرق... ومين عارف... يمكن يكون لهم عيون في وسطينا... يقلبونا على بعض... حتسمعوهم بيقولوا كلام غريب... كلام بيفرق ومايجمعش... أنا مش عايز اخوفكم... بس لازم عينينا تبقى في وسط راسنا

كرر القصبي العبارة التي لم تعد تفارق لسانه

ـ عيون على إيه يا حسرة؟ إيش تاخد الريح من البلاط؟

قال الشيخ جبريل

ـ إحنا نستنى أسبوع كمان... سبعة ايام بالعدد، يمكن الجابي بيه يرد خبر

ـ اللـه يلعنك يا زمان يا اللي خليت للندل كلام وجبت اللي ورا قدام

قالتها صبا فارتفع السخط واللغط وتداخلت الأصوات... ظلت تصرخ حتى لطمها نعيم وهو يصيح

ـ وليكي عين تتكلمي؟

تكالب الحرس على صبا... يخرجون فيها كل ما تحمله صدروهم من غلٍ وخوف... يتقاتلون ليخرسوها بأيديهم... كاد الشحات يصرخ فيهم ليتوقفوا... كاد ينطق أخيرا، لكن عينيه التقتا بعيني أم زكي الحازمتين، فتخشب وعض على لسانه... سحب نعيم والحرس صبا من شعرها إلى خارج السوكاندو فيما وقف الشحات، مطأطئ الرأس، وهن ينعتنها بالزانية الخائنة... طفقت أم الخير تولول وتلطم الحرس بلا استجابة، حتى دفعها أحدهم فانكبت على وجهها لدى عتبة السوكاندو... ركض الشحات نحو أم الخير، يعاونها على القيام... يقول من بين دموعه وهو ينفض ثيابها

ـ حقك عليا يا امه... ربنا على المفتري

أغلقوا باب مخزن العلف على صبا فاختفى الصوت الوحيد المتبقي في السوكاندو، وعم الصمت المحبب من جديد... انهمر بعدها سيل من الخدم الطامعين في طعام الحرس للتطوع بين رجال نعيم... حتى كاد جميع من تبقى من الرجال خارج العزل أن يتحولوا حرسًا طيعين بين يديه... لكن نعيم صار موتورًا ساخطًا مؤخرًا... تثير بلادة الخدم فيه إحساسًا بالقرف... يولد صمتهم فيه عنفًا وشراسة متنامية... صار يسمع الاعتراض في صمتهم ويرى الاتهامات تملأ أعينهم المكسورة... يذهب في الصباح لإيقاظ الملاعين... يستفيق الواحد منهم تلو الآخر على صوت نقر قبقابه... يعدهم بقرب وصول الغلال وينفجر فيمن يعاود السؤال عن الموعد... يتعمد إهانتهم... علهم يخرسون أو يموتون... وفي المساء بعد أن ينتهي نعيم من جلسات التطهير في الركابخانة، يفترش الأرض بجوار عمه مرعي عسكر الشاخص إلى جرس الاستدعاء في غرفة الخواجة... يخبره أن المجاعة تحشد قواها بالأفق للهجوم على السراي... فلا يجيبه إلا الصمت.

ورغم كل الكوارث والمنغصات، لم يكن هناك ما يزعج نعيم مثل فضيلة... لم يعد يناله منها إلا البكاء... تأتيه كل ليلة بالطعام وتهمس

ـ القصبي حاسس

يجيبها بصمته، علها ترحل... لكنها تصر أن تستثير حنقه بقولها

ـ نطفش من هنا يا نعيم

يجيب ببلادة وهو يقترب منها

ـ نطفش ازاي؟

تتضاءل وهي تقول في وجل

ـ زي اللي طفشوا... اللـه الغني عن العيشة دي... إنت مش شايف الخراب؟

يهوي نعيم على وجهها بكفه... يخرج بعضًا من الغيظ الذي يعتمل في صدره... لكن فضيلة لا تكف عن تكرار المحاولة... يرى فضيحتها تنمو في أحشائها وتصارع كي تظهر للعيان... تصرخ فضيلة في وجهه مرة... تبكي وتتضرع مرات... فلا تجد منه إلا الضرب والنفور... حتى جاءه القصبي الذي تطوع أخيرا بين حرسه... رأى في احتقان وجهه ما سيقوله قبل أن ينطق

ـ الكلام كتر يا نعيم

سحب نعيم نفسًا عميقًا من الجوزة قبل أن يقول

ـ كلام ايه كفى اللـه الشر يا قصبي؟

ارتعش صوت القصبي

ـ الكلام عن فضيلة... وعنك... في حاجة بينك وبين مراتي يا نعيم؟

نظر له نعيم بلا اكتراث وقال له

ـ قرب يا قصبي

اقترب فأحاط نعيم عنقه بذراعه والصقه به كي لا يسمعه باقي الحرس... لكن ما قاله اخترق الصمت

ـ حتفرق معاك يا قصبي؟ حتسترجل لو قلت لك آه؟

بهت القصبي... بحثت عيناه عمن ينصفه بين الحرس، فلم يجد إلا الأعين التي تطالع الأرض... وعندما أعاد نظره إلى نعيم طالعته سنته المكسورة عندما قال

ـ قوم يا قصبي وصلي على النبي كده... قوم استعجل فضيلة خليها تجيب الأكل

قام القصبي من مكانه يتعثر في بقايا كرامته المبعثرة... يسمع ضحك الحرس المنتشين بفجور كبيرهم من ورائه... تتآمر دموع القهر في عينيه مع الظلام لجعله يفقد طريقه... كان يريد أن يذهب لذبح الزانية، لكن رجولته المنتهكة لم تطاوعه... تراءت له ضحكة نعيم المذلة... وسنته المكسورة... لا يدري لمَ تذكر من كسرها في تلك اللحظة...

دياب...

الوحيد الذي وقف أمام نعيم، قبل أن يساعده مع باقي الخدم في الخلاص منه... أيقن أن اللـه ينتقم منه لأنه أول من شارك في حمل دياب مرتين إلى العزل... جر القصبي قدميه إلى حيث يقبع دياب بين من أصابتهم الفريرة...

الفريرة!

كم كان أحمق... وقف القصبي تحت الطاقة ذات القضبان... همس باسمه... ولما لم يجب تسلل إلى الإسطبل الفارغ... تعبث بأعصابه الظلال... يضرب الجدار بكلتا يديه، يصيح

ـ دياب

بلا مجيب.

لم تدر فضيلة شيئًا عما تم تلك الليلة... بالكاد أبصرت القصبي يدخل عليها المطبخ كثور هائج... وبلا مقدمات راح يوسعها ضربًا... ورغم القسوة لم تشعر فضيلة بالألم... ظل المجنون يضربها دون أن تتدخل النسوة حتى تعب، فأخذ الطعام ورحل دون أن يتفوه بكلمه

«كله من الكنيف ابن الحرام»

هكذا حدثت فضيلة نفسها تلك الليلة... تعمد البك أو مصمم هذه السراي أو الشيطان، لا تدري، أن يجعل للخدم كنيفًا واحدًا... تعمد ألا يسترهم بباب كما يستر البشر أنفسهم عند قضاء حاجاتهم... تعمد أن يتركهم يخرؤون أمام بعضهم البعض كقطيع من البهائم... حتى لم يترك الكنيف بينهم سوى أجلاف وأراذل.

صعدت فضيلة في الصباح التالي إلى المطبخ كميتة، تتلاعب برأسها الأفكار السوداء... لن يكتفي القصبي المرة المقبلة بضربها، ولن يحرك نعيم ساكنًا لحمياتها... كانت ساهمة في ركنها تجنبًا لرائحة الطعام حين سمعت جلبة العربجية... خرجت من فورها فرأت التركي لدى البوابة المنهارة، يعاين مبهوتًا السراي الخربة... اقتربت من الكارو في غفلة من نعيم والحرس بينما الخدم ينزلون ما جاد عليهم به التركي من طعام... كان التركي متكئًا على إحدى عجلات الكارو، يدخن سيجارته ويبصق بعض التبغ... ناولته فضيلة كوبًا من الماء فهش لها حتى ظهرت أسنانه البنية... اختلقت معه حديثًا

وتصنعت الإصغاء إليه حين راح يخبرها عن جدته التي واقعها أحد جنود الحامية التركية

ـ تعمل فيا معروف يا تركي؟

أطلق التركي نَفسًا محملاً بالدخان فقالت فضيلة

ـ أمي عيانة وعايزة اتطمن عليها من زمان

ـ لا ألف سلامة عليها، تحبي اوصّل لها حاجة؟

قالها بلا اكتراث... لكنه سرعان ما أبدى اهتماما لما قالت فضيلة

ـ نفسي أشوفها ولو مقدار ساعة... ده من كتر قلقي عليها ندرت كردان دهب للي يوصلني اتطمن عليها

قالت مستدركة

ـ أتطمن عليها وارُدّ على السرايا طوالي

لم يكن التركي بحاجة للمزيد من المقدمات كي يدرك ما ترمي إليه

ـ أنا راجع التلات الجاي بالغلة وطلبات السرايا... علشان خاطرك حاجي بالليل... الحرس حيبقوا مشغولين معايا، وانتي ممكن تلبدي تحت الكارو مكان علف الفرس لحد ما نخلص سهرتنا ونتكل على الل-ه

لم تلق فضيلة بالاً لما قاله التركي بعد ذلك... لم تكترث كثيرًا بابتسامة لم تدر مغزاها... أسكرها الأمل الذي يزورها للمرة الأولى، منذ أن علمت بحملها المشؤوم، عن رؤية الغدر الذي يطالعها في عيني التركي.

(١١)

راضية هي أم الخير... قانعة بالنصيب... تخشى أن تتعلق بأي شيء فتنتزعه الدنيا منها... تقنع بالقليل لأنها لم تعرف الكثير... لكن حبس صبا جعل القنوط يسكن قلبها.

ـ يا ام العواجز

هكذا همست أم الخير في طريقها إلى مخزن العلف، حيث حبسوا صِبا... تكاد تسمع صوت أنفاسها خلف الأبواب المغلقة... أسرجت قنديلاً على باب الإسطبل وسارت تتخبط في همومها، تتذر إطعام كل دراويش السيدة وزيارة لأم هاشم إن هي أنجت صِبا من الشر...

آه يا صبا...

آه يا سيد...

من أورثكما الكلام... من أين لكما بلسان يا أبناء الصمت؟ ألا تعلمان أن مجرد التنفس في بلاد الأموات يعد خروجًا عن العرف؟ رفعت القنديل أمام وجهها حتى أبصرت مخزن العلف... سمعت صبا تردد كأنما تحدث نفسها

ـ ربنا على الظلمة

تقولها صبا فتسمع أم الخير صوت سيد يتردد معها... تختنق في سجن زمانها الوضيع الذي كتب

عليها أن تعيش المأساة مرتين... تحسست باب المخزن الخشن وقالت بوهن

ـ يا صِبا

لم تسمع أم الخير إجابة... أخرجت بيد مرتعشة من جعبتها شقة من العيش البتاو الجاف، أدخلتها من أسفل الباب وقالت

ـ اتقوّتي يا ضناي... اتقوتي... أنا حاخرجك من هنا...

انهار صوت أم الخير وتفتت بين الشهقات

ـ أنا...

ابتلعت ما كانت ستقوله وأطفأت القنديل عندما سمعت جلبة من عند مدخل الإسطبل... برز نعيم يحمل قنديله، في طريقه إلى إحدى جلسات التطهير مع بعض حرسه... رأت أم الخير وجهه يحتقن عندما أبصرها، قبل أن يزأر في القصبي

ـ أنا مش نبهت عليك تقفل باب الاسطبل يا مغفل؟

انكمش العجوز وتمتم بعبارت اعتذار مبهمة... أشار له نعيم ومن معه بحملها بعيدًا عن الإسطبل

ـ أبوس رجلك يا ابني طلعها... مالهاش ذنب... طايشة مش فاهمة... سيبهالي وانا حاكتم صوتها... بس طلعها الـه يرضى عليك

بكت أم الخير وهي تنحني فعليًا على قدميه، كما فعلت نساء الغرايبة من قبلها زمن الوباء... فأبعدها نعيم عنه وهو يصرخ

ـ يلا من هنا يا ولية

حاولت أم الخير أن تستجديه والحرس يسحبونها بعيدًا... تصرخ باسم صبا... حتى ضاعت صرخاتها بين صرخات من بدأ نعيم في تطهيرهم تلك الليلة.

اشتد على أم الخير ألم ركبتيها النهار التالي... قال الشيخ جبريل إنه من أثر السقطة، لكن مرضها امتد... ازداد شحوب وجهها مع الأيام ولازمت الفراش... حتى أتاها الشحات بعصًا من الحديقة سواها لها ونزع عنها ما قد يجرح... تتعكز على العصا وعليه إلى الكنيف... تشعر أم الخير بارتجافه تحت يدها، فيتعبها قلبها... قاسى كثيرًا هذا الفتى... ترى ذلك في انكساره وهو يأتيها كل ليلة بالطعام الذي يزيده من حصته حتى فراشها، ويلزمها حتى تأكل.

بلل لها الشحات البتاو تلك الليلة وراح يدعو على نعيم... وضع لقمه في فمها وهو يشير للخدم حوله

ـ خلاص عياره فلت... مين حيقف له يا امه؟

أحكم الشحات الشال الصوف حول جسدها وناولها القُلة وهو يقول

ـ ديك النهار مسكوا القصبي عند باب العزل... بيقولوا كان عايز يطلع دياب

أشار إلى بطن فضيلة الذي تخفيه ملابس فضفاضة، ثم همس

ـ بيقولوا كان عايز دياب ياخد له بتاره من نعيم

مطت أم الخير شفتيها في أسى، فعدل الشحات من اتجاه حديثه كي يسري عنها... حدثها عن بشارة جديدة نبتت في أرض السوكاندو، يرويها الخدم بالكتمان... بشارة بقرب موت نعيم عسكر...

قال الشحات إن إحدى الخادمات تبينت آثار الدم تلوث ملابسه الداخلية

ـ بيقول لك أبو شبت بياكل في مصارينه

هكذا همس الشحات، فضحكا عندما تذكرا حكاوي عبدون عبد الصمد التي لم تكن تنقطع عن أبو شبت... يبرد الضحك المغتصب من أثر الجمر المتقد في الصدور... قال الشحات إن البعض صار يترحم على أيام خاله مرعي عسكر... يتذكرونها بالكثير من الحنين... ثم أخرج قنينة الشربة التي لم تعد تغادر جيبه... قال الشحات إنه يملؤها من الكنيف كل صباح ثم يصعد إلى المطبخ لينثر محتوياتها بحرص على فطور نعيم والحرس في غفلة من فضيلة الساهمة أبدًا... يتلذذ برؤيتهم يطعمون بول الخدم... ضحك قبل أن يهمس

ـ ماشوفتينيش انتي يا ام الخير ديك النهار لما المطاريد دخلوا السرايا... زقيت لك نعيم زقه خليته ينكفي على وشه زي الشوال

يقولها الشحات للمرة العاشرة فتبتسم له ام الخير وتربت عليه

ـ جدع يا وله

لم يظهر نعيم ذلك المساء عندما تراص الخدم على الطاولة بعد يوم طويل من الجوع، ليوزع الشحات وفضيلة في صحونهم لقيمات شحيحة من البتاو الجاف، إلى جانب حفنه رطبة من عليقة الخيل... طالعت الأعين العليقة ما بدا دهرًا، قبل أن يقول أحد الكفراوية بعد طول تردد

ـ فين الفول النابت؟

كان صوته غريبًا، يخرج من أعماق بئر سحيقة... يحمل خلوف فم لم يُفتح منذ دهر.

ـ خلص

هكذا قال الشحات فعمت همهمة، سرعان ما انتحرت عندما حملت رياح الليل بقايا صرخة بائسة من أصوات المحبوسين في العزل.

(١٢)

كان غبش الفجر لا يزال عالقًا بحديقة السراي عندما خرج ثلاثة أشباح صفر الوجوه استعصى عليهم النوم مع قرصة الجوع... زحفت الأشباح منهوكة القوى صوب مخزن الغلال، يشجعهم شخير الحرس لدى البوابة المنهارة بالمضي قدمًا... تحسسوا طريقهم في ظلام المخزن، يسترشدون ببقايا روائح ما عادت أصولها موجودة... اصطدمت قدم أولهم بجرة سمن فارغة، فكتم تأوهًا وجلس القرفصاء... يلعق ما علق بها في صمت كي لا يشعر به رفاقه... لم يعد يأبه بالاتفاق الأول بتقسيم ما يجدونه... لو أن من معه وجدوا مثل جرته لقتلوه قبل أن يشاركوه فيها، لا ضمائر تحيا مع الجوع... أنهى الجرة وراح يتفقد باقي الجرار الجافة والأجولة التي أصابها الهزال ... لمح أحدهم يقرفص فوق شيء ما ويعب منه، فهجم عليه بلا تروٍ... وسرعان ما تقاتل ثلاثتهم على الجوال، يحشرون ما تصل إليه أيديهم في أفواههم ويتعاركون على الباقي... لم يدركوا أن العراك قد علا وطيسه إلا عندما ارتفع صوت حانق من خلفهم

ـ بتعملوا إيه هنا يا ولاد الصرمة؟

لم يأبه الثلاثة بعصي الحرس التي راحت تهوي عليهم، ما دامت أيديهم وصلت إلى ما يستطيعون مضغه، وهم يُجرّون خارج المخزن... ألقى بهم الحرس وسط السوكاندو، تأكلهم عيون الجوعى...

طالهم بعض السباب هنا وبعض اللطمات هناك... لكن سرعان ما غط الثلاثة في سبات عميق، بعد أن سدوا جوعهم.

أضيف ذلك الصباح قفل جديد إلى مخزن الغلال، بعد أن حمل الحرس نصيبهم من الطعام إلى المطبخ... قدحت فضيلة الزبدة في المقلاة الكبيرة، التي لم تعد تستخدم إلا لغداء لحرس، قبل أن تقتنص نصيبًا من الطعام... جفلت حين قبض نعيم الذي نبت من العدم على يدها... تشممها وهو يسحب ما أخذته ويعيده إلى وعاء الحرس

ـ وبعدهالك يا فضيلة؟

التصق بها وهمس في أذنها

ـ ده أكل الرجالة اللي حاميين السرايا... مايصحش تسرقيه

نفرت بعيدًا عنه، لتعلو ضحكته المتلذذة... فيما دفنت النسوة أنوفهن في القصاع وتصنع الشحات تجاهلاً... تحسست فضيلة بطنها النامي وقاومت رغبة ملحة لصفعه

ـ أنا باشيله لعشاكم يا نعيم... لازم نوفر في الأكل لحد ما العربجية يجوا بالسلامة

أفلت يدها وهو يقول

ـ لا عفارم عليكي يا بت... على كُلٍ التركي جاي الليلة

اغتصبت فضيلة ابتسامة وهي تنقل ما اقتطعته إلى صحن كبير، ثم عاودت دس وجهها في المقلاة... لا بأس يا نعيم... فلتضحك يا بن الأراذل... فلتضحك لليلة أخيرة.

ابتسمت فضيلة ذلك المساء عندما انتحرت إضاءة المطبخ المتراقصة، بعد أن هز صدى انفجار قريب أرجاء السراي... الطائرات تقصف القاهرة من جديد... سكنت فضيلة في مكانها حين قامت النسوة من حولها، يبسملن وهن يتخبطن في الظلام الذي أرسى دعائم مملكته... تتسارع دقات قلبها وهي تلتقط سم الفئران من جيبها... لم يواسِها منذ اتفاقها مع التركي إلا التفكير في انتقامها من نعيم والحرس... من زوجها النتن وكل من ظنت أنها منهم ثم لفظوها... بيد مرتعشة بحثت فضيلة عن قالب الزبدة الذي لم يعد يستخدم إلا في طعام نعيم وحرسه... أسكنت فضيلة في قلبه السم وهي تعد نفسها أنها ستنساهم سريعًا... تكاد ترى إحدى الخادمات تنقله بالغد إلى المقلاة الكبيرة... تخلطه بغداء الحرس أو عشائهم... تنتشي وهي تتخيل نعيم صريعًا على البوابة المنهارة.

هبطت فضيلة إلى السوكاندو الغارق في لجة من الظلام... حتى ضياء القمر أبى الدخول من النافذة الصغيرة تلك الليلة... تسمع وهي تسير بين الأسرة أنين الخدم ينساب في أمان الظلام... أنين الجوع... أنين الخوف... أنين الظلم والقهر... وما هي إلا دقائق حتى رن قبقاب نعيم، يمر على الراقدين في الظلام، يطمئن الجميع بأنه انتهى لتوه من إنزال الطعام والغلال التي أتى بها العربجية... ثم ذكرهم بالحكمة الخالدة، «الطائرات لا تقذف الصحارى»

ـ علشان تحمدوا ربنا انكم عايشين في سرايا الجابي... شوفوا غيركم بيحصل فيه إيه... الراديون لسه بيقول سرايات كتير اتساوت بالأرض وكل الخدم اللي فيها ماتوا

استلقت فضيلة في فراشها، تستمع إلى صدى صوت قطرات الماء البطيئة المتسللة من الصنبور الذي لا يصلح... بقيت ساكنة في مكانها حتى خبت أصوات الخدم من حولها... قامت بهدوء لتجمع متاعها القليل... زوج من الجوارب غير المتطابقة... قميص نوم زهري تمنت أن ترتديه يومًا لنعيم الحقير خارج هذا القبر... كنزة صوف ثقيلة خضراء صنعتها لها أمها... أودعتها سبتًا من البوص المجدول، ضمته إلى صدرها وتسللت في ظلام الليل نحو كارو التركي... تعد نفسها لمرة أخيرة أنها

ستنسى هذا القبر بمن فيه فور أن تطأ قدمها رمال الحرية.

(١٣)

تأبى شمس النهار أن تزور العزل إلا لمامًا... يزحف شعاعها السقيم هاربًا من الطاقة الوحيدة المعلقة بقرب السقف، فتلمع معه خيوط العنكبوت، تتلمس أهداب النور الراحل مع هبوط الشمس إلى مغربها... لا ينال العزل من الشمس إلا الهجير... تتشرب الجدران الحرارة وتطلقها سعيرًا على الرجال بلا رحمة، حتى كاد من بقي منهم حيًا يلفظ روحه.

استند دياب إلى جدار العزل بين الأجساد المتكدسة... كتم صرخة كادت تفلت منه عندما لمس الجدار ظهره المتقرح، وقاوم غفوة جديدة تريد أن تبتلعه... تتبعت عيناه اثنين من رفاقه يحملون جثة أخرى أسلمت الروح إلى ركن الغرفة قبل أن يهرب آخر بصيص للضوء... يغمره شعور في الضباب الذي يجتاح عقله أن كل هذا ليس حقيقيًا... يعيش أحد كوابيس الوباء التي رسبتها حكايات جدته في مخيلته... كابوس بطول العمر... لكن أعتى الكوابيس لا تملك رائحة الدماء المختلطة بعرق الأجساد التي أنهكها الرعب والتعذيب... لا تحمل رائحة الموتى الغارقين في سَلْحهم... حتى أسوأ الكوابيس لا يمكن أن يكون بهذه العبثية.

اعتاد دياب أن يجتر ذكرياته مرات ومرات... يتشبث بها... يتشبث بآخر ما كان يربطه بعالم البشر خارج جدران العزل النتن... لكن الحمى تتملكه... تمر به الساعات والأيام في غفوات كالحلم... يحيطه ضباب كثيف يحجب رؤيته... يسير في أرض التيه على هدى صوت بعيد... يحاول أن يتلمس طريقه... يسمع جدته تنادي فيجفل... يهرول في جميع الاتجاهات... يتعثر... يعاود النهوض ليسقط من جديد... يسمعها تروى سيرة الهلالي لكنه لا يراها... يفيق ليشعر أنهم أوقدوا النار في عظامه... يحاول رفاقه أن يبللوا شفتيه ببعضٍ من الماء القليل المتبقي... يعجز عن تمييز ملامحهم أحيانا فيقاومهم كأنما يسقونه السم... ثم تذهب حرارة الحمى لتحل محلها برودة الجليد تنتزع ما تبقى لدياب من جلد... صارت زيارته إلى ذلك العالم الضبابي تزداد مع تقارب الغفوات... لا يدري كم مضى من الأيام منذ أن أوصدوا عليهم باب العزل دون أن يفتحوه من جديد... كل شيء يفقد معالمه وألوانه... حتى الوقت لم يعد له معنى.

سلم دياب نفسه لليأس الكامل... لا أحد يشعر به في هذه الحفرة... لا أحد يكترث بموت النكرات... كل ما هنالك أنه لم يعدّ نفسه نكرة من قبل... يدرك دياب الآن وهو يغرق في الظلام أنه لا يوجد أشق من التحرر من أصفاد الوهم المقدس، إلا ما ستعانيه إن تحررت... صارت أقصى طموحاته أن يأمر نعيم بتغيير التراب تحتهم، كي لا يموتوا في روثهم كالبهائم... يتساءل كثيرًا، حينما يسمح له الجوع بالتساؤل

أين فاروق؟

أين صِبا؟

أين الل-ه؟

هل نسوه؟ يتساءل دياب أحيانا هل كان اعتراضه بطرًا؟ هل كان الشحات على حق؟ لكن التأمل صار عزيزًا مع الجوع والحمى... نجح الجوع والألم في الوصول إلى تلك المزقة الآدمية الأخيرة في شغاف قلبه، واعتصرها حتى احتضرت...

تمددت الظلال وابتلعته غفوة جديدة.

عندما أفاق دياب كان النور قد اختفى تمامًا وحل الظلام ببشاعته... انتظر أن تعتاد عيناه على الظلام ليبصر شيئًا، لكنه بقي كالأعمى يتخبط في ظلمته... ينخر الظلام اللعين في روحه، أو ما تبقى منها... يسمع دياب أحدهم يصيح بينما تتحسس اقدام رفاقه المتشققة طريقها إليه... يكاد دياب يشعر به يرتجف قبل أن يطالوه... لا يعلم دياب ما فعل المسكين وما ذنبه، لكنه لم يحرك ساكنًا وهم ينهالون عليه ضربًا... الظلام يبتلع كل شيء... حتى الرحمة... يسمع أيديهم تعمل دون أن تبصر عيناه الأهوال التي يصنعونها... كان دياب يعتقد أنه أقوى من ذلك، لكن العزل يخرج أقبح ما في البشر... هو بقايا إنسان معطوب يتمنى الموت كي يتخلص من هذا العذاب.

عادت الأقدام بعد أن سكن ضحيتهم كديك مذبوح... لا يصدر منه إلا أنين مستكين... لم يتحرك أحد ليواسيه أو يهدئ من روعه... كلٌ شارد في اللاشيء... كلٌ ذاهل في العدم... ولى جرذ مذعور بين قدمي دياب، لم يملك الطاقة الكافية لإبعاده، فتركه يعبث بجسده حيث شاء... إلى أن انتزعته يد من فوق فخذ دياب... سمع الفأر يستغيث... قبل أن يكف... ثم سمع صوت عظام تتكسر... أنكر دياب بقلبه ما يدركه عقله جيدًا... أنكره كما فعل من قبل عندما رأى العظام الصغيرة في أطراف العزل.

لا يحفظ دياب شيئًا من الإنجيل ولا يعلم من كلام الصلوات إلا ما ندر... لكنه كان يتذكر الصلاة التي كانت ترددها الجدة الكبيرة بعد أن تُصلِّب على جبهتها وصدرها

أبانا الذي في السموات

ليتقدس اسمك

ليأتِ ملكوتك

لتكن مشيئتك

كما في السماء كذلك على الأرض

أعطنا خبزنا كفاف يومنا

واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا

كما نحن نغفر أيضا لمن أخطأ وأساء إلينا

ولا تدخلنا في التجربة

ولكن نجنا من الشرير

لأن لك المُلك والقدرة والمجد إلى أبد الدهور

أخذ يكرر «ولا تدخلنا في التجربة، ولكن نجنا من الشرير»، حتى جف لسانه... يتضرع كما تضرع يسوع من قبل إلى الآب... يبتهل إلى العذراء أم النور لترفق به... أن تُلقي في قلبه قبسًا من نورها يضيء عليه وحشة العزل... يوم آخر يمر بلا طعام تزداد معه ضبابية الدنيا...

كان آخر ما شعر به دياب تلك الليلة هو سكون تام بلا خوف... سكون من باعته الدنيا وباعها، فلم يعد أيهما يعبأ بالآخر... تذكر أياما خارج السراي... خارج العزل... أيام حكاوي خاله بشاي عن القاهرة وعن حياة البشر التي حرم منها... حينها شعر أن اعتراضه على الجنون كان على حق... تتوه الأفكار وتتزاحم الأصوات وتتشوش الرؤية... يتشبث دياب بالذكريات لكنها تتسرب من بين قبضته... أصبحت باهته... شيء وحيد بقي... صوت رنين خلخالها... كما سمعه أول مرة... ذلك الرنين لا يزال يتردد في أذنه... به يستدل على أنه لا يزال حيًا... به يستدل على أنه لم ينحدر إلى مرتبة البهائم بالكامل... قلبه الغشيم ما زال يرنو إلى المستحيل... يرنو إلى صِبا... يفتقد شذاها

الطبيعي... يشتاق إلى جلستها إلى جواره في الليالي تحت قبة السماء ليسمعها سيرة الهلالي... ابتسم دياب لمجرد الذكرى، وغزا جسده خدر لذيذ... تناديه بقعة بيضاء بعيدة عبر نفق من الظلمة... يسترشد بصوت الخلخال... لم يسمع دياب في آخر لحظاته الجلبة في الخارج ولا صراخ فضيلة المستغيث... لم يسمع إلا دقات خلخال صبا، تدعوه نحو الخلاص.

(١٤)

سكنت الريح تلك الليلة حتى لم يعد هنالك من صوت في السوكاندو سوى أنفاس الخدم الثقيلة... لذا كان صراخ فضيلة جليًا كأنما ينبع من القبو... خرج الشحات يتخبط بين الخدم نحو الحديقة، حيث كان القصبي ينهال على جسد فضيلة المتكوم بجوار كارو التركي صفعًا وركلاً... تحاول أن تحمي وجهها بيد وبطنها باليد الأخرى... تستحلف من تجمعوا حولها بجميع الأولياء كي ينقذوها... بلا مجيب... سمع الشحات همس النسوة وهن يشرن إلى بطنها النامي

ـ ماعادش فيه خشا... آدي آخرة المشي البطال

جرها القصبي وهو يصيح بصوت مختنق

ـ عايزة تجرسيني؟

لم يتدخل الشحات كما لم يتدخل أي من الخدم... يتهامس الرجال حوله أنها شؤون الزوج بزوجته... قالوا إنه يؤدبها... لكنهم خرسوا عندما أتى نعيم ليساهم بدوره في الضرب... يتناوب العشيق والزوج الديوث على ضربها... يتعمد نعيم أن تصيب ركلاته بطنها... وقف الشحات يتابع ما يجري في صمت، لكنه لم يخفض عينيه كما اعتاد من قبل... ظل ينظر إلى القهر... يشبع عينيه من الظلم... يتشرب ما أغمض عنه عينيه دهرًا... يسمع القصبي يصيح

ـ فاكراني نايم على سماخ ودني؟ وعدتي العربجي بإيه غير الكردان يا فاجرة؟

تدخل الرجال أخيرا لمنع القصبي من الفتك بها، وألقى النسوة بفضيلة في السوكاندو كخرقة بالية... تنظر حولها دون أن ترى أبعد من دموعها.

أسند الشحات أم الخير حتى فراش فضيلة... جاءتها بقطعة قماش وبللتها من ماء القلة... أخذت تمسح بيدها اليابسة على جروح فضيلة والسحجات المنتشرة في جسدها، فيما تئنّ المسكينة... أشار الشحات بيد مرتعشة إلى النزيف بين ساقي فضيلة، فشحب وجه أم الخير وقالت بصوت حاولت أن تكسبه ثباتًا

ـ اخفى انت من هنا دلوقتي... دي أمور نسوان

عاد الشحات إلى فراشه بعيدًا عن تجمع النسوة... رقد محاولاً تجاهل الأسرة الخالية حوله... يضيق عليه السوكاندو رغم أنه يكاد يفرغ من الخدم... سمع الشحات صوت الماء يغلي في الصفيحة... تلك الصفيحة الكبيرة التي تجمعهم... نظر إلى الضفادع حوله... يسمع إحداهن تقول

«قالوا للقردة اتبرقعي قالت ده وش واخد على الفضيحة»

يتعمدن أن يصل صوتهن إلى فضيلة... يتعمدن أن يقضين على ما تبقى من روحها... فكر الشحات بالتنازلات التي قدموها ليعيشوا في هذا المستنقع... فأدرك أنهم لم يعودوا بشرًا منذ زمن.

لم يتوقف الهمس والكلام القادح طوال الليل إلا عندما هز أرجاء السوكاندو انفجار جديد... انفجار قريب هز أسس السراي فراحت تئن... يرتعش كل حجر من أحجارها... لم يأبه الشحات حتى

بالتحرك... نفض بعضًا من الغبار الذي أصابه من سقف السوكاندو وظل يراقب برصًا صغيرًا، يركض على الجدار في جميع الاتجاهات بحثًا عن شق يتوارى به... ظل الشحات على وضعه ذاك حتى أخذته إغفاءة عميقة، طاردته فيها الكوابيس... اختلفت أشكالها وتفاصيلها لكن بقى الهلع ثابتًا... أتاه في أحدها مولانا الجابي، في عباءة خضراء وعمامة طويلة، يحمل طفلاً لا يكف عن البكاء... أمره أن يجلب اللبن فركض الشحات نحو بقرة... أراد أن يقول إن ضرعها قد جف، لكن مولانا الجابي أشار له أن يستمر في حلبها... أطاع الشحات كعادته... أطاع ولم يعلق عندما انهمر اللبن أسود كالقطران... ناوله لمولانا الجابي، الذي سمى وأخذ يرضع الطفل.

استيقظ الشحات وهو يسعل من أثر كتلة الدخان التي أطبقت على السوكاندو، وأرخت بستار رمادي كئيب على الوجوه الراقدة... لا بد أن الرياح حملتها من انفجار الأمس... تلا الصمدية وهو يطالع النيام من حوله... أراد أن يقص رؤياه على أم الخير، علها تملك تفسيرًا... علها تطمئن قلبه الذي يكاد يفر من بين ضلوعه... وجدها نائمة بجوار فراش فضيلة الخالي... سعل من جديد فأفاقت، تتلفت حولها بحثًا عن فضيلة... أراد أن يحكي عما رَآه لكنه أطبق شفتيه حينما شهقت أم الخير... تشير إلى قدميه المخضبتين بالدماء وتصيح حتى أيقظت النيام.

هرولت النساء إلى الكنيف فور أن تبينّ نهر الدم الذي يشق السوكاندو إلى نصفين في طريقه إلى الكنيف

- يا سوادي... يا سوادي

تلطم أم الخير وهي تتعكز عليه نحو الكنيف، ويتعالى نواح النساء... لن ينمحي من ذاكرة الشحات ما حيي ما رآه خلف الستارة التي لا تستر... تمددت ساقان عاريتان خرجت إحداهما خارج نطاق الكنيف... يطالعهم وجه لا يشبه وجه فضيلة، لا يزال يطبق على قطعة قماش في فمه، ويد زرقاء لا تزال تستل سيخًا حادًا... وقطعة لحم ترقد إلى جوارها في بركة من الدماء.

لم يشهد الشحات ما حدث تلك الليلة، لكنه يستطيع تخيله... تنبض رأس معدته كلما تخيل فضيلة تستيقظ... تتأمل العقبان الغافية حولها... تعلم ما ينتظرها في غدها من زوجها ومن النسوة... لعلها رأت الدخان كآية تدفعها لإنهاء مآساتها... الحياة تستحيل رمادًا... يراها وهي تتحامل على نفسها حتى تبلغ الكنيف وترخي عليها الستار... يراها تستل سيخًا يعلم اللـه من أين لها به... تباعد بين ساقيها، وتضع خرقة في فمها... تقود السيخ إلى أحشائها وتكتم ألمًا لا يحتمله البشر... يفيض الدم وهي تحاول إخراج ما بأحشائها... تقود بآخر عزمها السيخ أعمق... حتى تنجح في التخلص من تلك البذرة النجسة... بذرة الكفر الملعون التي تنمو بداخلها... أفرغ الشحات ما ببطنه مرات ومرات... حتى لم يتبق إلا عصارة صفراء، لكن معدته أبت أن تستكين.

توقف كل شيء في السراي وتجمهر الخدم حول جثة فضيلة، يرددون الشهادتين بلا توقف ويرفعون أصابعهم صوب السماء المحجوبة بسقف السوكاندو... سارعت النسوة بستر جثة فضيلة بثوب زهري استخرجوه من سبتها، أزاحته أم زكي لتسترها بعباءة سوداء... تعالى العويل واللغط واستولى الارتباك والرعب على الخدم، حتى أتى القصبي يدفع الجمع... انتابته رجفة شديدة وهو يبصر اليد الزرقاء التي لم تسترها العباءة... يد تحمل آثار الموسي في ساعدها إلى جوار قطعة اللحم المدماة... نطفة يعلم أنها لا تخصه... نظر القصبي نظرة خاطفة إلى نعيم، حملت من الكراهية ما حملت، قبل أن يبصق العجوز على جثمانها ويرحل

- ربنا حينتقم منا

قالها الشحات بلا وعي، فرددها الرجال من حوله... تبكي النسوة ويتعالى الأنين، حتى لم يعد هناك غير أفواه فاغرة وحلوق تشققت من كثرة الصراخ.

ما الذي أصاب الخدم ذاك الصباح؟ أهو الدم الذي يَرَوْنه يغرق السوكاندو... أم أن الجوع ايقظهم أخيرا؟ أهو تراكم القهر... لا يعلم نعيم ما الذي أصابهم... لكنه أدرك أن شيئًا تغير في أعين الخدم المكسورة... تأكد من ذلك حين رأى بعضهم يتكتلون عند السلاملك... يزداد عددهم كلما انضم إليهم خادم جديد يقسم بأغلظ الإيمان أنه لن يبيت في القبو الذي ارتوى بالدم ليلة أخرى... ثم وقعت الطامة الكبرى عندما أبصر أم الخير تتعكز على ابن النجس وعلى عصاها... تقوده نحو الإسطبل... نحو مخزن العلف... عندما أدركها نعيم كانت تضرب الباب والقفل بعصاها

ـ أنا مش قلت لك ماتعتبيش هنا تاني يا ولية؟

هكذا هدر صوت نعيم وهو يخترق جمع الخدم المتحلق حول أم الخير... دفعها بعيدًا عن الباب فسقطت على وجهها وهي تصرخ قهرًا... تجمع الخدم حوله... يحولون بأجسادهم دون وصوله وحرسه إليها من جديد... دفعهم حين سدوا الطريق، حتى تجرأ أحدهم وضربه... ضربه خفيفة وجلة لا تخرج إلا عن مخنث كابن الأفندي... كاد نعيم يفتك به لكنه شعر بضربة أخرى من خلفه... ضربة أشد قوة... تتبعها ضربات أخرى من أياد معروقة أنهكها الجوع والخوف... كان نعيم لا يزال مذهولاً عندما استل الخدم العصي والقضبان المتناثرة حولهم... يعملونها في جسده بعد أن تراجع الحرس عن حمايته ليتواروا عن أعين الخدم الهائجين.

لم يوقف أم الخير الصراع المحتدم خلفها... لم تلتفت حين سمعت عويل نعيم بعد أن شج الخدم رأسه، ثم سحلوه إلى خارج الإسطبل ليكملوا ما بدؤوه... ظلت تضرب بعصاها القفل حتى أجلسها الشحات وهو يقول

ـ عنك انتي يا امه

خرجت صبا من مخزن العلف هزيلة... هائمة... شعرها ثائر وعيناها حمراوان كالدم... لم تطل النظر ولم تتكلم... كانت تعرف وجهتها كما يعرفها الجميع... حملت فأسًا وذهبت من توها إلى العزل... قاوم القفل الجديد ضربات فأسها، لكن أحدًا لم يتطوع بمعاونتها... يدركون أن تلك مهمة صبا وحدها... تتوالى الضربات، فيضطرب قلب الشحات فرحًا... أخيرا سيقفز من هذه الصفيحة الكبيرة... يردد من بين أنفاسه

ـ حنفط يا دياب

لم تعد العودة إلى الكفر بذلك السوء... على الأقل هناك سيشعر الشحات ببعض الأنس بين دور الغرايبة... أما هنا فصديقه الوحيد يقبع في العزل... لكنه سيخرج... وسيعتذر له الشحات... سيقبل رأسه وسيصلح ما أفسدته أيام العزل... سيغفر له دياب... كعادته... لكن القفل العنيد يأبى أن ينكسر... يختلط صوت دقات الفأس بصوت عويل نعيم في الخارج... يصيح الشحات بمن بالداخل أن انتظروا الفرج... يصيح باسم دياب... لكن ما من مجيب.

انكسر القفل عندما أسلم نعيم الروح...

لكنهم تأخروا...

ذلك ما أدركه الجمع عندما فُتح الباب أخيرا وغشيتهم رائحة الموت... وطئ الخدم بعضهم البعض هربًا من هول المنظر، لكن الرائحة طاردتهم... تلعنهم على تأخرهم... عرف الشحات المأساة من قبل أن يراها... من انهيار صبا بجوار العزل وصراخها الذي راح يدك الجدران.

(١٥)

خرج مرعي عسكر من غرفة الخواجة عندما أخبروه بموت ابن اخيه... جلس بجوار الخدم الذين انهمكوا في تغسيل موتاهم طوال النهار، يستند إلى وتد مغروس في طين الحديقة... يطالع جثة نعيم التي شوهتها أيادي الخدم ويردد

ـ اللـه جاب اللـه خد اللـه عليه العوض

جلس بجواره الشيخ جبريل، يعزيه بقوله إن نعيم مات وهو يحمي النظام... لم يسمعه مرعي، كان ينصت لحكايات الخدم عن الموتى الذين يغسلونهم... حكايات لم يسمعها مرعي من قبل كأن لم يقض بين هؤلاء عمرًا... يتناولون جرادل الماء ويفرغونها على الجثث الزرقاء ويقولون هذا كان له حفيدة يتوق أن يخرج من السراي كي يراها... هذا كان يدعو أن يدفن إلى جوار أبيه... وراء كل جثة حكاية وقف الخدم يتذكرونها بينما يعدون أصحابها للدفن.

ظل مرعي هائمًا حتى توارت الشمس خلف أسوار السراي... تعلق نظره بعصافير تتقافز على حافتها... يتأملها وهو عاجز عن فهم ما الذي أتى بها إلى هذه الصحراء المقفرة... سار مرعي بلا انتباه بين الخدم الذين راحوا يحملون الجثث، الواحدة تلو الأخرى صوب الحفرة الكبيرة... حتى جاء الدور على دياب، فانتصبت صبا

ـ دياب حيتدفن وسط أهله في الكفر

قالتها بحزم من بين نحيبها الذي لم يتوقف... فأيدتها أم الخير وتبعها الشحات... نظرت أم زكي لهم شزرًا قبل أن تنقل عينيها إلى مرعي عسكر، تستنطقه...

طالع مرعي دم نعيم الذي يغرق جلبابه ثم حدق في كومة الجثث لدى البوابة

ـ أنا حاموت واندفن هنا، جار نعيم والخواجة...

قالها ولم يزد.

انهمك الخدم في دفن الجثث، وانهمكت صبا والشحات في إعداد دياب للرحيل... وفي المساء جلس الكفراوية إلى مائدة الطعام بعد أن امتلأت الحفرة الكبيرة خارج السراي بالجثث... يراقبون صبا تجمع حاجياتها بأعين غائرة... يدور الحرس بقصعة الطعام الكبيرة ليوزع عليهم الشيخ جبريل طعامهم، يقول

ـ الليلة الكل حيشبع

كانت الوجوه مكفهرة... مترقبة... لكن الجوع حسم الأمر وامتدت الأيادي من فورها نحو قصعة الطعام قبل أن يُوزع... تلوك الألسنة فضيلة التي لم تبرد جثتها بعد... يقولون بأفواه ملئها الطعام

ـ كل القلبان ده علشان واحدة زانية... تستاهل اكتر من اللي جرالها

يزيدهم الشيخ جبريل من المقلاة الكبيرة فيزداد الهمس قوة

ـ زانية

حدقت فيه أم زكي ليزيد في صحنها... ثم أشارت بازدراء نحو مرعي عسكر الذي كان يحاول تطييب الخواطر بتوزيع الطعام ببعض العدل بين الجالسين حول المائدة، وقالت

ـ خرع من يومه... لازم تشد على الخدامين يا شيخ جبريل

ـ خلي اليوم يعدي يا ام زكي... ومن بكره لينا كلام تاني

خلفتهم صبا وراءها... تعاونت مع الشحات في حمل جثة دياب التي أصابها الهزال فلم تعد بذاك

الثقل... سارت في وفد من الخدم قرروا الرحيل معها حتى توقفوا عند البوابة المنهارة التي لم يعد هناك من يحرسها... البعض لا يستطيع تخيل قدميه تطآن الرمال خارج السراي

- إحنا نستنى يومين بالعدد... جايز الجابي بيه يبعت مرسال

قالها أحدهم

- وان ماجاش نبقى نخرج

أيده تردد الخدم من حوله... تأملوا القبة المنيرة التي تلألأت من جديد بعد أن عادت الكهرباء... تعلقت بها الأعين فانتعشت القلوب بأمل واهن... البعض يجتاحه حنين غريب للأيام الخوالي، حين كانت تلك القبة قبلة المحروسة... البعض خدرته رائحة الزبد الذي لم يطعمه منذ شهور... تناديه للعودة إلى عشاء الخدم

- عين العقل... آهو حتى نتقوّت... السكة طويلة

جر الخدم أرجلهم وصررهم عائدين إلى السوكاندو، ليتناولوا العشاء... رنا الشحات إلى صبا، يستبقيها لليلة واحدة... لكن نظرة منها كانت كافية لجعله يتابع المسير... تتعكز أم الخير على عصاها خلفهما.

أجهشت صبا بالبكاء حين اخترقت البوابة... تبكي دياب الذي تحمله على كتفها... تبكي قدرها... تبكي لتفرغ شحنة ضاق بها صدرها حتى أوشك على الانفجار... نظرت إلى أفقٍ بعيد مظلم... تحيطه الرمال التي تحولت صفرتها إلى السواد بفعل الليل... كانت جائعة... خائفة... لا تدري كيف ستصل بحملها إلى الكفر... لكنها تابعت المسير... تشعر بهمٍّ ثقيل ينزاح عن كاهلها كلما لامست قدماها الرمال الساخنة... كلما حملتها خطواتها المرتعشة بعيدًا عن سراي الجابي.

الخاتمة

«في النهاية لا نتذكر كلمات أعدائنا...

ولكن نتذكر صمت الأصدقاء»

مارتن لوثر كينج

(١)

عاد الشحات إلى منبته من جديد، إلى ذات الأرض التي لفظته من قبل... يحمل صاحبه على كتفيه... وجاءت هي لتواري حبيبها الثرى... سارا وسط الحشد الضخم تلك الليلة نحو الجبانة باتجاه الشرق... تصفر الرياح بين الأشجار متوعدة أضواء الكلوبات، فتحث الأقدام السعي... تلحفت بعض النسوة بما تيسر من أسمال على رؤوس الغيطان، تبرز منها أعين متوجسة تراقب الفتاة الغريبة التي تقتحم عليهم الكفر... نفس النظرات المرتابة المتشككة عندما رأتها النسوة في السوكاندو أول مرة... بدت لصبا تلك الذكرى بعيدة... في عمر آخر... تعلق طفل بيدها قبل أن تنهره أمه فيهرول مبتعدًا، لتتابع هي المسير... تتعكز عليها أم الخير التي أصرت رغم العجز على حضور الدفن.

كانت جنازة دياب أعظم جنازة يشهدها الكفر... خرج لها الغرايبة عن بكرة أبيهم، وانضم لهم شباب الكفر ممن مست قصته شيئًا في قلوبهم... تتردد أنباؤها في الدور وعلى المصاطب وبين

الطرقات... صار للغرايبة بطل يتحدثون عنه، يرفعون مقامه إلى مصاف القديسين... يملأون الدنيا ضجيجًا بالحكي عن مقاومته لجنون مرعي وبطش نعيم... حتى إن المقدس عبد ربه اضطر للحضور على مضض، لسبغ بركاته على الشهيد العظيم... سارت صبا بين الجموع التي تنعى حبيبها، الذي لم يكتب له أن يرى سيرته تعلو إلى مصاف الأبطال كما الهلالي.

دفن دياب إلى جوار خاله بشاي... قال الشحات لها إن دياب سيسعد كثيرًا لذلك... زارت صبا منزل الجدة الكبيرة للعزاء، حيث ارتفعت الترانيم الجنائزية... لكنها لم تكن تنصت... كانت تتأمل المكان لتحفظ التفاصيل التي شب دياب بينها... هنا حلم وأكل ولها بين دور الغرايبة السوداء... تسمع ضحكته تتردد بين الطرقات الصامتة... تراه طفلاً يجلس لدى قدم الجدة الكبيرة... يسمع تراتيل السيرة... رأته يركض مع الشحات، يتعارك مع الأطفال، ويضرب نعيم حتى يكسر أنفه... آخر ما تذكره صبا ابتسامته في شرفة السراي الرئيسية... تلك اللحظة التي اقتربت منه لمرة أولى وأخيرة... حين كانا من ملوك العالم.

باتت صبا تلك الليلة في دار أم الخير... فتحت لها العجوز حجرة، قالت لها إنها حجرة سيد... قالت إنها لم تدع أحدًا يطؤها من بعده، ثم ابتسمت وناولتها غطاء يقيها برد الليل... في ظلام تلك الحجرة شعرت صبا براحة غريبة... شعرت أنها تنتمي إلى هذا المكان وإلى هذه الحجرة... نامت حتى أيقظتها أم الخير الصباح التالي على الفطور الممتد على طبلية كبيرة، جلس إليها الشحات... وبعد الإفطار استأذنت من أم الخير، وطلبت من الشحات أن يأخذها إلى كرمة العنب التي حدثها عنها دياب.

ميزت صبا الكرمة قبل أن يخبرها الشحات... كانت كما وصفها دياب وكما رأتها في مخيلتها... جلست هناك في ظلها الوارف، سكنت حتى اطمأنت الحمائم وعاودت الاقتراب... تسمع هديلها مفعمًا بالحنين... هبت عليها نسمة رقيقة، فشعرت صبا بروح دياب تمسها... تشعر به يحدثها في هديل الحمائم... سعيد هو بمجيئها... تسمعه يروي السيرة كما وعدها تحت الكرمة... تميز صوته مجلجلاً، بين آلاف من أصوات الرواة، يبدأ الحكاية بافتتاحية جدته التي لا تتغير

«أول ما نبدي، نصلي على النبي...

نبي عربي... نوره طفى المصباح...

ألفين صلا ترضي النبي أشرف الأمم...

نور المكمَّل من جبينه لاح ...

يا صفوة الخلج... نبي عربي صفوة كريم فتّاح»

كم أوحشها دياب.

(٢)

لم يعد الشحات يبرح كنف أم الخير منذ أن أقعدها المرض في الدار... يتكفل بقضاء حوائجها ومعاونتها في ما تبقى لها من أيام... تأملت أم الخير شبابه وهو نائم على أريكة متهالكة بجوار فراشها ثم طالعت الجدار أمامها... مرت سنوات عمرها دون أن تشعر، وصارت الأيام الأخيرة طويلة لا تمر... لا يهوّن طولها إلا زيارات صبا... ترتد لها الحياة لسويعات قليلة بقربها... تجالسها وتحمل معها أخبار العالم الخارجي، تقص عليها وهي راقدة ما قرأته في الجرائد.

حارت الصحف في تأويل ما حدث في تلك السراي العجيبة... ظهرت روايات مختلفة، وإن بقيت

دومًا الصورة غير مكتملة... دُفن الكثير من أسرارها مع من قضوا، أو من آثروا الصمت بعد النجاة... حاولت الصحف إيجاد تفسير منطقي لبقاء الخدم في السراي بعد اختفاء السيد، الذي لم يجدوا له أثرًا... جنح بعضهم إلى الاعتقاد بأن الخدم كانوا على اتصال بالبك، وأنه أمرهم بالبقاء... ثم انهارت تلك النظرية كجميع سابقاتها باكتشاف انقطاع وسائل الاتصال عن السراي قبل رحيله... بعضهم ظن أن الخدم كانوا تحت سيطرة مجموعة من المطاريد... لكن الجميع فشل في تفسير ذاك القبر الجماعي أمام السراي، والجثث المحبوسة التي قضت من الجوع... إضافة إلى أولئك المسممين أمام مائدة الطعام.

لم تبتئس أم الخير عندما علمت عن تسمم مرعي ومن بقي معه من الخدم... أزعجتها ذكراهم لأيام قليلة قبل أن يكف نواح النسوة عليهم في الطرقات... قالت صبا إنها قرأت أن سم الفئران لا يقتل سريعًا... يشعر من يتناوله بتمزق أحشائه قبل أن تزهق روحه مع تشنجات مريعة، يشعر معها بتكسر عظامه... قالت إنها قرأت أن العقبان ظلت تحلق فوق السراي لأيام طويلة حتى بعد أن نزعوا ما تبقى من الجثث.

ظلت التكهنات عن قصة سراي الجابي حاضرة في الصحف، تمثل إلهاء صحيًا ومطلوبًا عن أخبار الحرب الكئيبة، حتى اختفت أخبارها ككل شيء في هذه الدنيا وطواها النسيان... لكن الذكرى لا تزال عالقة في فكر أم الخير، الذي يزداد ضبابية بمرور الأيام... تختلط به وقائع الماضي بالحاضر... تتداخل أحاديث سيد بأحاديث صبا.

جاءتها صبا تلك الصبيحة وقبلت رأسها، لكن أم الخير عجزت عن الاعتدال لتحيتها... كان وجهها يشي بخبر مفرح... ظلت صبا تردده لكن سمع أم الخير لم يعد كما كان... تعاون الفتى على محاولة إيصال الخبر لكنه أبى أن يخترق أذنها

ـ بتقول ايه؟ علّي حسك يا سيد

ـ بتقول لك الحرب خلصت يا امه... الانجليز كسبوا

هكذا صرخ في أذنها الشحات الذي صارت تناديه بسيد، ولم يكن يعترض... مطت أم الخير شفتيها وهزت رأسها بلا اهتمام... ماذا يهمها من أخبار الحرب؟ ماذا يهم هذا الكفر من الحرب؟ هنا لا يحتاج أحد من يقتله، تكفلوا هم بقتل أنفسهم منذ زمن.

جلست الصبية والصبي يتحدثان بجوارها... لكن أم الخير لم تكن تسمع... تشعر في عزلة الصمم بتراب الكفر يناديها...

آه يا سيد...

خسيسة هي الأيام يا ولدي، صارت ملامحك تتوه في دروب الذاكرة الوعرة يا ضناي... لا بأس... هي قادمة... الآن انزاحت الغشاوة... الآن فهمت كلامك يا سيد... فهمت أن الوباء حق... لكن كنا نحن الموبوئن... سجنوك في دار فتحي عسكر وأسموها بدار الحجْر... ونسوا أن الكفر كله محبوس، حجر أهله على أنفسهم... معزول عن العالم بأسره... ثم أرادوا أن يعزلوه عن المتكلمين بالحقيقة من الداخل... ابتسمت أم الخير في وجه الشحات تلك الليلة... قالت والعرق يكسو جبينها

ـ لما اموت يا ضناي... حطني جار سيد علشان ارتاح

لم تسمع اعتراضه ولم تر الدموع في عينيه... بهدوء قررت أم الخير أن تنام بعد أن أوصت بالدار لصبا... كان آخر ما رأت قبل أن تغمض عينيها الزينات التي علقها الأهالي في الدرب القديم احتفالاً بمولد سيد... سمعت صوت الأفندي... باهتا وبعيدًا... سمعته يناديها لتناول العشاء صحبة... رأت دياب يبتسم خلفه... لم يكن لائمًا... لم يكن حانقًا... والأهم، سيد يشير إلى مكان استبقاه لها... يحثها

على المجيء، فأسبلت أم الخير جفنين ثقيلين ولم تستيقظ... بعد أن رأت من الدنيا ما يكفيها.

(٣)

حُملت أم الخير إلى الجبانة بلا ضجيج يذكر... دفنوها تحت قبة صغيرة بلا ضيق إلى جوار قبر سيد كما أوصت... عاد بعدها الشحات إلى دار عمته، وعاد معه كلام زوجها المأفون عن عدم جواز انكشاف ابنته سعدية البائرة على رجل غريب في الدار... هكذا يقول زوج عمته في الصباح قبل أن يخرج، ثم يعود الرجل يبكت عمته على طبلية العشاء، يقول إنها زرعت نخلة مالت بعد أن كبرت لتظلل على غيط الجيران.

خارت مقاومة الشحات في النهاية... فكر أنه لا بد أن يغرس نفسه في أرضٍ ما... لا بد أن تنبت له جذور... قد تخرج عنه سمعة بطالة إن أحجم عن الزواج... والكلماتُ في الكفر كالحراب السامة... خاصة إذا كنت ابن الأفندي.

طارت عمته فرحًا عندما أسر لها بنيّته... قالت إن ذلك نصر من اللـه... لم يدر ما النصر، ولمَ كتب عليه أن تكون أعظم انتصارته استسلامًا... المصيبة أن سعدية تصنعت تمنعًا... سمعها تقول إنها لن تصوم وتفطر على ابن الأفندي الذي لا تقبل به فتاة عاقلة في الكفر... فقالت عمته وهي تزوم

ـ آخد ابن عمى واتغطى بكمى... اكتمي يا بت

كتمت سعدية حسها كما كتم الشحات حسرته... سافر زوج عمته إلى طنطا وجاء بالنحاس والكسوة... عمت الدار فرحة خجلة تلك الليلة، وسعدية ترص النحاس... ناوله زوج عمته قطعة من قماش الكشمير، وهش في وجهه وهو يقول

ـ فصّل منه... بس ابقى حوش لي حتة لوش الصديري علشان الفرح... هنيالك يا شحات

دخلت عليه عمته يوم العُرس تملأ عينيها الدموع، لم يدر الشحات أتبكي مصيره الأسود أم أنها دموع الفرحة لسعدية العانس التي وجدت أخيرا «اللطخ» الذي يرضى بها زوجة... أتى الشحات بعد ذلك زوج عمته يعلو وجهه الحبور وابتسامة تكاد تشق وجهه نصفين

ـ صبرت ونلت يا شحات... البت تقول للبدر قوم وانا اقعد مطرحك

لا بد أنه بدر أصيب بالسل وقرر الموت غرقًا في الترعة الشرقية... ألا لعنة اللـه على الكذابين... بقيت سعدية تتزين ما بدا للشحات دهرًا، وفي النهاية استطاعوا أن يحولوها إلى بومة

ـ إيش تعمل الماشطة في الوش العكر

هكذا دمدم قبل أن ينحشرا معًا في الحجرة التي خصصت لهما في دار عمته.

كاد قلب الشحات يتوقف صباح اليوم التالي، عندما استيقظ ليجد زوج عمته عاريًا في الفراش إلى جواره... استغرق الأمر عدة دقائق ليهدأ بعدما أدرك أنها سعدية... اللعنة على ذلك الوجه... كأنهما فردتي صرمة فُصِّلتا لدى نفس الصرماتي... حاول الشحات أن يبتعد عنها، لكنها كانت جريئة، تلقي كل ليلة بسروالها وتداعبه...

ـ إنتي يا بت عينك مفتوحة كده ليه؟

هكذا يصيح وهو يهرول بعيدًا، يحاول تصنع خشونة تقهرها... فتمصمص سعدية شفتيها في حسرة وتقول

ـ اللي يتكسف من بنت عمه مايجيبش منها عيال يا شحات... مالك

يا خويا... ما تنشف كده وتصلب طولك

ألمحت له عمته الصباح التالي وهي تناولة القلة بضرورة التودد لسعدية، قبل أن تهمس

ـ دي عروسة يا ضناي

الملعونة لم تنتظر يومًا واجترت ما في جعبتها لأمها... لكن زوج عمته لم يكن بتلك الكياسة ليعرّض... ظل يحدجه بنظرة تقطر شماتة وهو يتمتم

ـ قال رجالة قال

نجحت سعدية في نيل مبتغاها... وسرعان ما حبلت في طفلها الأول... أفلح الشحات في تسميته دياب بعد عراك دام أياما، ليكون انتصاره الأول والأخير على سعدية... ولم تمر سنة بعد أن وضعت سعدية دياب حتى حبلت في بنته الأولى... ثم الثانية... والثالثة... وما هي إلا بضع سنوات حتى مشي دياب بين العيال في طرقات الكفر، يحتفلون بقيام جمهورية وسقوط مملكة... برحيل ملك وظهور رئيس... قال زوج عمته تلك الليلة بينما يكرع الجوزة إن الألقاب سقطت مع سقوط الملك... لكن الشحات لاحظ أن الباشاوات ازدادوا عددًا منذ رفع الألقاب.

رحلت عمته عن الدنيا في هدوء، ثم تبعها زوجها وبقي هو في الدار مع سعدية الشمطاء... يتجنبها بالبقاء على المصطبة التي لم يعد يبرحها، يكرع الجوزة التي ورثها عن أبيها... سمع الشحات في ما سمع بينما هو على مصطبته أن الثورة أهدت سراي الجابي لجنرال كبير في الجيش، تنحدر أصوله من قرية مجاورة... سمع الشحات أنها صارت أبهى وأفخم مما كانت عليه... وأن قبتها عادت قبلة أكابر البلد الجُدد بعد أن عاودت التلألؤ من جديد... رمت سعدية العيال بحصاة تلك الليلة وصاحت بهم ليكفوا عن العبث بالدار، قبل أن تقول

ـ الكفر كله بيدور على واسطة علشان يبعتوا عيالهم يشتغلوا في السرايا... بيقولوا انها محتاجة خدامين كتير

وزعت بعدها أراضي الزمام الغربي والعزب المجاورة على الأهالي وفق قانون الإصلاح الزراعي... وتعالت الدعوات من الدور والمساجد لعبد الناصر نصير الفقراء... أصاب الشحات منها بضع قراريط انشغل مع صغيره دياب بحرثها وفلاحتها... أعرض رغم تقريع سعدية عن حمى البحث عن العرق التي اجتاحت الكفر، بعد أن وقعت تحت أيديهم أراض لم تجرف من قبل... تجاهل الشحات نظرات ابن المقدس عبد ربه الغائرة كلما مر عليه ليجد الغرايبة بغيطه، يعاونونه على فلاحته... يسمعه يقول

ـ سلسال الافندي النجس

يسأل دياب ببراءة عن الأفندي، فيمسك الشحات لسانه... كان بعد لا يدري ماذا سيخبره عن جده... ترن في أذنه تحذيرات سعدية المغلظة من ذكر تلك السيرة... تقول

ـ إحنا ما صدقنا الناس تنسى... سيب الواد يعيش

يعض الشحات على لسانه ويبقى أسير الغيط والمصطبة حتى يحل العيد... يستدل عليه عندما يجذبه دياب بكفه الصغيرة تجاه الساحة أمام المقام المهجور... يخترق به الحشد المتجمع حول أراجوز العيد الذي يجر عربته حتى يستقر وسط الساحة... يقوم بحيله... يتراقص مرة... يسقط على الأرض مرة... ثم يفرقع «الحبش والأطاليا» فيضحك دياب ملء فيه... وعندما ينتهي الصغير من تسليته، يحمله الشحات وينسل نحو دار أم الخير... حيث الشخص الوحيد الذي يكسب عيد الشحات طعمًا...

صبا.

تمر صبا على الكفر في مواسم القرافة لتزور دياب وأم الخير... تأتي عابرة ككل فرح في حياة الشحات... يتجاهل سعدية التي تضرب على صدرها وتعض على شفتها السفلى في حسرة وهي تولول

ـ شوفوا الراجل الناقص... إيش حال ماكانتش معصعصة ومعرقبة وتقرف الكلب... يا ميلة بختك يا سعدية

يمد الشحات الخطى بينما تقسم سعدية بأغلظ الإيمان وشرف الأقرباء الأحياء منهم والأموات إنها ستطين عيشته... يظل على صمته حتى يختفى نعيقها فيبصق أرضًا... يضحك دياب... فيضحكان معًا.

جلست صبا على المصطبة كعادتها بعد زيارة القرافة، فتربع الشحات إلى جوارها فيما قرفص صغيره عند قدميها... يرجوها كعادته أن تقص عليه حكاية جديدة عن القاهرة وعن أهلها... التقطته صبا وقبلته قبل أن تجلسه على حجرها وقالت

ـ إحنا حنعمل الليلة حاجة أحسن

زادت لهفة دياب فأردفت مبتسمة

ـ حنسمع سيرة الهلالي بصوت ابوك... عمك كان بيحبها قوي

ـ عمي مين؟

نظرت صبا إلى النجوم اللامعة في قبة السماء وقالت

ـ عمك اللي انت متسمي على اسمه... بس دي حكاية تانية ليوم تاني

جاهد الشحات حتى لا يتهدج صوته وهو يرتل موال الافتتاح لسيرة بني هلال على أذني دياب الصغير، الذي التمعت عيناه ببريق عيني عمه.

(٤)

أنفذت سعدية مشيئتها في النهاية، فترك الشحات القيراطين للنابشين عن العرق حتى بارا كباقي أراضي الكفر... ورغم ضيق الحال، لم تكف سعدية عن وضع طفل جديد كل عام أو عامين... يسمعها الشحات تقول كلما مرت بالمصطبة أمام الدار

ـ يا ميلة بختك يا سعدية... إنت مش ناوي تعتب الدار يا راجل؟

لا يعيرها الشحات القابع هناك أبد الدهر انتباهًا... تمر عليه الأيام كالشهور كالسنوات مر دخان الجوزة التي لا تفارقه... تتعاقب عليه الفصول، فيفشل زمهرير الشتاء وهجير الصيف في زحزحته إلى جوف الدار... يبقى على مصطبته لينفث عمره دخانًا... يبقى على حاله تلك ميتًا، ينتظر عودة دق الخلخال إلى الكفر في مواسم القرافة، ليعود للحياة.

تزوجت صاحبة الخلخال هي الأخرى وأصبح لها أولاد في سن عياله... يتذكر أن صبا حدثته ذات مرة عن ابنها دياب الذي سيُصبِح محاميًا عما قريب... مهلاً

أكان ابنها، أم أن زوجها هو المحامي!

قطب الشحات جبينه محاولاً التذكر لكنه فشل، فسحب نفسًا عميقًا من الجوزة نسي مع خروجه ما

كان يفكر به... تلك تفاصيل تتوه في الليل المليء بالكدر، حين تتجمع عليه ذكرى ما كان... راحت عنه الكثير من الأشياء، تاهت تفاصيل وجه خاله مرعي ونعيم في ثنايا الذاكرة الوعرة... تاه وجه الجابي بك والخواجة... نسي أصناف الأكل وطرق التقديم كما نسي أسماء الكثير من رفاق السوكاندو...

لكن هنالك أشياء راسية في ذاكرة الشحات لا ترحل،

يبقى وجه صبا كما رآه أول مرة...

يبقى دق الخلخال...

تبقى حكاوي عابدون وضحكات الخدم...

يبقى وجه أخيه...

أخيه!

ترن كلمات صبا التي لم تبرح أذنه... أكدت ما كان يعلمه في قلبه منذ كان صبيًا... دياب ابن ابيه الأفندي... يشعر الشحات في قرارة نفسه أن دياب كان ابنه الوحيد... أما هو، الشحات القابع أمام دار سعدية الشمطاء يدخن الجوزة، فلم يرث من الأفندي شيئًا... حتمًا لم يرث شجاعته.

يستعيد الشحات في أيامه الجيدة ذكريات طفولته مع دياب... خاصة عندما يرى العيال الصغار يطاردون الضفادع ويلقون برهونهم... يضحك الشحات حتى يسعل رغم قسوة الفعل... وفي أيامه السيئة التي صارت تزداد مؤخرًا، لا يبقى له إلا صوت صراخ العزل... الذي صار يطارده في أحلامه ويقظته.

لم يعد دياب يجر أباه إلى أراجوز العيد بعد أن كبر وصار أطول وأعرض منه... فصار الشحات يستدل على العيد برائحة خبيز الرحمة... قام الشحات من توه ذاك الصباح كمن ردت له الروح عندما سمع تكبيرات الإحرام... قبض على عصا أم الخير القديمة وسعى حثيثًا نحو الجبانة... يعلم أين سيجدها... أدركها في ردائها الأسود عند قبر دياب... بقي صامتًا إلى جوارها، يستنشق عبق الريحان البعيد... لم تعد صبا بعد كل تلك السنوات تبكي لدى قبر دياب... صارت تكتفي بمطالعة القبة الحجرية بعين لامعة... أحيانا يسمعها الشحات تتمتم بما كان يظنه دعاءً، إلى أن تبين ذات مرة افتتاحية السيرة الهلالية، فأدرك أنها تناجيه.

زارا بعدها قبر ام الخير وسيد والافندي... أخبرته صبا في طريق العودة أن جدتها توفيت منذ فترة قصيرة هي الأخرى، وتركت لها في وصيتها شقتها... مرت بهما سعدية فانكمش الشحات وطالع الأرض هربًا من عينيها اللتين تتبعانه كعيون الصقر... حيتها صبا فتجاهلتها سعدية

ـ أبوك البصل وأمك التوم منين لك الريحة الطيبة يا مشؤوم!

هكذا صاحت سعدية بصوت جلي، فجفل الشحات... نزع طاقيته ومسح العرق الذي غزا جبينه، يتخيل ما ينتظره تلك الليلة عندما يعود إلى مصطبته... ضحكت صبا لفعله فأشرقت الدنيا وهتف قلبه فنسي سعدية... لم تهرم تلك الضحكة رغم انقضاء العمر... ابتهج الشحات عندما أخبرته صبا عن عزمها بيع شقة جدتها لتشتري بثمنها قيراطين من أرض الكفر التي لم تبُر، تزرع بهما أشجار البرتقال... تأتيهما بانتظام... قالت إن جو الكفر أفضل لصحتها، لكنه كان يعلم أنها تريد أن تبقى بجوار دياب.

غلفهما صمت رقيق قبل أن يفترقا... عاد بعدها الشحات إلى غفوته... ابتلعته تلك الغفوة لسنوات حتى عانق عامه الخمسين... أفاق منها على جلبة وحركة غريبة تعم الكفر... نظر من تحت الأسمال

البالية التي يتلحف بها، بعين لم تستيقظ بعد، إلى العيال الذين يركضون هنا وهناك... بقي خاملاً حتى داعبت أذنيه أصوات زغاريد ليست بالبعيدة... دس الشحات قدميه في المركوب وسار على هدى الصوت... تملأ أنفه رائحة فواكه ناضجة ويتضح صوت الدجاجات والبط المستغيث كلما اقترب من الساحة... يبلله العرق كلما تبين تلك الكلمة تتردد في هرج الفتيات الجذل

«السرايا»

كذب الشحات أذنيه... يحدث نفسه أن سمعه لم يعد كما كان... حتى رأى الوحش المعدني... يقبع حيث انتظره ذات يوم.

رغم كل تلك السنوات ما زال الشحات يتذكر تلك الشاحنة الملعونة التي حملته يومًا إلى سراي الجابي... كاد قلبه يتوقف وهو يرى سعدية تمسك بيد دياب الذي وقف في الطابور تحت حائط المقام... ينتظر مباركة ابن المقدس عبد ربه.

اتسعت عينا الشحات عندما رأى يد ابن المقدس البيضاء البضة، التي لم تر فأسًا من قبل، تمتد نحو جبهة دياب... سيدعو اللـه أن يحفظه من الفكر وأن يحفظ الكفر المجتبى... ثم يبعثون به إلى سراي الجابي ليعمل خادمًا.

سيأمرونه أن ينظر إلى خط الخدم...

وأن يتعلم الصمت كأبيه...

قبض الشحات على عصا أم الخير... وهتف

ـ كفاية

توقفت تراتيل ابن المقدس... شعر الشحات أن ضربات قلبه صارت مسموعة للجميع حين تحولت كل الأعين في الساحة المكتظة نحوه، تنظر له شزرًا...

تأمره بالصمت...

نظر إلى عيني دياب المضطربتين...

إلى عيني سعدية الجاحظتين...

اهتزت العصا في قبضته، وشعر بجفاف حلقه...

كانت تلك لحظته... إما أن يكون فاروقًا، أو يبقى شحاتًا... إما أن يتكلم الآن، أو يصمت إلى الأبد.

«رعب أكبر من هذا سوف يجيء...

لن ينجيكم أن تعتصموا منه بأعالي جبل الصمت... أو ببطون الغابات»

صلاح عبد الصبور

شكر خاص

محمد البنا

أميمة عبد العزيز

ماجدة فهمي

سعيد البنا

نانسي صدقي

نهلة بكر

هالة الشيربيني

أمير حسين

...

أشكركم لأنكم آمَنتُم بسرايا الجابي حين راودني الشك

وإلى صديقي الذي رفض ذكر اسمه،

- محمد نادي الشعراوي -

لا يسعني إلا الضحك كلما تذكرت نقاشاتنا «المطولة» حول سرايا الجابي، تلك النقاشات التي أوشكت أن تتحول إلى عراك بالأيدي والأرجل وتقضي على صداقتنا ذاتها... دمت ذخرًا يا كسينجر!

لأن الخيوط الخفية هي أقوى الروابط

facebook.com/EslamElbanaAuthor

facebook.com/Esalm.M.Elbana

eslam.elbana@gmail.com

ElbanaEslam @twitter

«.Invisiblethreadsarethestrongestties»

FriedrichNietzsche -